أوراق الكافر

الـكـتـاب:
الـمـؤلـف:
الـغلاف:
تـنسيق داخلي وإخراج فـني
عبدالـعليم مِـنا
الـطبعة الأولـى: 2021
رقم الإيـداع:
الـترقـيم الـدولـي I.S.B.N:

الـمدير الـعام: مروة الـمصري

الـتـليفـون: 01100528522

لـمراسلة الـدار: Email:
darnebogh@gmail.com

الآراء الـواردة فـي هذا الـكتاب تـعبر عن وجـهة نظر الـكاتب ولا تـعبر بـالـضرورة عن وجـهة نظر الـدار.

جميع الحقوق محفوظة ©

نـبـوغ لـلـنشر

أوراق الكافر

روايـة

محمود عبد العليم

دار نبــوغ للنشر والتوزيع

الإهـــــداء

القاص والمثقف والإنسان " محمد عبد الوهاب "
المثقف والنبيل جداً " مصطفى أبو سمرة "
أنتما اللذان حرضتماني على كتابة هذه الرواية ، ولولاكما ما ظهر هذا العمل إلى النور ولظل معي محبوسا تحت جلدي حتى الموت .

لكما

أهدي هذا العمل الروائي.

في 13أغسطس 1925

قرية (حجازه قبلي) مركز قوص – قنا

عندما استيقظ الشيخ " عبدالعليم " من قيلولة ذلك اليوم لم يجد – على غير ما اعتاد – زوجته " الحاجة " سعدية " بجواره نائمة على الأرض قرب سريره النحاس ، حلاق الصحة نصحها بالنوم على الأرض حتى يخف الألم الذي سكن ظهره.

حوقل الشيخ وتحسس قلة الماء البارد أسفل السرير ، تضعها الحاجة " سعدية " أسفل سريره دائماً كيما تكون قريبة منه ، رفعها إلى فمه بعد أن بسمل . سحب من تحت الوسادة سبحته العاج (أتى بها من أرض الحجاز فيما أتى به منذ عامين) .

- إنت فين يا حاجه ؟ ...... [قال الشيخ] لم ترد عليه ، غير أن " أحمد " ولده الوحيد الباقي بعد موت " طه " في حريق لبيت جده منذ خمس سنوات ، قال له :

- أمي راحت بيت جدي !

وقبل أن يستفسر الشيخ عن السبب ، أكمل " أحمد " :

- أصل فيه عركة وزعيق حريم ناحية بيت جدي وراحت تشوف إيه اللي حصل

- وما رحتش إنت ليه ؟ ! صغير ياك ؟! ... [سأل الشيخ]

- أمي رفضت مرواحي لوحدي أو حتى معاها .

- لسه بتخاف عليك وفاكراك صغير ،(ربنا يساعدها ، بعد موت " طه " خايفه التاني يضيع).

الجملة الثانية قالها الشيخ بصوت خفيض وهو يتجه ناحية الكنيف ،

بعدها توضأ لصلاة العصر قبل أن يذهب إلى المسجد الكبير ليؤم الناس كعادته .

- هات المنشفه يا " أحمد " .

كان " أحمد " يحدق من كوة في الحائط الغربي من البيت ، مسرعة كانت أمه تجري ناحية البيت عائدة حافية واضعة إحدى يديها فوق رأسها والأخرى تضرب بها صدرها ضربات متتابعة ، تولول من حدث جلل .

....

منذ سنتين .. مات الحاج " طلبه " وخلّف وراءه رجلين ، الشيخ " عبدالعليم " حامل كتاب الله و " إبراهيم" أشهر مزارع في (حجازه قبلي) . كان " إبراهيم "قلما يبرح أرضه ، فهو منكوت فيها من الشمس إلى الشمس ، حريصا كان على زرعته . لطالما اختلف مع جاره في الغيط ، أيهما أحق بالسقيّة ، هذه المرة تصاعدت حدة الخلاف بينهما .

يروي أحد الذين عاصروا الحادثة ورأوها رأي العين : أن الدم كان ينبجس من رأس " إبراهيم " بعد أن غادرتها فأس جاره لدرجة أن صار لون ماء الجرة أحمراً بعد أن سقط " إبراهيم " فوق جرة الماء الفخار .

يروي آخر : أنهم وضعوه فوق حماره الأسود حتى وصل إلى بيته الذي ورثه عن والده الحاج " طلبه " بعد أن تنازل له عن نصيبه فيه الشيخ " عبد العليم " أخوه .

مات " إبراهيم " وماتت قبله زوجته دون أن تنجب .

الثأر . . .

لم يكن أمام الشيخ إلا الثأر لأخيه . لكن ماذا بعد ؟ .. هذه بداية نهر من الدم وهذا أيضاً قضاء الله وقدره !

رفض الشيخ العزاء ، كان ذلك رسالة ووعد بالثأر ، ولا قدرة للشيخ بالتراجع عن وعده .

- قدّر الله وما شاء فعل .. " أحمد " مش صغير يا " سعدية " وأنا وإنت ما كبرناش قوي ، نقدر نتحمل تعب الرحيل – يكمل الشيخ كلامه لزوجته - : أنا اتفقت مع عم مرات المرحوم على بيع البيتين ، بيتي وبيت المرحوم والأرض وتقريبا هو اللي هايشتريهم ، وساعتها هاقول لك جهزي اللي نقدر نشيله معانا وقبل ما نرحل ، نعمل الواجب والمكتوب ونريح " إبراهيم " في قبره

****

2 سبتمبر 1925 – نفس القرية

طول عمره وهو مسالم ، علاقته بأهل (حجازه) كعلاقته بربه ، أن يطرق أحدهم بابه [عم مرات طيبة وصادقة . لم يتصور يوماً أخيه المرحوم] ؛ ليدس في حجره قطعة سلاح ناري طلقة واحدة كأنها يدوية الصنع . قبلها بيومين كان قد كتب حجة بيع البيتين والأرض ودس ثمنهم في محفظته العتيقة .

إنهمكت الحاجة " سعدية " في وضع وحشر كل ما يمكن حمله في بقجة كبيرة ، كانت الدموع تغالبها وتجاهدها كي لا يراها " أحمد " الذي لم يكف عن السؤال :

- طيب .. وبعد ما نسيب (حجازه) هانروح فين يا أم " طه " ؟ !
الحاجة " سعدية " لا تملك إجابة لمثل هذا السؤال ، فقط تسكن الإجابة رأس الشيخ "عبدالعليم"

الذي بعد أن أصدر قراره للحاجة كيما تقوم بدورها في الاستعداد للرحيل في غبشة فجر هذا اليوم الذي تأخر فيه – عمداً - عن صلاة الفجر ؛ حتى لا يؤم الناس في آخر صلاة له في مسجد (حجازه قبلي) الكبير .
في آخر الصف ، وقف الشيخ متشحاً بالصرامة والجد . بعد انتهاء الصلاة ؛ لم ينتظر لحظة حتى لا يلتفت من بجواره ويعرفه . انفلت الشيخ إلى خارج المسجد ، لحظات وكان قد اختبأ خلف شجرة السنط قرب غيط المرحوم " إبراهيم " وبيده السلاح الناري وفي عينيه انتباه ويقظة القائد في الميدان . من بعيد تسمَّع لصوت قدم تخوض في ماء السقيَّة .

بعد سنوات سوف يحكي الشيخ كيف أنه بعدما قتل قاتل أخيه بطلقة واحدة ، قام بجره من رجليه وألقى به أمام بيت الجد الذي كان يعيش فيه " إبراهيم " .

الثلاثاء أول يناير 1928

قرية ميــر – القوصية – أسيوط

الحاجة " سعدية " منهمكة منذ صباح اليوم مع جارتها الست " أم مينا " لإعداد وتجهيز بسكويت وكعك العيد (عيد الميلاد يوم الإثنين 7 يناير) .

منذ ثلاث سنوات والعلاقة بين أسرة الشيخ " عبدالعليم " وجيرانهم ، خاصة بيت المقدس " سمعان " أبومينا تزداد قوة ومتانة ومحبة .

- عارفه يا أم أحمد ، يوم ما جيتولنا هنا [مير] كنا قلقانين منكم بصراحة شويتين – قالت أم مينا ثم أكملت – شيخ واسمه عبدالعليم ومراته حاجَّه وابنهم الوحيد اسمه أحمد هايقعدوا شويه وهايمشوا على طول .. مسلمين ؟ واحناهنا يا أختى كلنا نصارى .. إزاي ده يا ناس ؟ !

الحاجه سعدية ضاحكة

- يا أختى ما محبة إلا ما بعد عداوة ...

قاطعتها الست " أم مينا " :

- أبدا يا "أم أحمد" ما فيش عداوة ولا حاجه ما وصلتش لكده يا ستي .. كنا قلقانين منكم شويتين ، لكن واسم الصليب بعد ما عرفناكم وعاشرناكم ؛ ما حسناش بالفرق بيننا وبينكم أبداً.

- الشاي يا " أم مينا " الشيخ" عبدالعليم" ويايا
هكذا جاء صوت المقدس " سمعان " قوياً من حجرة الجلوس . لترد عليه :
- عندك " ماريان " .. خلليها تسيب الكتب شويه وتعمل لكم الشاي .

كانت " ماريان" في حجرتها وقد سمعت الحوار لذا لم تكن في حاجة لمن يطلب منها شيئاً ، على الفور توجهت للمطبخ لتصنع الشاي .

- ماريان .. ما وراهاش غير الكتاب المقدس وكتب القديسين يا شيخ عبدالعليم .

- ربنا يبارك فيها يا " سمعان " .. بنتك من اللي ربنا راضي عنهم .

لم يكن المقدس سمعان يدرك أن ماريان لا تقرأ فقط في الكتاب المقدس وكتب القديسين والرهبان .. كانت تقرأ أيضاً قصص ألف ليلة وليلة والزير سالم وروايات أجنبية معربة وكتب إسلامية وغيرها

كأنها الشمس تدخل على والدها والشيخ

- اتفضل يا بابا .. اتفضل يا عمي الشيخ ... ثم انصرفت .

....

بس وحياتك يا مقدس ما كانشي ينفع بعد ما حصل اللي حصل وخدت بتار المرحوم إني أقعد أنا والحاجّه والواد تاني في عرب حجازه ؛ لأن زي ما إنت عارف ، نهر الدم بدأ وكان لازم نسده وسددانه كان

برحيلنا من البلد
شرد الشيخ بعينين ممتلئتين بالدموع ؛ لينبهه المقدس :

- كمّل يا شيخ عبدالعليم .. ده قدر ومكتوب وربنا كانت إيده معاكم إنت ومراتك وابنك ... إنت زعلان ولا إيه يا شيخ ؟
- أبداً يا مقدس ... (يكمل الشيخ) .. ولما خرجنا في الفجريه ووصلنا على حافة النيل من شرق ؛ ربنا بعت لنا المركب .. مركب واحد طيّب ومُخلِص زيّك يا مقدس لما ركبنا معاه وعرف حكايتنا ؛ دلني على واحد صاحبه في مركز [القوصية]

ضاحكاً قال المقدس " سمعان " :

- أيوا يا شيخ ... اللي هو الخواجه " جرجس " (يواصل المقدس ضحكته ثم يكمل) :

- رغم إنه مصري أبا عن جد ؛ لكن إخواننا المسلمين بينادوا عليه ويقولوا له : يا خواجه ! وده من العيوب اللي بيقع فيها حبايبنا المسلمين .. إحنا أصحاب بلد مش خواجات .

يكمل الشيخ :
- " جرجس " ده هو اللي أعطاني مفتاح بيته القديم اللي هنا ، وعرفت إنه قعد في البندر وساب بيته القديم .

- الحقيقة يا شيخ " عبدالعليم " .. إحنا استغربنا كتير ساعتها من وجودكم هنا ، لكن والمسيح الحي إنتم صرتم لينا أهل وعزوة .

- ربنا يديم علينا المحبة يا مقدس .

****

مهدوداً من التعب ؛ انهار " أحمد "صاحب الجسم المنتصب في السماء كرمح فوق كنبة تحت نافذة الصالة بعد أن كان قد أطلق حماره والذي يعرف مكانه خلف البيت .
كان " أحمد " قد عاد للتو من قرية " السراقنة " لتحفيظ أولاد المسلمين هناك القرآن وتعليمهم الكتابة والحساب .

الشيخ " عبدالعليم " لما سكن الألم قدميه ؛ أطلق ابنه أحمد في البلاد المجاورة كـ " الحبالصة" و"عزبة أنطون" و"السراقنة" ليقوم بتحفيظ أولاد المسلمين القرآن بعد أن كان " أحمد " قد أتم حفظه كاملاً هنا في " مير " على يد والده الشيخ . كان " أحمد " يقوم بهذا الدور مقابل مبلغ من المال أو ما يوازيه من طعام أو كليهما معا أحيانًا .

المبلغ الذي حصل عليه الشيخ من بيع ممتلكاته وأخيه في [عرب حجازه] آخذاً في النقصان لولا تدبير الحاجة " سعدية " التي تقوم بشراء معزتين أو أكثر لتربيتهم ومن ثمّ بيعهم بعد فترة وطيور مختلفة تساعد على المعيشة . لولا ما تفعله الحاجة ودوارة " أحمد " على البلاد ؛ لتعثرت تماماً حياتهم .
كالملسوع انتفض " أحمد " فجأة . كان قد تذكر الكتاب الذي أعارته

إياه " ماريان " بنت المقدس " سمعان " .. تساءل : بنت نصرانية ومعاها كتاب في علوم القرآن ؟!

- إنتِ حصلتِ على الكتاب ده إزاي ؟
- مش مهم حصلت عليه إزاي يا " أحمد " ... المهم هل إنت قرأته قبل كده ؟
- بصراحة ؟ لا ... بس أنا عارف إن فيه كتاب بالاسم ده ..
قاطعته ماريان :
- على العموم ، اللي لفت نظري في الكتاب ده يا " أحمد " ، قصة (الغرانيق) ، وخللي بالك القصة دي موجودة في أغلب كتب تفاسير القرآن .
- غرانيق ؟
- أيوا .. غرانيق . إنت أول مرة تسمع عن قصة الغرانيق يا " أحمد " ؟!
تلعثم أحمد :

- طبعاً ... لا لا ... سمعتها ... مش فاكر ... يمكن ..
كان هذا الحوار منذ يومين أمام بيت المقدس " سمعان " والمواجه تماماً للبيت الذي يسكنه " أحمد " ووالداه . في نهاية هذا الحوار ناولته ماريان كتاب (لباب النقول في أسباب النزول) للشيخ الإمام " جلال الدين السيوطي " .
لما فتح " أحمد " الكتاب على الصفحة التي حددتها له "ماريان " بورقة من شجرة السدر العتيقة والواقفة بجوار بيت المقدس منذ

زمن . لشد ما كانت دهشته أنه قرأ هذه الآية عشرات المرات كلما راجع القرآن مع والده الشيخ وأيام الحفظ في [عرب حجازة] وحتى هنا في [مير] ومع الأولاد في القرى المجاورة ، ماله وكأنه يقرؤها للمرة الأولى .. تساءل في نفسه :

- هل " ماريان " هي التي ألفت هذا الكتاب كي تشككني في عقيدتي ؟!
لا بد وأن أسأل الشيخ ... لن أخبره أن " ماريان" هي صاحبة الكتاب .. لقد حذرني كثيراً من الكلام معها في الدين .
قال لي الشيخ ذات مرة :
- النصارى يا ابني بيزعلوا لما حد يكلمهم في دينهم ، ولما تحترم عقيدتهم ؛ يحبوك ، واحنا هنا يا ابني أغراب .
قال أحمد متمتما :
- لازم اسأل الشيخ ، وإن ما لقتش عنده إجابه ؛ طلبة الأزهر اللي باقابلهم هنا في البلاد مش قليلين .

****

السبت 5 يناير 1928

مقهى الفيشاوي – الحسين

وحدها تجلس " إيفا " خلف طاولة متوسطة الطول والارتفاع مفروشة ببساط من جلد فاخر لعله جلد حيوان نادر . كانت " إيفا " قد وصلت منذ ساعة تقريبا بعد أن كانت الأمطار قد غسلت شارع الأزهر . القلق الذي تسرب لروحها وبات واضحا على وجهها ؛ جعل الجرسون اليوناني يتقدم نحوها قائلا وهو ينحني انحناءة خفيفة :

- حضرتك متوترة كتير " إيفا " هانم .... ممكن أجيب لحضرتك عصير ليمون ؟

(قالها بلكنة يونانية محببة لكل زبائن المقهى)

- متشكره خالص .... أنا هامشي حالاً ولما يوصل " فريد " قل له : إني انتظرته كتير وما قدرتش ......

وصول " فريد " المباغت قطع عليها كلامها مع الجرسون الذي تراجع قليلا عن محيط " إيفا" قائلا :

- أهو وصل " فريد " أفندي يا هانم وما تزعليش .

ألقى " فريد " كتاباً كان بيده على الطاولة أمام " إيفا " مرتلاً عبارات الاعتذار والتأسف .

- المطرة كانت شديدة .... انا اكرر أسفي لك يا " إيفا "

قالت تكظم غيظها :

- المطرة ؟ ! طيب ما أنا كان عندي نفس العذر لو اتأخرت أو لو حتى ما حضرتش خالص ، لكن رغم كده .....

قاطعها " فريد " :

- خلاص يا " إيفا " ، مش هاتتكرر تاني .
أردفت وقد خففت من غضبها قليلا :
- على العموم أنا كنت ماشيا وكنت هاشوفك بكره بردو .
- ما كانش هاينفع تشوفيني بكره أو حتى بعده كمان !
ضاحكة قالت :
- ليه كنت هاتستشهد ولا إيه ؟
- لا يا ستي أبداً ، أنا مسافر البلد .. كل سنه وإنت طيبه .. العيد خلاص .. بعد بكره
- آه .. أنا آسفه .. كل سنة وإنت طيب .
وضع الجرسون اليوناني على الطاولة براد الشاي وكوبا فارغا وآخر به عصير ليمون ثم انسحب في هدوء .
أكملت " إيفا " :
- عارف يا " فريد " .. نفسي أزور بلدكم وأتعرف عن قرب على والدك المقدس " سمعان " والست الوالدة الست " أم مينا " و" ماريان " .. وكل أهل [مير] .
- ياريت يا " إيفا " إنت هاتنوري الصعيد كله ..
وكأنها كانت قد نسيت ثم تذكرت :
- إلا قل لي يا " فريد " .. الست الوالده بينادوها " أم مينا "زي ما عرفت منك وأنا فاهمه إنك إبنها الوحيد !
ثم تساءلت :
- أزاي ده ؟ مين مينا ؟
- مينا ... أخويا الأولاني ، إللي أنا ما شفتهوش خالص ؛ لأنه مات قبل حضرتي ما يشرف الدنيا ... وأنا دايماً هنا بعيد عن القرية ، وصورة " مينا " هي اللي في عقول الناس هناك .
مدّت " إيفا " يدها لتمسك بالكتاب الراقد أمامها على الطاولة وتساءلت قبل أن تتأكد من العنوان :

- كتاب إيه ده ؟
- (أصل الانواع) لتشارلز دارون .
قالت وهي تسند ظهرها للوراء :
- آه ... أنا سمعت من خالي عن الكتاب ده .
ثم تساءلت :
- لكن إنت قريته ولا لسه ؟
- قربت أنتهي منه ، وفي طريقي إلى [مير] سأنتهي منه تماماً .
ثم وكأنه قرأ ما يدور ببالها :

- وبعد كده أنا هاجيبه معايا وأقدمه لحضرتك على أن نتناقش معاً حول فكرة الكتاب بعد أن تكوني قد قرأتيه .

لم تعلق " إيفا " على كلامه سوى بإبتسامة رقيقة كأنها تحييه على ذكائه لقراءته ما يدور ببالها .

****

كان " فريد " قد تعرف على " إيفا " في إحدى المحاضرات للأستاذ " أحمد لطفي السيد " ، أستاذ الجيل وأبو الليبرالية المصرية كما كان يُطلق عليه ، كانت المحاضرة في سراي (محمد صدقي) بميدان الأزهر / شارع الفلكي .

* الجامعة الأهلية تأسست في 21 ديسمبر 1908 في عهد الخديوى [عباس حلمي الثاني]
وكان" فريد " قد سافر من [مير] إلى القاهرة ليعمل مع أحد أقربائه لوالدته في مطبعة للكتب في شارع (الفلكي) . فكر قريبه لأمه أن يلحقه بالجامعة المصرية = الجامعة الأهلية ؛ فذهب إلى (منصور فهمي) في زيارة وكان منصور أحد أهم أصدقاء الأستاذ " أحمد لطفي السيد " أول رئيس للجامعة ، ورجاه أن يكون " فريد" ضمن الطلاب ؛ حيث أنه ومن وجهة نظره ، يحمل أفكاراً تنويرية وتقدمية .

بعد هذه الزيارة كان " فريد " قد أصبح ضمن طلاب الجامعة ومن دراويش الأستاذ " أحمد لطفي السيد " . فريد يعمل في شارع الفلكي والجامعة كانت قد انتقلت من سراي الخواجة " نستور جناكليس " = الجامعة الامريكية فيما بعد ، إلى سراي " محمد صدقي " بميدان الأزهر / شارع الفلكي .

* " إيفا " تنتمي لأسرة مسلمة متفرنجة ؛ حيث كان والدها الطبيب الأشهر في القاهرة" عبد الحميد بيك الدمياطي " والحاصل على شهادة في بكالوريوس الطب من جامعة [لندن] بإنجلترا . أما والدتها فهي يونانية الأصل ، منفتحة على ثقافات الغرب والشرق .
في إحدى قاعات الدرس ؛ طاردها بعينيه كثيراً ، وأما هي فقد حاولت الهرب من نظراته لكنها فشلت تماماً .

صار " فريد " و " إيفا " صديقين ، وبفعل الأيام تطورت العلاقة بينهما لتتوقف في منطقة ما بين الصداقة و الحب .

ينايـر 5 نفس اليوم والتاريـخ
مير – القوصية .. بعد صلاة العشاء

ارتبك الشيخ " عبد العليم " وأُسقط في يده ولا يدري ماذا يفعل مع أحمدالذي فجّر قنبلة :

- أنا عايز أتعلم العلوم الشرعية في الأزهر وأعرف ديني كويس وأفهم كل حاجه ، أنا مش أقل من الشباب اللي بأقابلهم في البلاد اللي حوالينا (السراقنه) و (الحبالصة) و (عزبة أنطون) .

ثم أضاف :

- شباب يفرح القلب .. أزهريين ومتعلمين وكل الناس بتقدرهم

رفع الشيخ صوته :

- يا ابني ظروفنا مختلفه عن كل الناس .

رد " أحمد " بثقة :

- كل الناس ظروفها مختلفه عن بعضها !

بعدها انطلق " أحمد " كالسهم خارج البيت غير عابئ بالبرد الشديد ، برد يناير .. مشى بعيداً حتى ابتلعته عتمة القرية .

- وبعدين يا حاجه " سعدية " ... نوّريني .. أعمل إيه في الشيطان اللي مسيطر على ابنك ووحيدك .

(قال الشيخ كلمة وحيدك وكأنه أراد أن ينقل إلى قلبها الخوف والقلق على ابنها)

قالت الحاجة :

- العمل عمل ربنا يا شيخ عبد العليم ... (تقترب منه قليلا) .. هدي روحك شويه .. ما تزعلش قوي كده .. (وهي تغير من نبرة صوتها) :

- طيب والنبي أنا شايفه إن أحمد معاه حق ..
وكأنها قالت كلمة الكفر .. انفعل الشيخ وكأن الباب ارتج على سبابته .
- حق إيه يا مره يا خرفانه .. الله يخرب بيتك وبيت الحق بتاعك .. الولد ها يروح مصر .. إنت عارفه يعني إيه مصر ونسوان مصر وشوارع مصر وناس مصر ؟ !
كأنها ابتلعت حجراً .. لم تنبس بكلمة .. ثم وهي تهم بالوقوف :
- أروح أعمل لك شاي بنعناع يمكن يهدي أعصابك .
(من فمها خرجت الكلمات بصعوبة كأنها حشرجات)

.**************************

تحت جدار كنيسة العذراء الغربي ، التصق " أحمد " بالجدار محتمياً به من برد يناير . كانت الكنيسة تضج بالترانيم والقداسات ، بينما راح أحمد يردد بصوت مسموع كل ما قرأه في كتاب [أسباب النزول] .
أما الذي أهمه وسبب له الربك وجعله حائراً كمركب صغير في محيط هائج الموج ومظلم ؛ هو حكاية أسباب نزول الآية رقم 52 من سورة (الحج) :

[وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ]

أما أسباب نزولها :

((أخرج بن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر من طريق بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال :

قرأ النبي بمكة – بعد أن تمنى من الله أن لا ينزل عليه ما يباعد بينه وبين قومه - " والنجم إذا هوى ..." ، فلما بلغ [أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى] ؛ ألقى الشيطان على لسان النبي (تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى)

والغرانيق = الأصنام

فقال المشركون :

- ما ذكر محمد آلهتنا بخير قبل اليوم ! فسجد " محمد " وسجد المشركون جميعاً . غير أن جبريل ملاك الوحي نزل معاتباً النبي قائلاً :

- لقد قلت يا محمد في القرآن ما لم أقله لك ! وألقى عليه الآية من 20 و 19 من (سورة الحج) ، وتم حذف الآية 52رقم (سورة النجم) والتي تقول - معظّمة الأصنام - :(

" تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى " !

وكأن محراثاً كان يشق الأرض ضل طريقه إلى رأس " أحمد " فشقها نصفين ... صداع الدنيا تجمع هنا فوق عينيه .

- معقوله دي ؟! .. قرآن ينزل من الله وقرآن تاني يلغيه ؟!
وشيطان يقول للنبي كلام والنبي ما يعرفش يفرق ما بين كلامه وكلام جبريل ؟ !

(هكذا تساءل " أحمد " ... ارتفع صوته كأن أحداً معه يكلمه) .

- تعالى يا ابني . حرام عليك طلعتني في البرد أدوّر عليك
(كان هذا صوت الشيخ عبد العليم ممسكاً بيده كشافاً يعمل بحجرين فيكتوريا كان قد استعاره من جاره المقدس " سمعان " ولم يعده إليه ثانية)
أردف الشيخ بعد أن اقترب من ابنه :
- استهدى بالله يا ابني ... الشيطان ابن الكلب هو اللي ......
وكأن أحمد يسمع كلمة " الشيطان " لأول مرة ....
- حد عارف الشيطان ، ولا جبريل ، ولا بنت المقدس سمعان ، ولا مين هو اللي ابن كلب ؟!
استدرك أحمد :
- أستغفر الله ... سامحني يا رب .. ما فيش دماغ خالص .
لم يسمع الشيخ ما يتمتم به ابنه ، غير أنه مد يده إليه ليسحبه من جدار الكنيسة . انطلقا معاً إلى جهة البيت وأصوات الترانيم تشيعهم .

أدنى الشيخ ابنه منه ثم :
- براحتك يا ابني .. أنا من ناحيتي هاكلم المقدس سمعان علشان يشوف لك حد من قرايبه في مصر علشان مسألة

السكن ويدلك على الأزهر والمطلوب .
كلمات الشيخ الوالد لم تطرد فقط البرد ؛ بل أشاعت مساحة من الدفء علي " أحمد " الذي ابتسم من قلبه في ظلمة ليلة سبت النور

***

صارت خطوات الشيخ والابن وئيدة بفعل الوحل الذي أحدثه المطر ، كاد الشيخ أن يسقط لولا أنه استند على ابنه ، غير أن الكشاف سقط من يده .

كان شخص ما وكأنه قادم من سفر طويل وبيده كشاف أكثر إضاءة يقترب منهما .

عندما التقى الأفندي الذي يرتدي بنطالا غليظا بالشيخ وابنه مصادفة كانت السماء قد ركزت مطرها على الكشاف الراقد في الوحل يلفظ أنفاسه الأخيرة .
عرض عليهما " فريد " أن يقوم بتوصيلهما على ضوء كشافه حتى بيتهما غير أن الشيخ اعتذر بأن بيته قريب من بيت المقدس" سمعان " والقريب من هنا أيضًا .

ضحك فريد :
- أنا " فريد " ابن المقدس سمعان ! .. يظهر إن طريقنا واحد.

صار ثلاثتهم وضوء كشاف فريد يقودهم ، استطاع فريد أن يعرف شيئا عن قصة الشيخ وأسرته لكن الصورة كانت غير مكتملة بسبب

قصر مسافة الطريق . الشيخ وابنه عرفا أن " فريد " يقيم في القاهرة ولا يفكر بزيارة القرية لولا رسائل الست " أم مينا " الأخيرة كانت عاتبة بشدة وأن العمر مش مضمون . كان أحمد يمسح الطين من كشاف والده الذي مات الضوء فيه تماما في الوقت الذي كان يتابع فيه حديث " فريد " وتمنى لو كان يستطيع توجيه الكشاف ناحية وجهه ليرى هل يشبه فريد أخته " ماريان " الجميلة ؟ وهل يا ترى يعرف قصة الغرانيق كأخته ؟!

****

(بيت المقدس سمعان)

المقدس " سمعان " واحد من أهم المسيحيين الموجودين هنا في [مير] . يجيد القراءة والكتابة اللتين تعلمهما صغيرا في دير المحرق على يد أحد الرهبان الشوام مما جعله مميزا هنا بين أهل القرية الذين لا يعرف أكثرهم القراءة أو الكتابة . منذ حوالي عشر سنوات توجه " سمعان " إلى القدس بزيارة الأماكن المقدسة هناك وهكذا صار يسبق الناسُ اسمَه بلقب المقدس .

الست "أم مينا " سيدة فاضلة من نواحي مركز منفلوط ، حاصلة على الشهادة الابتدائية . كزوجها تجيد القراءة والكتابة ، أنجبت من المقدس " سمعان " ولدها الأول " مينا " والذي توفي على أرجح الأقوال في السادسة من عمره . ترك رحيل مينا جرحاً في قلبها وقلب المقدس ، . رزقها الله ، أو كما تقول هي :

- يسوع هو اللي طبطب على قلبي وحن علينا ورزقنا بـ " فريد " و "

ماريان " في بطن واحده .
(ماريان) تعودت منذ صغرها على الذهاب إلى الكنيسة مع والدها الأكثر تدينا من زوجته والأكثر مواظبة على القداسات واستماع عظات الآباء الكهنة والرهبان .. هذا لا يمنع أن الست " أم مينا " كانت تتردد على فترات لآداء قداس الأحد أو الجمعة في كنيسة العذراء بمير .

أحد الرهبان الأجانب – قيل هو راهب هولندي وقيل هو راهب إيطالي – هو الذي أشار على المقدس " سمعان " بأن يهتم بتعليم وتربية " ماريان " تربية مسيحية حقيقية . تطوع ذاك الراهب بإلحاقها بإحدى المدارس الأجنبية بأسيوط مما أتاح لها تعلم الفرنسية وغير قليل من الإنجليزية .
لما كبرت " ماريان " ونفر نهداها من صدرها بشكل أقلق الوالد الرجل الصعيدي رفض أن تكمل تعليمها هناك في أسيوط وألحقها بالمدرسة العلمانية بدير المحرق ثم انضمت بعد فترة للخدمة وأصبحت مكرسة في كنيسة العذراء بمير . لها نشاط اجتماعي وثقافي كنسي .
عدم اهتمامها بمظهرها الخارجي لم يستطع أن يخفي جمالها المثير خاصة صدرها ومؤخرتها الأكثر من فاتنة . أما"فريد" فلقد فشل والده تماما في أن يَربطه بالكنيسة بعد آخر زيارة لهما في دير المحرق وذلك بعد أن حدّق في وجهه كاهن علماني كيما يصلي له ؛ صرخ "فريد" ساعتها من شدة دمامة وجه الكاهن ورعب عينيه الجاحظتين ، جفل الكاهن بعدما استشعر الحرج وقتها وقال للمقدس :

- ابنك ده شيطان ومش عايز أشوفه تاني

من يومها و" فريد " ما عاد يطيق رؤية الكهنة أو حتى الرهبان مما كان يحزن والده كثيرا ، على عكس الست أم " مينا " التي ما كانت لتهتم بهذا فابنها هو أهم من الكنيسة والكهنة .

لما يئس المقدس من ابنه – دينيا – تركه لرغبة قريب له يعيش في القاهرة يريد منه أن يترك له " فريد " ليعيش ويعمل معه في مطبعة للكتب . مطبعة عتيقة يمتلكها ذاك القريب بشارع الفلكي ،

اصطدمت تلك الرغبة مع الست " أم مينا " والتي ما كانت لتوافق لولا الحاح ابنها نفسه على السفر مع قريبهم وحلمها أن يكون مستقبل ابنها هناك أفضل . بعدها ما عاد فريد يزور قرية مير إلا على فترات بعيدة وتحت إلحاح والدته .

****

من بيت المقدس انطلقت زغرودة قوية لا يشك أنها زغرودة الست " أم مينا" والتي راحت تدفن رأس " فريد " في صدرها مستبقة المقدس الوالد للإنفراد بإبنها مدة من الوقت ، أمطرته بالقبلات العشوائية والأحضان المفعمة حبا وشوقاً ، بعدها استلمه الوالد بشوق الأبوة المختلط بالعتاب .

عليه كعادتها على أما "ماريان " فقد كمنت في حجرتها تنتظر قدومها جمر أشد من جمر القماين ؛ فهي ربما لن تقدر أن تترجم حنينها لتوأم غيابه أمام والدها الصعيدي . روحها القاسي في

تساءل" فريد " :

- أُمال فين ست البنات نور عيني القديسة " ماريان " أشارت أمه ناحية حجرة مغلقة كأنه لا يعرفها ! ، لحظات واندفع " فريد " ناحية

الحجرة المغلقة على ماريان ليصمت الجميع ويتكلم الحب ... الحب الذي جمعهما جنينين طريين في رحم واحد .

....

- باسم الصليب عليك يا اخويا ... إنت احلويت كتير يا أستاذ (قالت ماريان)

- إنت اللي شايفه كده علشان أنا أخوكي حبيبك .

- إنت أخويا وصديقي وحبيبي وتوأم روحي كمان .

من داخل صحن البيت جاء صوت الوالدة :

- العشا جاهزيا فريد .. يا ماريان .. يالله يا أولاد .

في الوقت الذي تجمعت فيه أسرة المقدس " سمعان " لتناول العشاء ؛ كانت أسرة الشيخ "عبد العليم " تأوي إلى النوم .

دخلت الحاجه " سعدية " حجرة النوم الخاصة بابنها ؛ لتطمئن – كعادتها – عليه . نام الشيخ في سريره ، وأما " أحمد " فقد انفصل عن الحياة ليدخل في تجربة مختلفة ومدهشة .

نامت عيناه ؟ .. ربما ! وأما عقله فلم ينم .

- يا ربي .. يا ربي .. إيه اللي بيحصل ده ؟

هكذا صاح " أحمد " متسائلاً لما رأى كتلاً من النور تتدفق إلى حجرته وتحاصره من كل جانب في تدفق وتتابع غريبين . الخوف والقلق حاصراه وكادا أن يلجما لسانه عن الحراك . تصبب العرق منه حتى شعر ببلل وسادته .. أسقط في يده !

جاءه صوت من داخل إحدى قطع النور :

- اهدأ .. اهدأ يا " أحمد " .. لا تخف .

كان الصوت قويا وواثقاً كان له سلطان .. صوت لا يشبهه صوت آخر

صرخ أحمد :

- إنت مين ؟! إنت مين ؟! سلام قولا من رب رحيم

- جبريل ... أنا جبريل .. لا تخف

- جبريل ؟ .. ملك الوحي ؟!

- نعم يا " أحمد " أنا هو .

غرق " أحمد " في محيطات الحيرة والقلق المختلطين بالرعب . يكاد جسمه يتمزق من شدة الخوف المختلط بالرغبة في التساؤل .

- ما الذي يقلقك يا " أحمد " ؟ (تساءل جبريل)

- هو فيه سـ سـ سـ .. سؤال .. نفسي أعرف إجابته منك .. ممكن ؟

كان " أحمد " قد ازدرد لعابه مرتين حتى خرجت منه حروف كلمة"سؤال" .

- اسأل وما تخافش . (قال جبريل)

- إيه هي حكاية الغرانيق اللي موجوده في الكتاب بتاع السيوطي ؟!

خرج شخص من قطع النور الأبيض له جناحان لونهما أخضر زاهٍ وطاف طائراً بالحجرة التي اتسعت فجأة وحط بجوار "أحمد " على سريره والذي انزاح الخوف من فوق صدره .

قال جبريل :

- اسمع .. أنا كما تعلم كنت ملاك الوحي المكلف بتبليغ كلام الله لـ " محمد " . ذات مرة كان يجلس في صحن الكعبة مع عِلية القوم من قريش والذين كانوا يرفضون دعوته ويكذبونه . كان محمد يشعر ساعتها بالوحدة والعزلة حتى أنه ذات مرة فكر بالانتحار وأنا كنت أنهره وأثنيه عن ذلك . المهم أنه كان حريصاً على أن يؤمن به قومه وكان يجهد نفسه متحسرا على عدم تصديقهم له ولكم عاتبه الله على ذلك الاجهاد والتحسر ، غير أن هذه المرة تمنى " محمد " وهو جالس بين

قومه أن لا ينزِّل الله عليه وحياً يباعد بينه وبين قومه . في الوقت الذي تمنى " محمد " ذلك كنت أقطع المسافة ما بين السماء والأرض حاملاً معي بعضاً من سورة (النجم) ولما وصلتُ بجوار أذنه أوحيت إليه : [والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى ....] حتى إذا ما وصلتُ إلى [أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ..] ؛ تردد " محمد " على غير عادته في قراءتها وترديدها خلفي !

ولما ضغطتُّ على كتفيه بيديّ ؛ تفصد العرق منه حتى كاد يغمى عليه .. ساعتها أحسست ببشريته وضعفه ؛ فتركته وأنا لا أعرف ماذا فعل أو ماذا حدث .

تساءل " أحمد " :

- وبعدين ؟ إيه اللي حصل ؟

يواصل جبريل حديثه :

- بعدها علمت أن " إبليس " اللعين استغل الفرصة وحالة محمد النفسية وعاطفته تجاه قومه وكان " محمد " ربما لم يشعر برحيلي وظن أن الذي ما زال معه هو أنا !
- قال " إبليس " لمحمد :
- اقرأ : [أفرأيتم اللات والعزّى . ومناة الثالثة الأخرى . تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى] وهكذا ظن " النبي " أن ما قاله " إبليس " له وحيا من الله . وراح النبي يردد خلف اللعين بنشوة الآيات التي تعظّم الأصنام ، فرح " محمد " وفرح الموجودون من أهله وعشيرته وكان أن سجد " محمد " وسجد المشركون معه .
- وبعد كده ؟ ...(تساءل أحمد بلهفة)
- بلغ الخبر أتباع " محمد " والذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة منذ فترة ؛ فهمّوا بالعودة إلى مكة قائلين :
- علام مهجرنا ومحمد قد تصالح مع قومه ؟!

ثم يواصل جبريل والذي لم يتعب من الكلام :

- غير أن الله أمرني أن أنزل وعلى جناح السرعة بالآية من سورة الحج . 52رقم
ولما وصلت بجوار أذن " محمد " ؛ قلت له معاتبا :

- ما هذا الذي قلته في كتاب الله ؟!
ساعتها اندهش " محمد " وقال : لقد قلت لقومي ما أمرتني به !

قلت له :

لقد قلتَ في كتاب الله ما لم أقله لك ، إنه كلام اللعين " إبليس " ؛ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله منه .
ساعتها أسقط في يد هـ وشعر بالخجل وسألني في حيرة : ما العمل ؟ - ثم أضاف

– إن قومي فرحوا وأصحابي رددوها وحفظوها ... ماذا أفعل ؟ ساعتها وضعت يدي على كاهله ؛ فتفصد العرق منه كالجمان وأقرأته :
(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ؛ ألقى الشيطان في أمنيته ؛ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم)
وهكذا تم نسخ آية تعظيم الأصنام = الغرانيق من القرآن .
طار جبريل من حجرة أحمد وطار النور في الوقت الذي كانت كنيسة العذراء هنا في [مير] قد استعدت تماما لاستقبال الناس ، الشموع الضخمة والكلوبات مضاءة ومضيئة ، البخور النافر من نوافذ الكنيسة وبابها يزكم أنوف المسلمين النائمين تحت بطاطين وألحفة عتيقة ، الترانيم تتسرب من أفواه المرنمين لترتطم ببيوت القرية التي بدت كأشباح تحت عتمة يناير .

من بعيد تَقْدِم نساء تحملن أطفالهن على أكتافهن لحضور القداس ، " ماريان " في قلب الكنيسة منذ فترة ليست بالقليلة ، المقدس " سمعان " يرمق زوجته بنظرة إعجاب بماريان التي تكاد تشعل المكان فرحة وسرورًا .

" فريد " عاد إلى سريرة مرة أخرى ناكثا بوعده لهم بأنه سيلحق بهم . كيريا ليسون .. كيريا ليسون .. يارب ارحم يا رب ارحم ... صوت الكاهن يتهادى قاطعا سكون الليل المخيف ليصل منسابا إلى شوارع القرية وفضائها الفارغ :

- المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة .

تحركت حشرة سوداء لامعة تشبه الخنفساء تحت جدار بيت بعيد ، صاح ديك صغير في بيت جيران الشيخ ونهق حمار " أحمد " فتحركت الحاجه " سعدية " من على جانبها الأيمن لتنقلب على الأيسر مولية ظهرها للشيخ النائم بجوارها على ظهره والذي كعادته حوقل وهو نعسان .

تزحلق رجل وبيد ابنه الصغير في وحل الشارع المؤدي للكنيسة وهما في طريقهما للقداس ؛ لما تأكد الرجل أن ابنه لم يصبه مكروه قال يخاطب السماء :

"وحياتك يا يسوع لو كان الولد حصلت له حاجه وحشه لكنت رجعت البيت وما أنا داخل الكنيسة تاني" . وأما " أحمد " فقد استيقظ لأول مرة في عتمة الحجرة دون أن توقظه أمه كل صباح كالعادة . الرؤيا تحاصره ، تخلب لبه . يحاول أن يبحلق في عتمة المكان .. شتان ما بين نور جبريل وعتمة البيت . كأنه يصحو في عالم آخر :

- ما هذا الذي رأيت ؟! (تساءل " أحمد " بصوت عالٍ وبطريقة تشبه طريقة جبريل في الكلام) .

- رؤية الأنبياء حق ، لكن رؤية الملايكه ؟ (يسائل نفسه) هل ممكن إبليس يتشبه بالملايكه .. وخاصة جبريل ؟! .. لا يمكن طبعاً . ولماذا لا يمكن ؟!

لقد تعلم من والده : أن الشيطان كان مع الملائكة وكانوا يلقبونه بطاووس الملائكة ؛ غير أنه رفض السجود لآدم فتحول إلى شيطان رجيم .

يتمتم مع نفسه فيقول :

- يمكن يكون الشيطان زي ما خدع النبي الأكرم جاي لي أنا علشان .. علشان .. علشان

علشان إيه ؟ ! (هكذا كان يتساءل في حيرة وهو يهم بالنزول على أرض الحجرة المعتمة من فوق السرير) .

تحرك " فريد " في سريره متململا .. طار النوم من عينيه ..خرج إلى صالة البيت الواسعة .. تحرك ناحية نافذة ليغلقها حتى لا يتسرب القداس إليه .. جاءه صوت الكاهن :

- [صوت صارخ في البرية .

أعدوا طريق الرب ..

اصنعوا سبله مستقيمة]
وهو يغلق النافذة ؛ لمح في البيت المقابل – بيت الشيخ " عبد العليم " – ضوءا خافتاً يتحرك .

كان " أحمد " يهم بالخروج من عتمة البيت ممسكا بيده اللمبة الجاز الفلاحي والتي يتصاعد منها دخان أسود وضوء .. راقب " فريد " المشهد . تأكد أنه " أحمد " الذي أصبح في الشارع وصار على مسافة قريبة من نافذة فريد الذي كان بصدد إغلاقها .. نادى " فريد " عليه "
- إنت أحمد بن الشيخ عبد العليم ؟ ... تعالى .. أنا فريد

العتمة تُصعِّب من كشف الوجوه .. الصوت فقط هو وسيلة التعرف .. لهجة قاهرية من بيت المقدس ؛ إذن هو فريد .. تفزّع أحمد في البداية فكادت تسقط من يده اللمبة التي رفعها لأعلى قريبة من وجهه الذي صار واضحا لفريد . عندما دعاه فريد ليدخل ، لحظات وكان أحمد في صحن البيت الفسيح مستقراً على أريكة لطالما فضل الجلوس عليها المقدس " سمعان " الذي أصبح الآن منهمكاً في ترديد قانون الإيمان خلف الكاهن :
- [بالحقيقة نؤمن بإله واحد .. الله الآب .. ضابط الكل .. ما يرى وما لا يرى ..] قال فريد :

- تشرب شاي ولا أعمل لك فنجان قهوة يا شيخ " أحمد " ؟

- متشكر يا فريد أفندي .

- أولاً : بلاش أفندي دي .. أنا فريد بس ، وبعدين أنا يا سيدي مش كبير عنك كتير يعني .

- خلاص يا " فريد " ... كوباية شاي .

عندما عاد فريد بصينية فوقها كوب شاي وفنجان قهوة ؛ كان أحمد واقفاً تحت صورة مثبتا وجهه كله عليها ، كانت الصورة لرجل ذي لحية وشعر رأس كثيفين . يقف الرجل في منتصف بحيرة عارياً إلا من جلد يغطي حقويه ، يقف بين يديه شاب جميل الطلعة وحمامة قادمة من السماء .

- اشرح لي الصورة دي يا فريد أفندي .

(ضحك فريد من إصرار أحمد على كلمة أفندي)

- دي صورة [يوحنا] المعمدان اللي هو النبي [يحيى] عندكم في القرآن ، واللي بين إيديه [المسيح] جاي علشان يتعمد بالماء والحمامه دي يا سيدي (ضاحكًا بصوت عالٍ) هي الروح القدس اللي نزل على المسيح الحليوه ده ، ودي بحيرة طبريه .

- يعني إيه يتعمد يا فريد ؟

- بالبلدي كده .. يغطسه في الماء .

أراد " فريد " أن يسحب " أحمد " بعيدًا عن حكاية الأيقونات المعلقة على حوائط بيتهم فقال:

- يا سيدي لو سألتني عن كل صورة من اللي متلطعين على الحيطان مش هايكفينا شهر بحاله !

(ثم أضاف فريد وقد سحب احمد من ذراعه ناحية أريكة)

- تعالى هنا جنبي نشرب الشاي والقهوة ، وسيبك من الصور والكلام الفارغ .

كانت جملة " كلام فارغ " صادمة لأحمد الذي يعرف أن النصارى هنا يقدسون تلك الصور ويطلقون عليها [الأيقونات] وبعضهم يسجد لها ويطلب منها البركة والشفاء وعودة الغائب سالما غانما . في نفسه تساءل " أحمد " : هو فريد مش نصراني ولا إيه ؟!

وكأن " فريد " قد قرأ في عيني أحمد شيئاً :

- شوف يا أحمد ، شكلك بتقول وبتسأل : هو فريد ده إيه ؟ ملته إيه بالظبط ؟!
(معتدلا في مواجهته يكمل فريد حديثه) :

- شوف يا مولانا : انا مش مقتنع بحكاية القديسين دي أصلاً ولا الشفعاء ولا كل الكلام اللي إنت تعرفه عن النصارى خالص (ثم مغيرا من نبرة صوته) : وأديك إنت شفت إن أنا ما رحتش الكنيسة معاهم .
تساءل " أحمد " :
- قل لي بصحيح ... هو إنت ما رحتش معاهم ليه ؟ !

قال فريد :

- ما أنا لسه باقول لك ، أنا مختلف عنهم في التفكير ، باحبهم طبعا وخاصة " ماريان " ، وباحبك إنت كمان يا أحمد ، لكن مش معنى كده إننا نكون متشابهين في كل حاجه . كمان مسألة الأديان ليها عندي تفسير علمي وفلسفي.

عندما انتهى " فريد " من كلامه كان أحمد مندهشا حد الصدمة ؛ فأحمد لم يكن

يتصور أن نصرانيًا يقول مثل هكذا كلام عن دينه : (كلام فارغ) ، فلقد كان " أحمد " يعتقد أن كل النصارى متمسكون بدينهم أكثر من المسلمين فهو لم ير مسيحيا لصًا أو مرابيا أو مضبوطا مع واحدة من نسوان القرية في مكان مظلم .

عندما حدق "أحمد " في ساعة يده ؛ وجدها تقترب من الثانية عشرة منتصف الليل ، رفعت ماريان ساعة يدها إلى مواجهة عينيها وهي تجلس على مقعد في الكنيسة ، منتصف الليل والكاهن على وشك إنهاء القداس .. رفع الكاهن صوته متوجها إلى المصلين الذين رددوا معه :

- أبانا الذي في السماوات : ليتقدس اسمك . لتكن مشيئتك ...

ثم مختتما الصلاة قائلا وهو يشير بالصليب لشعب الكنيسة : امضوا في سلام . سلام الرب يكون معكم . (كانت تلك العبارة بمثابة الإشارة كيما ينصرف الجميع)

حوقل الشيخ " عبد العليم " واستيقظ يطلب ماء ليشرب . استغربت الحاجة سعدية مبتسمة وقالت في سرها : الشيخ عطشان في عز البرد ؟!

نهق حمار " أحمد " مما فزّع الفراخ في عشة فوق السطح فصاح الديك عاليا ليردد الشيخ : سبحان الله وبحمده ، الديك شايف ملاك من السما .

وقف شعب الكنيسة يسلم بعضهم على بعض مهنئين أنفسهم بعيد الميلاد المجيد وهم خارجون كانوا يسمعون صوت شماس يردد آية من الانجيل : [هذا ابني الحبيب الذي به سررت] .

همس الشيخ في أذن زوجته :

المقدس " سمعان " وجماعته زمانهم طالعين من الكنيسة ولازمهم واجب محترم ، الناس عمرهم ما قصروا معانا .

استقبلت الحاجة كلام الشيخ بحب وترحاب :

- أنا هاقوم بعد صلاة الفجر أدبح لهم أربع فرخات كبار وإنت عليك بعد ما يطلع النهار تشتري لهم السكر والشاي من الدكان .

تدافع النصارى ناحية باب الكنيسة .. باب للرجال وباب للحريم ، كانت ماريان تتابع باب الرجال حتى خرج آخر رجل ، لما تأكدت أن فريد لم يأت ؛ بدا على وجهها التأسف .

- اقترب فريد من ضيفه وقال :

- اسمع يا أحمد نبقى نكمل حوارنا عن الموضوع ده في وقت تاني .

وهو يهم بالانصراف إلى بيتهم كان المقدس وزوجته وماريان قد دهموا

المكان فجأة . ابتدرهم " أحمد " وهو يمد يده اليمنى : كل سنة وإنت طيب يا عمي .. كل سنة وانت طيبه يا خالتي .. كل سنة وانت طيبة يا ماريان .

عندما لامست يده يد " ماريان " كأن النار اندلقت في شرايين جسمه فلماريان جسد متحفز وشفتان فاتنتان وصدر مثير .. شعر بالدفء يسري في جسده . أفلتت " ماريان " يدها من يده ، ربما شعرت بمثل ما شعربه هو .. تاهت لبرهة قليلة ثم ذهبت للاحتفال مع أسرتها .

انسلّ " أحمد " إلى الخارج كيما يتواجد في سريره قبل أن يصحو الشيخ والحاجة سعدية .

عندما اجتمع شمل أسرة المقدس في صحن البيت ؛ كان أحمد قد وصل حجرة نومه أثناء نحنحة الشيخ وهو يستيقظ لصلاة الفجر ، كانت الحاجة قد سبقته لتسخين الماء ووضعه في الحمام قبيل أن يصحو من نومه .

- ربنا يبارك فيكي يا حاجة ، روحي صحي أحمد علشان الفجر أوشك وخلاص على أدان .

في طريقها إلى حجرة " أحمد " كادت الحاجة سعدية تسقط على الأرض عندما زلت إحدى قدميها بفعل قطعة طين كانت قد سقطت من حذاء أحمد المتسخ من وحل الشارع ، استندت على باب حجرة ابنها فارتطم الباب بالحائط محدثا صريرا جرح سكون الليل ، انتصب أحمد جالسا سائلًا :

- هو فيه إيه ؟ إيه اللي حصل يا أمي ؟

- أبداً يا ابني .. كنت هاقع على الأرض بس ربك سترها

أردفت وهي تقترب منه :

- قوم يا حبيبي علشان تجهز للصلاة وتطلع مع أبوك
عادت الحاجة سعدية تبحث عن البشكير الأبيض كي تقدمه للشيخ فور خروجه من الحمام .

جلس " أحمد " على السرير يتساءل :

- فجر إيه وبتاع إيه ؟ حد عارف حاجه ! .. يا خوفي ليكون كله وهم في وهم !
متثاقلًا تحرك من على السرير ، لبس حذاءه الذي ثقل بفعل المطر والطين .. لسع الحذاء البارد قدميه . منذ متى وأحمد يرافق والده الشيخ إلى المسجد في كل صلاة خاصة صلاة الفجر، كان فرحاً بهكذا فعل ، هذه المرة أحس كأنه ذاهب للقاء شخص مرتاب في أمره . وجه "ماريان" يظهر ويختفي في عتمة الحجرة ليحل محله كتاب " أسباب النزول للسيوطي " مرةً وجبريل مرةً . تساءل أحمد :

ترى هل أنا أحفظ كلام الله أم كلام " إبليس " ؟ أم تراني أحفظ كلامهما معا ؟!
في طريقه إلى المسجد الكائن هناك على أطراف القرية وسط بيوت المسلمين ؛ كان أحمد يفكر في ماذا لو أنه قص على الشيخ الوالد رؤياه ؟ ترى هل سينزعج الشيخ وينهره عن ترديد هذه الرؤيا ؟ هل سيقول له : إن الرجيم هو الذي جاءك وليس جبريل ؟

شارع القرية الطويل والمعتم ابتلع " أحمد " ووالده الشيخ .

في ضحى اليوم ، عندما فتحت " ماريان " الباب للطارق ؛ كان الثلاثة يتوسطهم الشيخ عبد العليم " على الباب بثياب نظيفة ووجوه مبتسمة وفوق رأس الحاجة سعدية سبت مغطى بقماش أبيض اللون نظيف . وهي تفسح الطريق لهم إلى الداخل قالت ماريان :

- اتفضلوا .
المقدس " سمعان " قام من على أريكته مرحباً
بالشيخ وأسرته فارداً ذراعيه رافعا صوته كأنه ينبه " أم
مينا " :

- أهلاً يا مولانا .. نورت البيت .. اتفضلوا .

- كل عام وأنتم جميعا بخير .. عيد سعيد عليكم . (قال الشيخ) اتجهت الحاجة إلى حجرة كانت الست أم مينا قد فتحت بابها الآن مرحبة بضيفتها . خرج فريد من حجرته وبعد أن سلم على الشيخ وزوجته ؛ أخذ " أحمد " من يده واتجه به ناحية حجرته ، وأما " ماريان " فقد دخلت المطبخ لإعداد طعام العيد للضيوف . انزوي المقدس والشيخ داخل حجرة الجلوس . لا يعرف أحمد أن والده قد ألمح من قبل للمقدس " سمعان " برغبة ابنه في السفر إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر الشريف وأنه يحتاج لرفيق يؤنسه ويساعده في غربته . استغل الشيخ المناسبة السعيدة خاصة أن " فريد " هنا وسيرحل لا بد قريباً إلى القاهرة وصرح له برغبته في أن يصطحب " فريد " " أحمداً " معه إلى القاهرة حتى يساعده في السكن والذي منه .

الذي لا يعرفه الشيخ ؛ أن المقدس طلب من ابنه أن يرافق " أحمد " إلى القاهرة ويتخذه أخاً له ، ساعتها لم يفكر فريد طويلا ؛ سرعان ما وافق وأقسم أن " أحمد " يستحق أن يدرس في الجامعة الأهلية لما توسم فيه من الذكاء واتقاد الذهن ، كما أنه لا تنقصه القراءة أو الكتابة ويحفظ القرآن عن ظهر قلب ويمتلك ابن الشيخ استعدادا فطرياً للتعلم .

قال المقدس للشيخ :

- طلباتك أوامر يا مولانا ، " فريد " جاهز وابنك هايسافر معاه ويسكن معاه كمان .

في اليوم الموعود ؛ كانت أسرتا المقدس " سمعان " والشيخ " عبد العليم " على جسر القرية العتيق يودعان " فريد و أحمد " وهما يستقلان عربة يجرها حصانان في طريقها إلى محطة القطار في مدينة القوصية . القطار المتجه من القوصية إلى القاهرة كان يشق عتمة الليل بقوة وجبروت الأبالسة . "فريد" استسلم للنعاس وأما " أحمد " فقد قعد يبحلق في سقف القطار مشوش الفكر مطموس البال ، يقول في سكون نفسه : يا ريتني كنت قعدت في البلد .

****

وهما يتناولان العشاء بدون ابنهما لأول مرة ، كان السؤال حاضراً بقوة على طبلية الطعام (ماذا بعد رحيل " أحمد ") ؟

كان " أحمد " مصدراً رئيسيا من مصادر الرزق اليومي للبيت . المبلغ المتبقي من ثمن بيع البيت والأرض في [حجازه] أوشك على أن ينصرم . كان " أحمد " يدور بحماره على بيوت المسلمين في [مير] والقرى والنجوع المجاورة لها ؛ يعلم أولادهم القرآن والقراءة والحساب ، ثم يرجع آخر النهار محملًا بالغنائم من نقود وطعام وقمح وجبن يكفي مؤونة البيت ويفيض .

كان المسلمون في [مير] يجمعون فيما بينهم القليل من الفلوس ؛ يدسونها عقب صلاة كل جمعة في يد الشيخ " عبد العليم " نظير خطبة الجمعة والصلاة بهم يومياً إماماً .

(الآن وقد رحل " أحمد ") ؟! .. السؤال يحيل الطعام إلى قطع من الطوب لا تقوى أسنان الشيخ وزوجته على مضغه ولا لسانهما على استساغته .

لم تكن الحاجة " سعدية " قد سألت ، ولم تنبس بكلمة ، غير أنك لوسألت الشيخ ؛ لأكد لك أنه سمع من زوجته السؤال الذي أحال الطعام إلى مرار طافح .

قال الشيخ :

- مش عارف ... لكن أنا هاقوم بدور " أحمد " في تعليم أولاد المسلمين اللي هنا في [مير] في المسجد وكمان هاحاول أروح للبلاد القريبه من نواحينا ، وربنا يعدلها يا " سعديه " .

مهمومة انصرفت الحاجه " سعديه " لتجهيز كوبايتين شاي . مهدوداً جلس الشيخ على أريكته القديمة في صحن البيت محوقلاً تارة ومتمتماً بدعوات لجلب الرزق تارة أخرى .

- ربنا يرزقك بأولاد الحلال يا أحمد يا ابن بطني . (قالت الحاجة وهي تهم بحمل الكوبايتين الشاي بعد أن انتهت من تحليتهما في طريقها للشيخ) .

تجاوزت الأربعين بقليل ، وأما الشيخ فقد شارف الخمسين .

- الشاي يا بو أحمد (ثم أردفت لكسر الصمت والسكون) وقالت :
- صلاة العِشا على أدان .هاتروح لوحدك المره دي .(ثم انزوت تداري دموعها)

كان الشيخ قد عقد النية على مفاتحة المصلين في المسجد على أن يكمل بنفسه مسيرة ولده في تحفيظ أولادهم القرآن .

في الأسبوع الأول من سفر " أحمد " ؛ كنت تشاهد منزل الشيخ عبد العليم وأمامه تجلس زوجته مفترشة قالبين من الطوب اللبن مكسوين

بخرقة داكنة وأمامها بعض أقفاص الجريد فوقها صينية كبيرة مرصوص فوقها طماطم وحزم من الجرجير والبصل والفلفل الرومي .

ساعة أن فكرت في مساعدة زوجها ؛ نفذت الفكرة بمساعدة " ماريان " التي اشترت لها الخضار من الحقول المجاورة والشيخ بدوره لم يمانع :

- أهي حاجه تساعد على المعايش والسلام .(قال الشيخ)

كان الشيخ يتردد بانتظام على المسجد الكائن وسط بيوت المسلمين هنا في مير ؛ يعلم أولادهم بأجر زهيد ثم يعود في الليل محملا بنقود قليلة وهموم كثيرة ووجل من المستقبل الغامض . يجلس مع الحاجه " سعدية " يحصيان معاً حصيلة كل يوم من بيع الخضار وتعليم القرآن فيحمدان الله ويشكرانه على فضله .

في تلك الليلة البائسة كانت الحاجه قد اطمأنت على فرشة خضار النهار القادم ونظفت باحة البيت وملأت الجرة الفخار بالماء الجديد ثم أعدت العشاء في انتظار زوجها الذي تأخر كثيراً عن موعده مما جعلها تنام تاركة الباب مواربا حتى إذا ما جاء الشيخ ؛ يدخل دونما انتظار لمن يفتحه .دخل الشيخ عائدًا من تعبه اليومي فوجد زوجته مغطاة ودافئة ، لم يفكر في إيقاظها ؛ دار في ذهنه أنها ربما تكون قد تناولت العشاء ونامت مجهدة من كثرة الكلام والجدال مع الموسرين البخلاء من الزبائن والفقراء المُعوزين منهم . (خلليها نايمه أحسن) هكذا قال الشيخ لنفسه وهو يهم بالنوم بعد أن كان قد ابتلع لقيمات يقمن صلبه وازدرد كوبا من الشاي المغلي كان قد صنعه بنفسه .

على غير عادتها ، الحاجة سعدية لم توقظ الشيخ لصلاة الفجر ، فقط ضوء النهار المتسلل من فتحات النافذة هو الذي دهمه في سريره مما جعله ينهض مضطربًا محوقلًا ومستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم . ناداها مرة ومرتين ..لم ترد الحاجة " سعديه " على نداء زوجها ؛ رفع الشيخ الغطاء عن وجهها .. كانت تبتسم للعدم ..
جسدها البارد وإحساس الرجل بشريكة تعبه جعله يوقن أن الحاجه " سعدية ماتت " ... ماتت " أم أحمد " .

انهد الشيخ بجوار زوجته .. الناس الزبائن لما دخلوا عليها يفتقدونها ؛ عرفوا القصة من وجه الشيخ عبد العليم ، تدحرج الخبر في طرقات القرية ... صرخ الشيخ الجالس بجوار زوجته .. حوقل مرة ولم يستطع الثانية بفعل ازدياد نحيبه . تجمع مسلمون عند المسجد ولما حملوا خشبة الغسل انطلقوا ناحية بيت الشيخ وعندما وصلوا كان في انتظارهم جمع من النصارى بأطفالهم ونسائهم واجمين في حالة حزن وبكاء . ربتت الست " أم مينا " على كتف الشيخ المكلوم . وقفت " ماريان " منتحبة على باب الحاجة تمنع أحداً من الدخول عليها حتى لا تتعرض للبهدله . إحدى السيدات المسيحيات أحضرت الماء الدافئ لتغسيل الجثة ،" أم مينا" كسرت في الماء الدافئ زجاجة من العطر الأجنبي الطيب الرائحة . أحضر المقدس " سمعان"الكفن وناوله لماريان والتي بدورها ناولته للنساء المغسلات داخل الحجرة ، دقت أجراس الكنائس حزنا ، بعدها انتحى المقدس جانبًا يداري دموعا تصر على السقوط من عينيه . أحد المسلمين أسند الشيخ " عبدالعليم " على كتفه ومشى به خارج البيت وأجلسه بجوار المنتظرين خروج النعش .

اختلطت حوقلات المسلمين وصلوات النصارى معبرة عن حزنهم الصادق . تداخلت آيات القرآن (يا أيتها النفس المطمئنة ...) بآيات الإنجيل (أبانا الذي في السماوات ...) .

في اليوم الثالث من موت الحاجة " سعديه " وبعد أن انصرف المعزون من أهالي مير والبلاد المجاورة ؛ تحركت سحب سوداء حزينة في قلب الشيخ والذي همّ ليدخل الحجرة لعلها لم تزل هناك

نائمة . كان المقدس " سمعان " قد دخل بيت الشيخ متوسطا الباحة منادياً :

- يا شيخ عبد العليم ... يا مولانا

التفت الشيخ بعد أن توقف عن دخول الحجرة ، لم تخرج من شفتيه الحروف ؛ لو نطق لانهار باكياً . اقترب المقدس منه أكثر . ارتمى الشيخ في حضنه وأجهش في بكاء مر .
قال المقدس :

- شد حيلك يا مولانا .. دا إنت اللي بتصبر الناس على بلاويهم .

سحب المقدسُ الشيخَ تجاه باب البيت . حاول الشيخ أن يمتنع ، بادره المقدس مقسما عليه :

- والمسيح الحي لازم تيجي معايا يا مولانا ، ماريان وأم
مينا رافضين يحطوا لقمه واحده في بقهم غير لما
تكون وسطينا . (وهو يدفعه) :

- تعالى يا شيخ عبد العليم .. أرجوك .

" ماريان " و أمها استقبلتا الشيخ متشحتين بالسواد
باكيتين

- تعالى يا مولانا .. شد حيلك .. مش إنت بس اللي فقدت الحاجه ، إحنا كمان فقدناها . (قالت أم مينا) .

ناولت " ماريان عمها الشيخ رغيفا كأنه سيأكل .

الأيام تمر على الشيخ " عبد العليم " – بعد رحيل " الحاجه " و " أحمد " – كأنها الجبال يحملها فوق كتفيه . مرارة الأيام كان يقتسمها معهما .. الآن صار وحيدا يحتسي كل كئوس المرارة والتعب . تجلده الثواني فوق ظهره وتعض الدقائق قلبه المهيض . لا خبر عن "أحمد"يأتي إلا كل حين عن طريق رسائل " فريد " لأسرته . الأرض أكلت جسد " سعديه " .

لو أن أحداً كان يمر من تحت جدار بيت الشيخ " عبد العليم " لسمعه يقول لنفسه :

- سوف أرحل .. لازم أمشي من هنا .

طقت الفكرة – فكرة الرحيل – في رأس الشيخ كما طقت من قبل في رأس ابنه فكرة الرحيل إلى القاهرة .

سيترك سعدية رفيقة دربه وشقائه غريبة وحيدة تعاني المرارتين ؛ مرارة الموت ومرارة الغربة .

لم يخبر أحدًا بما ينتويه . أعز أصدقائه هنا المقدس " سمعان " لن يخبره ؛ ربما سوف يحزن ساعتها ويثنيه عن الرحيل .

بعد أن صلى الفجر توجه الشيخ إلى المقابر .. قدماه تعرفان الطريق إلى قبرها البسيط كحياتها البسيطة . جلس مهدودا على الأرض الرملية .

أسند ظهره لقبر مواجه لقبر " سعديه " . انحنى يحدثها كما كان لايفعل عندما كانت تستولي عليه فكرة ما . كانت في حياتها لا تعرف لعقله قرارا . فجأة كان يخبرها :(سوف أفعل كذا أو كذا الآن) (سوف آخذ بثأر أخويا) (سوف نرحل الآن من حجازه) . لم يكن يصارحها بما كان ينتويه . الآن ..والآن فقط هو يصارحها بما انطوت عليه سريرته . انحنى أكثر يحدثها في قبرها :

- اسمعي يا " سعديه " انا لازم أمشي من هنا .. أيوا لازم يا أم أحمد .. مش قادر تاني أقعد في [مير] من غيرك ، مش هاقول للمقدس " سمعان " .. خدي بالك ، أصل المقدس لو عرف إن أنا ناوي أرحل ؛ مش هايسيبني أمشي (وهو يؤكد عليها) إوعاكي يا سعديه حد يعرف .. اكتمي على السر لغاية لما ربك يعدلها . (وهو يعبث بالرمل) أنا مش عارف يا سعديه هارحل على فين .. يمكن المنيا .. يمكن مصر .. يمكن ويمكن .. لكن المهم أنا هارحل من هنا .

وكمان مش عارف ساعة الرحيل هاتكون قريب ولا بعيد . ما حدش زعلني ولا حاجه .. لكن أنا مش قادر تاني . (متراجعا بظهره للوراء) قال :

- آه يا سعديه ... آه يا حاجّه .. الدنيا من غيرك مالهاش عازه .. مالهاش طعم .. (وهو يجاهد دموعه دون جدوى) ماكنتش عارف قيمتك بالشكل ده يا بنت الإيه .. دا انت كنت كل حياتي وأتاريني ما كنتش عارف ! .. على العموم (وهو يهم واقفا) أنا ماشي ويمكن ما أقدرش آجي لك تاني ... إوعاكي تزعلى مني .. إنت اللي باقيه وأنا اللي

راحل ... مع السلامه يا سعديه .. مع السلامه يا حاجه .. مع السلامه يا أم أحمد .

كل أحزان الدنيا تنادت هنا .. تجمعت فوق صدر " عبد العليم " . لا حزن اليوم إلا حزنك أيها الشيخ .

في الأسبوع الثاني من زيارته لقبر زوجته وحديثه معها ؛ كان الشيخ قد جهز نفسه للرحيل . بقجة بها ملابسه ومصحف ومسبحة.ملابس الحاجه " سعديه " سوف تظل هنا في [مير] .(وهو يلقي بنظرة أخيرة على البيت) كان المقدس سمعان يطرق الباب طرقات متتابعة وقوية . ترى ما الذي جاء به الآن ؟ (تساءل الشيخ) .

كان " أحمد " قد أرسل - لأول مرة - رسالة بعد طول غياب مع قادم من القاهرة إلى مير .

- اتفضل يا مقدس . (قال الشيخ)

- يا ساتر يا اللي هنا . (قال المقدس وهو يدخل)

- ومين هايكون هنا غيري يا مقدس ؟ ! (قال الشيخ وقد كسى الأسى وجهه) ثم أردف :

- خير يا مقدس .. إيه اللي حصل ؟

- أبدا يا مولانا .. فريد أرسل حاجه تخص " ماريان " مع ابن خالتها ، ولقيت كمان رساله من أحمد مكتوب عليها : يصل ويسلم ليد والدنا / الشيخ عبد العليم ؛ علشان كده جيت لك بسرعه علشان أفرّح قلبك قبل ما تنام .

لم يلمح " سمعان " البقجه المتكومه فوق كنبة بجوار الباب . دس المقدس الرسالة في يد الشيخ ثم استأذن عائدا لبيته . فتح الشيخ المظروف بلهفة . اقترب من مصباح الجاز . ظهرت حروف الرسالة واضحة :

والدنا العزيز / الشيخ عبد العليم

سامحني على التأخير يا مولانا .. أنا باشتغل يوم الجمعه ويوم الأثنين في مطبعة .. وباقي الأيام في الأزهر .. أنا عارف إن الحمل تقل عليك بعد سفري .. لكن إنت لسه شاب يا مولانا وعندك عزم وقوة مش موجودين في أجدع واحد .

لسه بتروح الجامع ؟ .. طبعا .. أكيد بتعلم الأولاد القرآن مكاني .

معلش ... بكره الأيام تكون أحسن .

إوعاك تنساني في دعواتك .

سلام

أمي الغالية الحبيبة الحنينة ... الحاجه " سعديه

ـــــــ

وأنا مسافر من مير ؛ لمحت في عنيكي دموع الدنيا واترسم على وجهك حزن السنين .
كنتِ بتداري الحزن ده والدموع دي بضحكة علشان أنا ما أزعلش وأحزن .
أنا عارف إنك حزنانه لغربتي وبعدي عنك .. لكن والله أنا مش تعبان خالص .. عارفه يا حاجه :

أول ما سكنت هنا في شارع الألفي ؛ لقيت والحمد لله ، جارنا اللي ساكن فوق بيرحب بيا - ترحيب الأب - هو ومراته وبنته اللي تشبه " ماريان " بنت المقدس " سمعان " .
ما أخبيش عليكي ؛ في الأول كنت أحسبه مسلم ؛ لأنه طالق لحيته وطاقيته بيضا وجلبابه أبيض .. بعد كده عرفت من بنته " هيلانه " إنه (قمص) .. ما كنتش عارف في الأول يعني إيه قمص ؟ !

لكن بنته قالت لي إنها رتبة في الكنيسة ... يعني قسيس كبير .

المهم يا ست الكل :

أنا بخير .. إنت واحشاني كتير ، هو أنا ليا غيرك إنت والشيخ ؟!
وختاماً .. إوعاكي تنساني .. ادعي لي على طول يا أمي , سلام يا أعز الناس .

غسلت دموع الشيخ حروف الرسالة . غامت بعض الكلمات ؛ إلا العنوان ، عنوان " أحمد " في القاهرة . كرمش الشيخ الرسالة بين أصابعه لكنه انتبه ففردها ثانية وطبقها جيدا ووضعها في جيبه بجوار قصاصة من جرنال الأهرام والتي كان يصل لأحد الأعيان هنا في [مير] من بندر القوصية عن طريق البريد ؛ قرأ الشيخ فيما قرأ :
((تعلن مديرية المنيا عن احتياجاتها لمقيمي شعائر إسلامية نظرا لعجز واضح في مساجد مراكز وقرى المنيا ...)) .
فجأة وكأنه تذكر ، انطلق صوب بيت المقدس " سمعان " :

- أهلا يا مولانا .. اتفضل .. يا رب يكون " أحمد " بخير .

- نشكر الله يا سمعان .. أحمد بخير .. أنا عايز آكل لقمه معاكم وأشرب كوباية شاي من إيد ست الكل " أم مينا "
قال المقدس :

- يا سلام ... دا إنت تؤمر وتزيدنا بركة يا شيخ عبد العليم .

- العشاء الأخير يا عبد العليم مع أعز الناس .. مع الجليس والونيس في غربتنا (قال الشيخ في نفسه) .

كانت عينا عبد العليم تدور ناحية وجه المقدس ثم تدور لتقف على وجه الست " أم مينا " وتارة على وجه " ماريان " . خاف الشيخ أن تقرأ الأسرة ما ينتويه الشيخ في صفحة عينيه من المقصود من تلك الزيارة المفاجئة ؛ همّ واقفاً وقال في غير ما تردد :

- تصبحوا على خير يا أغلى الناس .

في الثلث الأخير من تلك الليلة ؛ وبخطىً وئيدة تحرك الشيخ ناحية الباب ، فتحه بحذر وببطء . القرية نائمة تماما ، وحدها كلاب الشوارع تعوي هناك بعيدا ، الغيوم

تحجب النجوم ، القمر في سماء مير يظهر على استحياء ليغيب بسرعة ، اخترق الشيخ الظلام ، بدا كشبح حزين ، دروب القرية صمتت لخروجه الأخير منها ، صرخ طفل بجوار أمه على مقربة من بيت سمعان ربما كان جائعا ، جفل حمار " أحمد " في مكانه ، ماءت قطة في كوة بيت مظلم وفرّ فأر مذعور من صوتها على سقف بيت آخر ، نسمات الليل الأخير تلسع وجه الشيخ الملتحف بعباءة سوداء نصف قديمة .

في صباح اليوم التالي ؛ سوف يدخل المقدس " سمعان " بيت الشيخ " عبد العليم " ويعثر على رسالة كان قد كتبها له بالقلم الريشة وتركها على مقعد - طالما جلس عليه المقدس عندما كان يزور الشيخ وأسرته – معتذرا له فيها عن رحيله المباغت ، سوف يقرؤها سمعان والدموع تغالبه . لا حقا سوف يدخل المقدس على زوجته وبنته مهموما حزينا وسيخبرهما الخبر الفاجعة .

****

مركز مغاغه - المنيا في سنة 1972

*****

شقة في الدور الثالث في عمارة تتوسط شارع الجمهورية انطلقت منها زغرودة لا يخطئ أحد من الجيران أنها زغرودة الست " إيمان " أم مروان ، الست الطيبة الصابرة والمتحملة مرارة الأيام ونميمة الناس على مر السنوات التي قضتها بعد رحيل زوجها " إبراهيم " بن الشيخ " عبد العليم .

مات زوجها فجأة بعدما كان قد أنجب ابنه الوحيد " مروان " ثم تركه صغيراً ينطق بالكاد .
عشرون عامًا ونيف قضتها الست " إيمان " كأنها جندي مجند لتأدية رسالة وحيدة مع ابنها الوحيد " مروان " . برغم جمالها الملحوظ ؛ رفضت الزواج من كثيرين تقدموا لها شباباً كانوا أم كهولاً ، أثرياء ومتوسطي الحال .

- الفرحة الحقيقية يوم ما أشوف " مروان " راجل كبير ومعاه الشهادة الكبيرة ، شهادة الليسانس .
(هكذا كانت دوماً تردد مبحلقة للسماء كأنها – الكلمات - مكتوبة على صفحة الفضاء والممتد أمامها وهي تردد ما تقرأ) .

اليوم طرق باب شقتها بقوة صديقه في الجامعة .. جامعة القاهرة .. لما فتحت له الباب ؛ دس في يدها ورقة تهنئة ثم قال : مبروك يا خالتي .. مروان نجح .

كانت هذه الجملة التي قالها صديق مروان كفيلة بأن تمسح عن روحها تعب السنين .
استيقظ " مروان " على صوت الزغاريد وانطلق تجاه الصالة كالسهم .
حضنته أمه باكية . قبلته في وجهه ثم ارتمى في حضنها ثانية .
- خلاص يا أم مروان انتهت أيام التعب .

- ما فيش تعب يا حبيبي (وهي تمسح دموعها) تعبك هو الراحة ذات نفسها ، بس أنا كنت خايفه أموت قبل ما أشوف اليوم ده (ثم أردفت) الحمد لله آديني عشت وشفت .

قبلت " إيمان " يدها ثم نزلت على الأرض وابنها كيما يسجدا سجدة شكر لله .

في الليل امتلأت الشقة بجاراتها وصاحباتها اللائي جئن وفي أيديهن أكياس من السكر وزجاجات الشربات وعلب الحلوى . ليلة سعيدة قضتها " إيمان " – وما أقل أوقات السعادة في حياتها .

بعد أيام من الآن ، سوف يسافر " مروان " إلى جامعة القاهرة كي يستلم مستخرجا من شهادة الليسانس / ليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية / كلية دار العلوم جامعة القاهرة وذلك استعدادا لتقديمه كمصوغ من مصوغات التعيين في وزارة التربية والتعليم .

****

مات " إبراهيم " ابن الشيخ عبد العليم حسرةً على أخيه " أحمد " الشيخ الأزهري وما سببه من عار لعائلة الشيخ بعدما انتشرت إشاعة كفره بالإسلام و اعتناقه النصرانية . قبل موت إبراهيم ؛ كان الشيخ الذي هدته الأيام قد سافر للقاهرة وعاد ومعه حقيبة بها متعلقات أحمد الذي مات في القاهرة ودفن في مقابر الإمام هناك . بعدها دخل الشيخ حجرة حزنه ولم يخرج منها أبداً ، أيام ومات " عبد العليم " ولم يوص قبل موته إلا بالحفاظ على متعلقات ابنه " أحمد " .

" إيمان " – بنت شيخ خفراء قرية الجبل الغربي – بعد موت زوجها " إبراهيم " ؛ تركت القرية تمامًا .

كانت " إيمان " مع زوجها قادرة على أن تتحمل كلام الناس ومعاملتهم الموجعة والمرة ، أما وقد مات زوجها فلم تعد قادرة على البقاء هنا لذا قررت الانتقال إلى بندر مغاغة . اشتغلت في مستشفى قليني العام كعاملة نظافة في قسم الاستقبال ثم انتقلت إلى القسم الغربي من المستشفى والخاص بالحميات بمرتب متوسط لكنه يكفي .حرصت " إيمان " على أن تحيط ابنها الوحيد " مروان " بحصار شديد من الأخلاق والقيم الدينية كي لا يكون كعمه " أحمد " ذلك الذي جلب العار لهم . ألحقته بكتّاب لتحفيظ القرآن في مسجد [قاسم بيك المصري] ، حفظ القرآن صغيراً ، غرست فيه حب الطقوس الإسلامية ؛ فكان " مروان"حريصاً ومواظباً على أداء الصلوات في المسجد . كانت توقظه لصلاة الفجر فيصليه معها في البيت ولما كبر كان يذهب وحده في غبشة العتمة إلى المسجد .

تشرَّب " مروان " تربية أمه ؛ فنشأ يكره النصارى دونما سبب لكنه لما كبر وانخرط في جماعة الإخوان المسلمين ؛ وجد المبرر الشرعي لتلك الكراهية .

الأخ " عاطف البرعي " هو أول من قاده للتعرف على الإخوان المسلمين ، بدأ عاطف صديقاً لمروان ، كان أكبر منه سنا وعقلا ، تعلق به مروان . باركت " إيمان " هذه العلاقة وغذتها بينهما غير أنها ماكانت تدرك مغبة تلكم العلاقة . كرهها الشديد للماضي وآلامها منه ؛ جعلها تجري بابنها بعيدا عن الطريق الذي كان قد سلكه "الشيخ أحمد " عم ابنها .

عندما تعرف " مروان " على " عاطف " كان الأول في المرحلة الإعدادية وكانت جماعة الإخوان تشهد فترة صعبة في ذلك العهد ، عهد جمال عبد الناصر والذي نجح في تفكيك الجماعة بعد توجيه عدة ضربات موجعة لها ولقادتها التاريخيين . كان من بين هؤلاء الشيخ " مصطفى البرعي " والد عاطف وكان ذلك في سنة 1964 . لكن لما كانت الفكرة لا تموت مهما حصل لمعتنقيها من تغييب في السجون والمعتقلات أو قتل أو تشريد ؛ فقد كانت بذور الجماعة موجودة في القرى والنجوع والأحياء الشعبية حيث الفقر والمرض والجهل الأرضية الخصبة والحاضنة لأي فكر ديني متشدد .

في عام 1967 تعرض النظام الناصري لنكسة مؤلمة وصادمة على يد دولة " إسرائيل " وبدأ الفكر الاشتراكي المغلوط أصلاً يتراجع .

تراجعت فكرة الدولة القومية ناهيك عن الدولة المدنية .

بدأت جماعة الإخوان تتصدر المشهد كبديل قوي وحتمي للدولة العسكرية . كانت بداية عودة الجماعة عندما روّج تجار الدين لمقولة مفادها (أن هزيمة 67 دليل واضح على هزيمة دولة الكفر)

وهكذا أدت تلك الهزيمة إلى حرث الأرض وتمهيدها لعودة جماعة الإخوان المسلمين والجماعات ذات التوجه الإسلامي السياسي .

تلك الهزيمة – 67 – لم تفقد مصر جزءا من أرضها فقط ، بل أفقدتها عقلها والذي تم تغييبه تماما على يد جماعات الإسلام السياسي .

ذات يوم صائف كان مروان في حجرته يسجد سجدة الشكر لنجاحه في الصف الثاني الثانوي وانتقاله بالتالي إلى التوجيهية ، في الوقت الذي كان " عاطف البرعي " يطرق باب شقة " أم مروان " والتي فتحت الباب لتجد الفرحة تنط من عين عاطف ولحيته الخفيفة :

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام . اتفضل يا ابني .

(وهو يدخل مسرورًا قال) :

- مروان فين ؟ ... مبروك .. مبروك
ساعتها ظنت إيمان أنها مباركة وفرحة لنجاح مروان .

- لا يا خالتي لا .. لقد انهزمت دولة الكفر .. جيش مصر انهزم .. عبد الناصر انتهى .

عندما جاء " مروان " بعد أن كان قد انتهى من سجدة شكر طويلة لنجاحه ؛ وجد عاطف صديقه ساجداً على الأرض فرحا بالنكسة ؛ سجد مثله مشاركا إياه الفرحة .

لم ترحب " إيمان " بتلك الفرحة واعتبرتها شماتة في مصر وجيشها والتمست ساعتها العذر لعاطف لأن والده في السجن مظلوماً ، غير أنها ما سامحت ابنها عندما فعل ما فعل عاطف وشاركه سجدة الشكر لهزيمة مصر .

في مساء اليوم التالي ؛ اصطحبه " عاطف " لمنزل في حارة ضيقة متفرعة من شارع عبدالعظيم طرق عاطف الباب ليخرج عليهما شاب قصير القامة ، وبعد تبادل السلام مع " عاطف " ؛ استوقفهما قليلا ثم عاد ليأذن لهما بالدخول . انفتح الباب . دخل " عاطف " وتبعه " مروان " .

- يا ساتر يا اللي هنا .. السلام عليكم . (قال عاطف) .

- اتفضلا يا أحبابي .. وعليكم السلام ورحمة الله .(جاء الصوت من حجرة على يمين الداخل) . انصرف الشاب القصير مستأذناً . على كنبة عتيقة يجلس رجل وخَطَ الشيب لحيته الكثة ، يمسك بيده مسواكاً غليظاً ، أمامه طاولة كبيرة فوقها مصحف كبير وكتابان أحدهما أصغر من الآخر حجمًا .

رائحة البخور زكمت أنف " مروان " فعطس فشمّته الشيخ : يرحمك الله يا ابني . انحنى عاطف قليلا أمام الشيخ الجالس في مهابة غير

مصطنعة والذي مدّ يده لـ عاطف ليطبع عليها قبلة وفرحة تنط من عيني الشيخ الواسعتين و المكتحلتين بالإثمد سنة عن النبي . تسمّر " مروان " مكانه .

أنهى " عاطف " لحظات ارتباك اللقاء الأول بتقديم " مروان " للشيخ :

- " مروان " يا مولانا .... هذا هو !

لم يكن " مروان " في حاجة كي يفهم أن " عاطف " قد حدّث الجالس في مهابة الآن عنه سابقاً .

مدّ الشيخ يده تجاه الضيف الصغير السن والذي ظهر متهيبا الموقف . بمساعدة من عاطف تقدم " مروان " ناحية الشيخ وقال :

- أهلا يا مولانا (دس يده في يد الشيخ اللدنة) . متوجها إلى مروان قال عاطف :

- هذا هو الشيخ " حسن يوسف " والذي أرسله الله إلينا – نحن أهالي مغاغة – كي تستمر الدعوة بإذن الله الواحد الأحد (جلس عاطف بجوار الشيخ حسن ثم أكمل) كان من المهم يا مروان أن تجلس في حضرة مولانا وتتعرف عليه عن قرب .

رغب الشيخ " حسن " في أن يخفف عن " مروان " ارتباكه من فوبيا اللقاء الأول فقال :

- دعونا نحتفل الآن بأكثر من مناسبة ، الأولى :هزيمة جيش الطاغية،والثانية زيارة "مروان"لنا.وأما الثالثة فهي خطبة بنتنا "فاطمة" لابن عمدة قرية"الشيخ أحمد" . أردف " عاطف " :

- وهناك مناسبة رابعة يا مولانا

- وما هي يا أخ " عاطف " ؟ (سأل الشيخ)
- مناسبة نجاح الأخ " مروان " بتفوق كبير على الفرقة كلها وانتقاله للتوجيهية بإذن الله .

حوّل الشيخ " حسن " وجهه ناحية باب صغير في حائط حجرته يؤدي إلى داخل البيت ثم رافعاً من نبرة صوته الجهوري : العصير يا " فاطمه " والعشا كمان علشان عندنا ضيف .
لم تكن " فاطمه " في حاجة لتعليمات والدها ، فقد كانت خلف الباب تتابع من فتحة منه " مروان " وتتنصت على حوارهم .

نبت سؤال في رأس مروان : كيف تتزوج بنت الشيخ الإخواني المضطهد من ابن العمدة رمز الدولة الكافرة ؟!

****

(فاطمـــة)

منذ عامين كانت " فاطمة " قد حصلت على الشهادة الإعدادية ، بعدها لم تذهب إلى المدرسة لتكمل تعليمها الثانوي . رفض والدها

خروجها للمدرسة مرة أخرى بعدما لمح جسدها والذي فار وكبر بصورة ملفتة،ناهداها المتكوران كعنقودي عنب ، صوتها الناعم كالحلم والذي يشي بأنوثة طاغية ، مؤخرتها المكتنزة والمستفزة . وقفت أنوثة فاطمة عائقاً قوياً أمام استكمال دراستها.لمحها ابن عمدة قرية"الشيخ أحمد "وكان في زيارة مع والده لمريض في مستشفى المدينة وهي تنحني أمام بائع الخضار باحثة عن أجود ما عنده ، ساعتها ترك ابن العمدة والده على مقهى المحطة ثم تابع " فاطمة " عن كثب حتى عرف منزلها . سأل عنها الجيران وفي اليوم الثاني جاء بصحبة والدته لمنزل الشيخ " حسن " ومنذ يومين وقبل مجئ " مروان " بصحبة " عاطف البرعي " ؛ جاء العمدة وحاشيته ، قرؤوا الفاتحة وحددوا يوماً للزفاف .

قراءة " فاطمة " للروايات المصرية والمترجمة أيضاً ومشاهدتها الأفلام خلسة من وراء ظهر والدها المتزمت ؛ جعلها ترسم في مخيلتها صورة لفتى أحلامها ، كانت تود أن ترتبط بقصة حب مع من سيكون عريسها ، كانت ترى نفسها كبطلات الروايات ؛ روايات إحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله . قرأت " فاطمة " في عين ابن العمدة من أول لقاء بينهما ؛ قيمتها في نظره ؛ فهو يريد أن يرتبط بالجسد الصارخ لفاطمة والناهدين النافرين .

من خلف الباب ، باب حجرة الجلوس ؛ كانت تتابع في شغف وجه " مروان " ، أحسته وجها ممتلئا حياء وكسوفا . للحظة ، وهي تجهد نفسها كيما لا يغيب عن ناظريها . التقت عيناها بعينيه ؛ ساعتها

ازدادت ضربات قلبها الخالي من العشق ، كاد قلبها ينخلع من بين ضلوعها ليسقط تحت قدميها .

سحبت من فضاء المكان خلف الباب نفساً عميقا كي تستطيع مواصلة التحديق في الضيف الجديد . وكأنه كان يشعر بوجودها وبرغبتها في مكانها المعتم ؛ ظل " مروان " في مكانه ثابتا متخذا زاوية الرؤية الصح لفاطمة .

" فاطمة " لأنها كانت وحيدة والديها ، فقد تمتعت بإهتمام ودلال كبيرين منهما . لم يكن مسموحا بخروجها لولا الروماتيزم الذي سكن جسد والدتها مما اضطر " فاطمة " أن تخرج لشراء حاجيات البيت بعد أن وافق الشيخ من باب الضرورات التي تبيح المحظورات .

انسلت من خلف الباب وتخلت عن مراقبة " مروان " تلبية لأمها والتي نادتها كي تساعدها في المطبخ .

كان هذا منذ خمس سنوات ؛ وهم يتحدثون – ثلاثتهم – حول الدعوة وشئونها والمجتمع الجاهلي كما يصمه [سيد قطب] في كتابه الأشهر (معالم في الطريق) ، طرقت " فاطمة " الباب نقرتين تنبيها لوالدها كيما يتناول منها المشروب ، غير أنه قال لها :

- تعالي يا فاطمه .. ما حدِّش غريب ، عمك عاطف وأخوكي مروان .

دخلت عليهم فكأن النهار انداح بين يدي مروان . دخلت فاطمة واثقة غير مضطربة . نكس مروان رأسه حياءً فلاحظت ذلك فاطمة ، وزعت أكواب العصير ، بدأت بوالدها ثم عاطف واقتربت من مروان ،

احتكت بركبته قاصدة ذلك الاحتكاك ، بالغت في انحنائها وهي تضع كوب العصير أمامه . اقترب وجهها من وجهه ، هاهي تراه عن قرب كبير ، شعرت بزفيره الساخن خلف أذنها اليسرى . اعتدلت قائمة ثم انصرفت إلى أمها في حالة سكر ودوار . وأما هو فظل في حيائه واجمًا .

عندما ارتفع صوت المؤذن لصلاة العشاء كانت فاطمة قد انتهت وأمها من إعداد طعام العشاء .

- سوف نصلي العشاء هنا يا أحبابي ، خروجنا للمسجد قد يعرض " مروان " للشبهة والمراقبة من الآن . (قال الشيخ)

بعد أن انتهوا من صلاتهم ؛ جاءت " فاطمة " ثانية تحمل هذه المرة صينية كبيرة مغطاة بفوطة نظيفة تحتها أطباق الطعام الساخن والشهي . اقتربت " فاطمة " مرة أخرى من " مروان "، كأن اقترابها منه رسالة سرعان ما فهمها غير أنه ارتبك متمنياً أن تنصرف الآن بسرعة حتى لا يلحظ أحد ارتباكه الذي بدا واضحاً على صفحة وجهه . بالغت " فاطمة " في رص أطباق الطعام . ازدادت قرباًمن " مروان " ، كادت تجلس على ركبتيه .أنفاسها التي ترسلها متعمدة في وجهه ؛ أشعلت الحرائق في جسمه ثم انصرفت .

- من السُّنَّة النبوية التحدث على الطعام .

لم يقدر " مروان " أن يقول للشيخ " حسن " : إن الكلام أثناء الطعام يسبب اشمئزازاً وقرفاً له حيث أن شذرات من الطعام تتطاير من فم المتكلم على المائدة .

- اسمع يا عاطف : كن حذراً هذه الأيام (وهو يخفض من صوته) عيون الطاغية سوف تبحث عن ضحايا لإلهاء الناس عن الهزيمة وشفاء غليلهم من الشامتين ، لا تتردد كثيراً على "مروان " فهو شمعة جديدة ونحن نخاف عليها أن تنطفئ مبكراً . (قال الشيخ) ثم ابتلع لقمة كبيرة وواصل توجيهاته لكن هذه المرة لمروان :

- هه ... ماذا قرأت عن الشهيد [سيد قطب] يا مروان ؟

- الحقيقة يا مولانا : أنا لم أقرأ عنه ، لكنني قرأت له .

- وماذا قرات له ؟

- قرأت له كتاب " العدالة الاجتماعية " و " المستقبل لهذا الدين " .

- عظيم يا ابني .. بارك الله فيك ، لكن فاتك الأهم من كتب الشهيد .

ابتسم عاطف وهو يهم بحشو فمه بالأرز .

- وما هو الأهم فيما كتب يا مولانا ؟ (تساءل مروان)

- المعالم .. كتاب [معالم في الطريق] يا مروان ، هو كتاب يجب أن لا تقرأه فقط ؛ يجب أن تدرسه جيداً مع الأخ " عاطف " إن شاء الله.

ثم انصرف مروان وعاطف مستأذنين من الشيخ وكان ذلك بعد صلاة العشاء على وعد بلقاءات مرتبة مع الشيخ حسن .

" فاطمة " انصرفت إلى مخدعها بعد أن كانت قد انتهت من غسيل الصحون وأكواب الشاي والعصير . نزعت ما عليها من ملابس خفيفة ، ظهر جسدها عمود من الرخام المدهش ، الصدر العريض والناهدان النافران المتحديان تنفَّسا الصعداء من حبسة السونتيال . ارتمت على السرير متنهدة . تحسست أسفل بطنها ، هل نامت فاطمة ؟! ربما غفت ، غير أنها استدعت مروان على جناح الرغبة والاحتياج .
هجمت عليه . فضت بكارة خجله بشفتيها الساخنتين . أطلقت لسانها داخل فمه . جردته من كل تدينه الذي بدا هشاً . طرحته على فراشها كأسير خائر القوى . ارتمت فوقه . أمطرت أذنيه ورقبته ووجنتيه بقبلات عشوائية . بدا كالميت بين يدي مغسله ولم يبد أية مقاومة . انتصب أسفله كوتد . أمسكت المنتصب بيدها وبالأخرى نزعت ما يستر أسفل بطنها الذي بدا طرياً ورائعاً ومبهراً ومستفزاً .
أحكمت سيطرتها على المنتصب أسفل " مروان " دفعته داخلها .
صرخت وهي فوقه صرخةً شقت هدوء الليل ؛ تفزعت أمها . دخلت عليها حجرتها أيقظتها وقالت :

- اسم الله عليكي يا بنتي .. فيه إيه يا فاطمه ؟ !

صحت فاطمة من عالمها وقالت :

- أبداً يا ماما .. ما فيش حاجه

انصرفت أمها بعد أن اطمأنت على وحيدتها ، وأما " فاطمة " فقد راحت في سبات وخدر لذيذين .

وهو يأوي إلى فراشه ؛ رتّل " مروان " طقوس النوم : باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه ثم جاءته " فاطمة " على أحسن ما يكون ، شهية وقادرة ومتسلطة وجريئة ، أدخلها حجرته ، عراها تماماً من ثيابها ثم نزع ما يستره من ملابس . أطفأ نور الحجرة فأضاء جسمها المكان .انتصب جسمه كاملاً . صهل الحصان داخله فأطلق له العنان . راح يكتشف جسدها المسكون بالشهوة والغواية . خاف أن يتوه في القارة المجهولة والمتسعة فعاد إلى سرتها بشفتيه . مركز الكون هنا أسفل سرتها بقليل ، تحسسه بيده ؛ كالملسوع صرخ . عكمها بيديه . تلاحقت أنفاسه وهو يروي أرضه المجدبة . بدت " فاطمة " كمقاتل مغرور وقد أعلن استسلامه . المنتصب أسفله يعرف الطريق فانطلق كالسهم المارق من قوسه . قبل أن يبتل سريره بمائه ؛ صرخ بقوة الرعد ، غير أن أمه لم تسمع صراخه !

في الصباح وبعدما تأكد " مروان " أنه – على غير العادة – لم يصح لصلاة الفجر ؛ استغفر الله ودخل الحمام ثم بدأ في طقوس الاغتسال من الجنابة .

كانت زيارة " مروان " للشيخ " حسن " بمثابة وضع حجر الأساس للانخراط في جماعة الإخوان المسلمين ، من ناحية أخرى كانت أيضاً – تلك الزيارة - بداية تعلق " فاطمة " به والتي تزوجت من ابن العمدة وسرعان ما فشلت الزيجة ؛ طلقت فاطمة دون أن تنجب ،

قعدت في بيت أبيها تأكلها الوحدة والوحشة والرغبة التي انفتحت كالهويس الذي لم يجد مصبا لمائه المتدفق . عادت تداعب في خيالها وعالمها الافتراضي " مروان " الذي ما كان يظهر لها اهتماما خشية غضب الشيخ .

كان إذا التقى بها نهارا في زيارتها وأمها لأمه الست " إيمان " في شقتهم - بعد أن توطدت العلاقة بين الأسرتين - ؛ فلا يبدي لها اهتماما . يبدو كزاهد صوفي فإذا ما جن عليه الليل ؛ استدعاها - بخياله - في حجرة نومه قبل أن ينام فيفعل بها الأفاعيل ، يشتهيها كل ليلة وفي الصباح يغتسل ثم يصلي الصبح مستغفرا الله على ما حدث !

سافر " مروان " إلى القاهرة . حصل على مستخرج من شهادة الليسانس . قدّم أوراق تعيينه للقوى العاملة ؛ بعدها بأيام جاءه خطاب التعيين . عمل مدرسا للغة العربيةو والتربية الإسلامية بإحدى مدارس مركز مغاغة .

****

بينما كانت المظاهرات اليسارية والشيوعية تضرب أروقة الجامعات المصرية مطالبةً القيادة السياسية للدولة بالحرب وتحرير سيناء ؛ كان الشيخ " حسن يوسف " يوطد علاقته أكثر بأسرة " أم مروان " الصغيرة والمكونة من " إيمان " وابنها . كان الشيخ يرسل زوجته ومعها بنته فاطمة لزيارة تلك الأسرة بشكل دوري ، كما حرص الشيخ على تكليف مسئول قسم الأخوات المسلمات بتوثيق العلاقة بالست

" أم مروان " واستقطابها لتكون بعد فترة وجيزة عضوة في المكتب الخاص بقسم الأخوات المسلمات .

في المرة الأولى لم تلمح " إيمان " – والتي شارفت على الأربعين من عمرها – اهتمام الشيخ " حسن " بها ، غير أنه بعد ذلك تسرب لخاطرها سؤال عن سر اهتمام الشيخ الزائد عن الحد .

كان الكبر قد بدا يظهر بوضوح على الست " أم فاطمه " التي ازداد وزنها وترهلت . منذ وقت ليس بالقصير كانت قد توارت من سرير و حياة الشيخ المتماسك البنية . لم يقصر الشيخ في حقوقهاغير أن صروف الدهر قد حاصرتها . خشونة الركبة وآلآم العظام أقعداها عن ممارسة الحياة الحميمة مع زوجها . إذا ما كانت تخرج فإن عربة الحنطور جاهزة دائما لنقلها إلى حيث تتوجه .

" إيمان " ما زالت تحمل قدرا ومساحة من الجمال والحياة الجذابة والتي تنعكس على تقاطيع وجهها وصوتها الرصين والمثير . أصبحت " إيمان " عضو في مكتب " الأخوات المسلمات "وتتقاضى عن ذلك مبلغاً ليس بالقليل . في البدء رفضت تقاضي أجراً عن عملها في الجماعة ظناً منها أنه عمل تطوعي خيري لوجه الله ، غير أن المسئولة عن قسم الأخوات في الجماعة والتي تعمل تحت إمرة الشيخ أفهمتها :

- إن مصارف الزكاة التي حددها الله في كتابه والتي منها " ... والعاملين عليها وأنت يا " إيمان " من العاملين علي جمع أموال الزكاة والتبرعات لمساعدة المحتاجين والمحتاجات من أسر الإخوان القابعين في سجون الطاغوت (ثم أكملت المسئولة عن قسم الأخوات) : وكمان

للصرف على المؤلفة قلوبهم وقلوبهن .
لم تفهم " أم مروان " معنى (المؤلفة قلوبهم) ، غير أن الأخ " عاطف البرعي " في إحدى زياراته والتي كثرت هذه الأيام بدون حذر منه ، أفهمها قائلاً :

- كان رسولنا الكريم – ص – يخصص جزءاً من أموال الزكاة والغنائم لأشرار وكفار مكة .

ثم وقبل أن تزداد " إيمان " دهشة وحيرة ظهرتا للتو على وجهها ، أكمل وقال :

- هذه الأموال والأعطيات مقابل أن يمنعوا أذاهم عن المؤمنين ولتحبيبهم في الإسلام كيما يدخلوا فيه وهذا ما تحقق تماما تحقيقا لنظرة النبي القائد المستقبلية .
لما تساءلت :

- أليست هذه رشوة ؟
قال لها " عاطف " : جهزي لنا لقمة نأكلها يا أختي " إيمان " فأنا جائع !
إنصرفت " إيمان " ساعتها إلى المطبخ . التفت " عاطف " إلى مروان وسأله :

- أخبار التلامذة اللي معاك إيه يا أخ " مروان " ؟

كان مروان قد تم تكليفه من قِبَل عاطف البرعي بانتقاء مجموعة من تلاميذ المدرسة الإعدادية والتي يعمل بها والذين يتوسم فيهم الذكاء

والتدين الفطري ومن ثم توثيق علاقته بهم ومساعدتهم بالدروس الخصوصية مجاناً والعمل على الاجتماع بهم مرة كل أسبوع في المسجد لتلاوة القرآن وحفظ ما تيسر من جزء [عم] وقراءة حديث من كتاب الأربعين النوبية وشرحه وحفظه وذلك تمهيداً لضمهم للجماعة بعد إعداد وتكوين جيدين حسب منهج ومخطط الجماعة . في الليل كان الاجتماع السرِّي والذي يضم " مروان " وأربعة آخرين من المنتمين للجماعة تحت مسؤوليةالاخ " عاطف البرعي " . يسمون هذه المجموعة بالأسرة بدلاً من خلية ، فكلمة خلية حسب توصيف الشيخ " حسن " توحي بالتناحر والصراع وهي توصيف " شيوعي " ، أما نحن -الجماعةَ المسلمة- فتتكون شعبنا من أسَر وكلمة أسرة يحيط بها فضاء ديني يتوافق وإسلامنا .

الأسرة تضم خمسة أفراد يتم إعدادهم إيمانياً وثقافياً ورياضياً لأنهم النواة الأولى لتكوين المجتمع المسلم ثم الدولة المسلمة وبالتالي الخلافة التي بشرنا بها النبي الكريم .

كانت الاجتماعات - في عهد مضى – شبه محظورة ومُضيَّق عليها من الدولة . الآن أصبحت الجماعة تتمتع بقدر من الحرية والحركة الواسعة بعد أن أفرجت الدولة عن كثير من قيادييها التاريخيين حتى أنها أصبحت تعقد وتقيم اللقاءات والمؤتمرات في المساجد وفي مؤسسات الدولة علناً .

كان الاجتماع الليلة في بيت أحد الإخوان . جاؤا فرادى حسب التعليمات . عندما اكتملوا ؛ سأل مروانُ عاطف :

- لماذا نتخفى رغم أننا أصبحنا نجهر بدعوتنا في كل مكان ، المدارس والمساجد والجامعات ؟ !

مال " عاطف " بوجهه ناحية مروان وقال له :

- هذه تعليمات القادة للجماعة يا أخ مروان ، هم أدرى منا بالدولة وسياستها الغير مأمونة ثم إن اللقاءات العامة والعلنية يحضرها الغث والثمين ونحن من خلال تلك اللقاءات والمؤتمرات ننتقي ونستقطب الشباب المرجو منهم الخير ثم نأت بهم تحت الأرض من وراء أعين الدولة ورجالها الملاعين .
اعتدل عاطف وغير من نبرة صوته وانتقل من الناصح إلى المُحذر :
- وبالمرة أحب أقول لكم يا إخوة ، ما حدِّش يسأل أسئلة كتيره ، قال الله في محكم آياته :
(يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) ونحن جميع علينا أن نثق تماما في قادتنا ؛ لأنهم أكثر منا علماً وخبرةً ، ويكفي أنهم من الرعيل الأول والذين عاصروا فضيلة الإمام المؤسس الشهيد " حسن البنا " رضي الله عنه .

كانت كلمات " عاطف " الأخيرة كافية تماما لوأد أي تساؤل ربما يجول بخاطر أحد من الموجودين الآن في هذا الاجتماع . رشف " عاطف " قليلا من الماء ثم وبعد أن هدأ قليلا :

- نعود لبرنامج جلستنا واجتماعنا اليوم ثم أشار إلى أحد الجالسين الخمسة أمامه قائلا: اقرأ يا أخي وأسمعنا من خير الكلام .

قرأ المشار إليه آيات من القرآن بصوت رخيم ولما انتهى قال عاطف المسؤول عن هذه الأسرة الإخوانية :

- الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد – ﷺ – ثم أما بعد : يا إخوتي أذكركم وأذكر نفسي بالمهمة الأساسية والملقاة على عواتقنا جميعا وهي مهمة[الدعوة] نعم الدعوة إلى الله هي مهمتنا الوحيدة . يجب أن نضع نصب أعيننا أنها دعوة ربانية المصدر ، كتب الله لها الغلبة والنصر يقول الله في محكم آياته " كتب الله لأغلبن أنا ورسلي "
إن نصر الله لهذه الدعوة قادم لا محالة بنا أو بغيرنا ونحن نحاول فقط أن يكون لنا شرف المشاركة في إعداد جيل رباني قادر على تحقيق وعد الله . نحاول أن نكون لبنة في بناء الدولة الإسلامية ثم الخلافة ثم أستاذية العالم . نعم أنت أيها المنتمي لدعوة الإخوان أستاذ العالم كما قال الإمام الشهيد " حسن البنا " رحمه الله ....
بعد أن انتهى " عاطف " من كلمته الطويلة ؛ أخرج أحد الجالسين ورقة صغيرة كان قد دون بها عناصر كلمته المنوط بإلقائها وكانت حول موضوع (الحب في الله وأهميته) والترابط وأن أخوّة العقيدة أقوى من أخوة الدم ...
أما " مروان " فلما جاء دوره ؛ أخرج هو الآخر ورقة من جيبه لكنها كبيرة .
بهذه الورقة عناصر كثيرة عن كتاب (معالم في الطريق) لـ سيد قطب . قال "مروان "بعد أن حمد الله وأثنى عليه :
- بداية – يا إخواني – فإن هذا الرجل – سيد قطب – يطلب منا جميعا نحن – الجيل القرآني الفريد – أن نؤمن إيمانا راسخا لا ريب فيه بأن هذا المجتمع الذي نحيا فيه ؛ هو مجتمع جاهلي مغاير ومناقض تماما لأخلاق وفلسفة القرآن الكريم . ولا تغرنكم هذه

المساجد المنتشرة والتي يرتادها الناس ، فما هذه المساجد إلا معابد كمعابد الكفار والوثنيين في الجاهلية حذوك
النعل بالنعل .
أحد الجالسين قاطع مروان :
- ولماذا نصلي طالما هي كذلك ؟!
أجاب " عاطف " مسئول الأسرة وأميرهم :
- نحن نصلي فيها بنيتنا الطيبة والمخلصة لله كما كان الرسول يصلي في الكعبة والأصنام منصوبة من حوله ، كما أننا من خلال المساجد نستطيع أن نصطاد المخلصين أمثالكم كيما نربيهم على على منهجنا ونعدهم ليوم الحسم مع الباطل في معركة فاصلة .
أكمل " مروان " أطروحته عن سيد قطب :

- هنالك فريقان فقط ولا ثالث لهما ، فريق يتزعمه الشيطان وفريق يتزعمه الله ، الأول (حزب الشيطان) والثاني (حزب الله) ، فلننظر جميعا أين نضع أقدامنا ، هل نضعها في طريق الشيطان أم نضعها في طريق الله . الذين وضعوا القوانين البشرية وجعلوها حكما بين الناس هم جعلوا من أنفسهم آلهة يعبدها الناس من دون الله حتى وإن صلوا وصاموا وحجوا البيت وزعموا أنهم مسلمون ، كل هذا لا يدخلهم في زمرتنا نحن المسلمين الفرقة الناجية .
تدخل " عاطف " مقاطعا " مروان " رافعا كفه اليمنى :
- لحظة يا إخوة ، لا يجب أن نعامل الآخرين على أنهم كفار ، يجب أن نشعرهم بأنهم مسلمون وإلا سوف نخسرهم جميعا ونثير علينا الدولة بأزهرها وأوقافها ، يجب أن نكون ودعاء كالحمائم وحكماء

كالأفاعي .(ثم أشار إلى مروان) : أكمل يا أخي لا فض فوك .

****

علاقة الشيخ " حسن يوسف " بـ " أم مروان " وإبنها تزداد مع الأيام قوة ومتانة . لم تكن " إيمان " في حاجة لمن يخبرها بمشاعر الشيخ ناحيتها ، كانت تقوم الليل للصلاة حسب توجيهات الأخت المسئولة عنها وتشعر وهي في صلاتها بنظرات الشيخ تحاصرها وتعريها من ملابسها فتستغفر الله على ما لم تفعل .عندما تأوي لفراشها وحيدة كالعادة منذ كبر مروان وصار رجلا كانت تتحسس بيديها جسدها الذي يماثل أرضا خاصمتها المياه منذ قرون ، تمرر يدها على بطنها ثم صدرها لتهبط إلى سرتها حتى أسفل قليلا حيث القابع منذ سنين ينتظر فريسته . تظل تهدهد جسدها كأنها تمنيه حتى يدهمها النوم ثم يأتيها الشيخ في منامها فيكمل ما كانت قد انتهت عنده ، وفي الصباح تدخل الحمام فتغتسل من جنابتها ثم تصلي الصبح في غير وقته وتستغفر الله على ما حدث في نومها وهي عالمة بأنه ليس على النائم حرج .

في طريق عودته من المدرسة التي يعمل بها إلى البيت كان التعب باديًا على وجهه من أثر الصيام ، شعر " مروان " أن حنجرته تكاد تتحجر بفعل العطش . لمح تجمعا من الناس في الطريق حول مذياع خرج به صاحب السوبرماركت إلى الشارع بفعل الزحام عليه ، لم يتوقف ليسأل غير أن تكرار المشهد أمام مقهى ثم على جانب الطريق وأمام صيدلية ؛ جعله يتوقف . اتجه صوب المتجمعين هناك . كان

المذيع قد انتهى مما كان يشد انتباه الناس فصاحوا مكبرين (الله أكبر) ومن بعيد جاء الصوت مجاوبا (تحيا مصر .. عبرنا القنال . فرح مروان وشارك الناس فرحتهم وسجد على الأرض شكرا لله ثم انطلق مهرولًا إلى أمه ، طار التعب والعطش من جسده الذي أحس به نشيطًا وخفيفًا . استخفت به الفرحة فتخلى عن وقاره وهو يتمايل برأسه طربًا .

فتحت أمه الباب وكادت تطلق زغرودة غير أن نظرة من عين " مروان " ذكّرتها بحرمة وعورة صوتها . ابتلعت زغرودتها . حضنت ابنها وسجدت لله شكراً .

بينما كانت " إيمان " تعد إبنها بمستقبل سعيد له ولكل شباب مصر ؛ كان الشيخ " حسن " مشغولا و" فاطمة " بتطبيب وقراءة الرقية الشرعية فوق رأس زوجته التي دخلت منذ الصباح في إغماءات متكررة . وضع الشيخ أذنه على صدرها . بدت دقات قلبها واهنة وبعيدة . تحجر بياض عينيها في محجريهما . غاب النفس . توقف القلب تماما . صرخت " فاطمة " من وسط رأسها تجمع الجيران . وفي المساء جاءت " إيمان " وابنها معزيين .

في اليوم الثالث من موت أم فاطمة وبعد أن انتهى الشيخ المقرئ من طقوس اليوم الأخير من العزاء . بوغت مروان من عرض الشيخ " حسن " وأخرسته الدهشة . قال " عاطف " :

- لا تتعجب يا مروان ، فإن الصحابي الجليل " أبا هريرة " – رض الله عنه – وأثناء عودته من دفن زوجته في التراب ؛ خطب امرأةً ليتزوجها ، ولما سُئل الصحابي الجليل قال لهم:

- أخشى على نفسي من الفتنة (!)

قصة الصحابي التي رواها عاطف لم تخفف من هول طلب الشيخ ؛ فمروان لا يملك من الدنيا إلا أمه ، أما وأنها تغادره إلى أحضان رجل ولو كان الشيخ " حسن " ، فهذا مما لا يحتمل .

- أنا أطلب يد الأخت " إيمان " أمك يا مروان وأرجو أن تعرض هذا عليها (ثم وهو يضغط على حروف كلماته مؤكدا) : وأنا في انتظار ردها الطيب منك .

تلك كانت كلمات الشيخ التي فجرها في وجه مروان . عرض الشيخ هذا لن يكون مفاجئا لـ " إيمان " فإيماءاته ولفتاته طيلة الأيام الأخيرة كانت تشير إلى أن الشيخ سيفعلها خاصة بعد موت زوجته.

أما " مروان " فقد كان على يقين أن والدته – التي كرست حياتها له - سترفض .

لم يكن يدرك أن الشيخ كان قد طاردها بعيني خبير وأنها كانت تسمح له أن يأتيها في أحلامها فيفعل بها فعل الزوج بزوجته . وهو يعرض الأمر عليها ؛ ابتسمت " إيمان " في حياء مصطنع وأومأت برأسها أسفل قدميها . سأل مروان متعجبًا : - إيه اللي أفهمه من كده ؟! هل أنت موافقة ؟ !

قالت " إيمان " بدون تلعثم :

- سكوت البنت يعني رضاها يا " مروان "

وعيناه تتسع وصوته يعلو ؛ قال :

- بس انت مش بنت .. إنت ست كبيرة ! ، ولما لمح تغير وجه أمه الذي اختلط فيه الحزن بالغضب ؛ تراجع معتذرا ثم وهو يهم بالانصراف قال :

- أنا آسف !

- شرع الله يا أستاذ ، ينفع نعترض عليه ؟ ! (تساءلت إيمان)

خرج " مروان " من البيت تقوده قدماه إلى لا شيء ، وجد منتزه المدينة أمامه ، دخل ملقيا السلام على الحارس والذي لم يسمعه .
مر الوقت على " مروان " بطيئاً . كان قد أسند ظهره لشجرة عتيقة .
فكر في حياته بعد رحيل أمه ، كانت أمه هي كل دنياه . قالت له يوما : مش هاسيبك طول عمري .
ها هي على أبواب الرحيل ! اقترب منه طاعن في السن وخبط على كتفيه برفق :
- المغرب على أدان يا ابني .
انفلت مروان إلى المسجد . ارتفع صوت المؤذن (الله أكبر) منهيًا بذلك عناء يوم صوم ثقيل .
وحدها " إيمان " ترقب عودته . تأخر . ربما يكون قد أمَّهم في صلاة المغرب . ربما ربما ..
ولما لم يأت ؛ قامت من على المائدة ولم تفطر إلا على جرعات ماء .
هناك وقبل العشاء ؛ جاء
- كنت فين يا حبيبي ؟ (قالت بلهفة)
نحّى وجهه جانباً :
- أنا فطرت مع الإخوة في المسجد . (وقبل أن يغلق على نفسه باب حجرته) قال :
- على فكرة .. أنا أخبرت الأخ " عاطف " بأنك موافقه على .. على

زواجك من الشيخ حسن .
قال " مروان " الجملة الأخيرة وكأنه يحتضر .

****

[فاطمـــــة]

ما كان يخطر على بالها مثل هذه الزيجة وذاك المصير الذى أدى بها في نهاية المطاف أن تهرب إلى ذاتها تعتصم بها لاعقة جراحها التي ازدادت عمقاً بعد موت أمها ونيستها الوحيدة .
ما خلق الله " فاطمة " لزواج بائس من رجل بائس . في الليلة الأولى ؛ شعرت أن حكماً قد صدر من محكمة معتمة بلسان قاض أشبه ما يكون بالجلاد ، اصطحبتها إحدى خالاتها ونسوة من الجيران إلى غرفة بالبيت ومعهن برطمانات بها ما يزين العروس لعريسها . كانت المجربات من نسوة الجيران – أثناء التجهيز – يهمسن لها بطقوس الليلة الأولى ليلة الدخلة . كن لا يدركن أن فاطمة والقارئة للأدب العربي والغربي ما كانت تعوزها مثل هاتيك النصائح ، كانت " فاطمة" تحدق في حلمها الذي يحتضر وسيموت آخر اليوم بعد أن تنصرف أمها وخالتها يتبعنهما نسوة الجيران تاركينها وحيدة بين يدي ابن العمدة .
في هدأة الليلة الأولى من زواجها ؛ تأكدت من فشل ابن العمدة في فض بكارتها بالمرتخي بين فخذيه . ارتبك العريس خبأ وجهه عن " فاطمه " ذات العينين الكاشفتين الفاضحتين والشامتتين ، أخبر

والدته والتي سرعان ما همست في أذن العمدة . سرعان ما تحرك العمدة موتورا من فوق مقعده المفروش بجلد خروف . ألقى مبسم الشيشة من يده ونادى بأعلى صوته على الخادمة :

- بسرعة روحي هاتي الدايه " أم جابر " ، قولي لها : العمدة عايزك حالًا.

تكومت فاطمة فوق سريرها الوثير ، وأما العريس فقد راح يقاوم انكساره بزمجرات وسب ديك أم الليلة السوداء والزواج النحس .

فكرت " فاطمة " لو أنها تفتح الباب الآن وتطلق ساقيها للريح وللشوارع الطين المظلمة ، لكن ماذا سيقول والدها لها ؟ كيف سيستقبلها وهو الذي قد استراح بزواجها كيما يخلو له البيت ولحياته الجديدة ؟

تسمع " فاطمة " صوت الداية في باحة البيت :

- خير يا حضرة العمدة إيه اللي حصل ؟

- ادخلي يا " أم جابر " ، أم العريس هاتقول لك على اللي فيها (قال العمدة ساخرا)

زوجة العمدة سحبت الداية من يدها إلى داخل حجرة بالبيت الواسع . لحظات وخرجت الداية ووقْع أقدامها يقترب من فاطمة وعريسها الموتور . طرقت " أم جابر " باب الحجرة ففتح ابن العمدة الباب لتدخل وأمه والخادمة . الداية همست في أذن العروسة البائسة ؛ صرخت " فاطمة " كالملسوعة :

- لاااا .. مش ممكن .. إيه التخلف ده ؟! إنتو إيه .. مش بشر ؟!

وقتها ، تكاثرت الأيدي حولها ، انهزمت " فاطمة " وألجموا بأكفهم الغليظة فمها .

أقعدوها مجبرة على حصير مفروش على الأرض بجوار الحائط .
جردوها من قميص نومها الأحمر . بدا أسفلها واضحًا كنصف قمر حزين وسط غمامات لا ترحم .
- تعالى يا عريس (قالت الداية)
تقدم ابن العمدة . جلس بين وركي " فاطمة " المنتصبين بفعل الخادمة وأمه والداية التي كما أمرته ؛ مد إصبعه السبابة إلى داخل نصف قمر " فاطمة " الحزين فاهتزت قوائم بيت العمدة لصرختها .
انسال الدم من أسفلها كي تستقبله أم العريس وتوزعه على المحرمة .
في الصباح سيكون الدم دليلا قويا على فحولة ابنها ورجولته المهزومة !

الأيام التالية لاغتصابها الشرعي لم تكن إلا أكثر بؤساً ومرارة ! زوجها يسهر مع أصحابه حتى ساعات متأخرة من الليل كتلميذ خائب هارب من حصة الدرس ثم يعود مترنحًا لينام بجوارها متكوما بعد محاولات بائسة لإطفاء رغبة مكتومة داخل سور جسده المهزوم . جسد " فاطمة " تحول إلى ما يشبه الكشاف الذي يضيء كل يوم مساحة العار ليراها ابن العمدة في روحه كل ليلة حتى كره جسدها المثير والذي كان السبب الوحيد لزواجه منها .
أيام قليلة وطلبت فاطمة الزيارة الأولى والمرتقبة لبيت والدها . رحب زوجها بسرعة أدهشت العمدة وزوجته ، فالزيارة الأولى تكون عادة بعد سنة من الزواج .
ذات مساء دخلت فاطمة بيت أبيها . قرأ الشيخ " حسن " المكتوب على وجه ابنته الغائم : لا عودة ثانية لبيت ابن العمدة .

دخلت " فاطمة " حجرتها لأول مرة من زواجها ، راحت تحضن الأشياء في حجرتها بعشق صوفي ، الكراسي ، الطاولة ، صورة أمها ، الوسائد ، كتبها . ارتمت على سريرها ، تمرغت عليه : تنفست هواء الحجرة ، المذياع القديم المثبت بجوار النافذة لثمته - كأنها تعتذر منه - بعدما أزالت ما عليه من تراب . رأت نفسها كاملة في مرآة دولابها العتيق . رقصت بفرح أمام المرآة على أنغام أغنية لفريد تنبعث من راديو الجيران : ساعة بقرب الحبيب .. أحلى أمل في الحياة.

خطر على قلبها " مروان " ، سوف يتزوج والدها من والدته ، هي لاتمانع ؛ سيكون مروان أكثر قربًا منها ، ستراه كثيراً ، ستسلم عليه بيدها ، ستشم رائحة جسده ، الليلة سوف تستدعيه .

ستغمض عينيها وتحضن وسادتها . ستحاور " مروان " بجسدها .. ستفك عقد رغباتها .

ناداها والدها الشيخ كي تعد الشاي للضيوف الذين قدموا للتو .

غادرت حجرتها فرحةً ؛ لا شك أن " مروان " بينهم ، تلصصت على الضيوف من ثقب الباب . تفرست الوجوه مرتين ، لم يكن وجه مروان بينهم ؛ وجمت وجفل قلبها في مكانه ، تجشمت إعداد الشاي لضيوف ليس فيهم مروان .

في عالمها الموازي ترقد " فاطمة " على سريرها ملتحفة بنيران شهوتها ورغوة شبقها المستعر، تطفئ نور الحجرة كي يأتي المرغوب والمشتهى كيما يأتيها " مروان " ثائراً كالإعصار يتحسس جسدها الفائر ، تحضنه باشتهاء ، تكسر أضلاعه ، تمسح بجسده خلايا لحمها ،

يتعرق جسمها اللدن ، تتزايد أنفاسها المتلاحقة ، تفتح شفتيها الشهيتين المحرومتين لتستقبل قبلاته ، تفسح له مكانا بجوارها ، يرتمي عليها فتشعر بسخونة جسده المراهق ، تعلوه تارة وتتركه يعتليها تارة ، تتحرك أصابع قدميها وهي تحضن وسادتها وتتلوى بفعل الرغبة المندلقة كالحمم في دمها،تخرج من بين شفتيها آهات واهنة تذيب الصخر ، تضغط بإصبعها الوسطى أسفل بطنها ، تدفعه بالكامل إلى داخلها ، تطلب من " مروان " في تذلل وخضوع أن يواصل فعله المسكر ، تواصل هي دفع إصبعها دخولا وخروجا بقوة ، تزداد الحركة تتابعا ، يكاد قلبها ينط من بين ضلوعها ، صدرها المكتنز يعلو ويهبط ، تتلوى فوق سريرها العتيق ثم تصرخ من عمقها صرخة تفصل زمنها إلى عالمين مختلفين ، ينساب ماؤها الساخن من أسفلها ، يهدأ الجسد رويداً رويداً ، تفقد السيطرة على تحريك أعضاء جسدها الخائر،ينسحب العالم بعيدًا ثم تروح في ثبات عميق .

في الصباح ، دخلت المطبخ ، قامت بتسخين دلو من الماء ثم حملته إلى الحمام ، اغتسلت وصلت الصبح في حجرتها . جلست فوق سريرها مسترخية تتحسس بطنها وسؤال قفز ببالها جعلها تبتسم :

ماذا لو حبلت من " مروان " بطفل الحلم ؟!

****

- والله يا عاطف يا ابني أنا مش عارفه إيه اللي جرى لـ " مروان " اليومين دول ؟! (قالت إيمان)

كان " عاطف البرعي " قد افتقد " مروان " في مسجد [قاسم بيك] المعتاد أن يصلي فيه مروان مع الإخوان ، أكثر من أسبوع وهو يخرج للمدرسة ثم يعود ، يتناول الغذاء وحده ثم يقيل وبعدها يخبر أمه أنه ذاهب إلى المسجد . " مروان " لم يكن يذهب إلى المسجد الذي يتواجد فيه الشيخ حسن وجماعته ، كما أنه ما عاد يطيق الجلوس مع أمه .

- اتفضل يا عاطف يا ابني .. إنت زي مروان .. بيتك يا ابني . (قالت إيمان)

- بارك الله فيك يا خالتي – غاضا بصره إلى الأرض – سأبحث عنه ربما هو عند أحد الإخوة .

بعد أن انصرف عاطف ؛ أغلقت " إيمان " باب شقتها والحيرة تبدو واضحة على وجهها من أمرابنها الوحيد وتساؤلات تترى على رأسها : ترى ماذا حدث ؟ أين يذهب كل يوم ؟ ، حتى صديقه " عاطف " لم يره منذ فترة !

الذي لا تعرفه " إيمان و عاطف " أن " مروان " قد قرر منذ فترة أن يصلي في مسجد المحطة البعيد ؛ حتى لا يرى أحداً من جماعة الإخوان خاصة الشيخ حسن وعاطف .

أمام المسجد – مسجد المحطة – كان يجلس على كرسي خشبي وأمامه طاولة متوسطة الحجم . على الطاولة ؛ رصت بعناية ساعات رقمية وزجاجات عطور نظارات شمسية من النوع الرخيص .

لم يكن الجالس - بلحيته الكثة - خلف تلك الطاولة المرصوصة عليها تلك البضاعة سوى الأستاذ "سمير القماش " مدرس العربي والدين

لـ " مروان " في المرحلة الابتدائية والذي اختفى فترة خلف قضبان السجون . ها هو يجلس يبيع حاجياته أمام مسجد المحطة . الذي لفت نظر مرون أن الأستاذ " سمير القماش " لا يدخل المسجد لأداء الصلاة (؟ !) . أثار ذلك فضول " مروان "

الذي اقترب من أستاذه " سمير " ، لم يعره اهتماماً حيث كان مشغولًا بإزالة الأتربة من فوق بضاعته .

- هو هو .. لم يتغير كثيرا . شعرات بيضاء قليلة تزين سالفتيه وتجاعيد تكاد لا ترى إلا للمدقق علت سطح وجهه السمح – كعادته – والمبتسم دائما كعهدي به وأنا صغير . (قال مروان في نفسه)

تنحنح " مروان " بصوت مسموع :

- السلام عليكم يا أستاذنا .

تنبه " القماش " وكأنه بوغت :

- وعليكم السلام يا ابني . اتفضل ..أنا آسف ربما انشغلت عنك قليلا .. سا محني .

- لا ...أبدا يا أستاذنا .. (ثم تساءل مروان) حضرتك فاكرني ؟

تفرس الأستاذ "سمير القماش" في وجه مروان ثم قال معتذرا :

- زي بعضه يا ابني .. أنا مش فاكرك .

- أنا " مروان إبراهيم عبد العليم " يا أستاذنا .. فاكر لما حضرتك كنت بتخلليني أأذن للصلاة في مصلية المدرسة وكنت بتوزع علينا مصاحف وأقلام هدايا للي بيحفظ الآيات المقررة علينا ؟

- أهلا أهلا .. (وهو يسحب كرسيا صغيرا بجواره) اتفضل اقعد يا أستاذ مروان .

- شكرا يا أستاذنا .. أنا سعيد إني شفتك النهارده .. لكن حقيقي أنا عايز أقعد مع حضرتك ، بس مش هاينفع الآن ..عندي مشوار ولازم أقضيه . (قال مروان)

- براحتك يا أخ مروان ، لكن لازم ألتقي بك مرة تانيا .. ويا ريت تزورني في بيتي أفضل حتى تكون فرصة الحديث معاك أطول .

قدم " سمير " زجاجة من عطر المسك الأسود لمروان :

- دي هدية بسيطه .. اقبلها مني يا مروان .

******

في مساء اليوم التالي كان " مروان " جالسا مع الأستاذ " سمير القماش " ضيفا عنده في حجرة الجلوس المتواضعة بكنبها القديم وطاولتها العتيقة . كانت زوجته قد أعدت للعشاء طعاما بسيطا ، جبن وفول مدمس وبيض مسلوق وشرائح من الطماطم والخيار المملحان ، عندما ارتفع صوت أذان العشاء من المسجد المجاور لبيت سمير ؛ قال " مروان " متهللا :

- سوف نعيد ذكرى أيام الابتدائي يا أستاذنا ، سوف أقيم أنا الصلاة كما كنت أفعل زمان ، وأما حضرتك فتصلي بي إماما .

عندما أشار " القماش "بيده معتذرا ؛ بوغت " مروان " وهو يسمع :

- لا .. أنت يا مروان ستصلي وحدك إن أردت وأما أنا فسأصلي وحدي

أيضاً .

- لماذا يا شيخ ؟!

- سوف أحكي معك بعد قليل وسوف تعرف إجابة كل سؤال دار في رأسك منذ وجدتني خارج مسجد المحطة .
غاب " سمير " داخل البيت ثم عاد وطلب من مروان أن يتفضل للوضوء . دخل مروان الحمام وخرج ليقف أمام حوض قديم تعلوه حنفية نحاس عتيقة يقطر منها الماء . سمير وقف على مقربة منه وبيده منشفة ناولها لمروان لما أنهى وضوءه . في طريق العودة من حوض المياه إلى حجرة الجلوس كان مروان ينشف وجهه من ماء الوضوء . سمير ناول مروان سجادة الصلاة وقال :

- اتفضل يا مروان صل وحدك وأما أنا فسأصلي بعدك حتى لا يشوش أحدنا على الآخر !
جاءت صينية شاي من الداخل بين يدي طفل لم يتجاوز العاشرة . انصرف الطفل بعد أن ألقى السلام ، رد عليه " مروان " السلام بينما كان الشيخ " سمير " في التشهد الأخير من صلاة العشاء .
كان "مروان" في انتظار حديث أستاذه القديم والذي اعتدل قبالته بعد أن كان قد انتهى من أذكار ما بعد الصلاة .

سميــر القماش

في منتصف الستينيات وعندما كانت حملات القبض على أفراد جماعة الإخوان المسلمين قد اشتدت إثر قضية المفكر الإخواني " سيد قطب " بدأت قصة الأستاذ " سمير القماش " وكان ممن ضمتهم حملات الاعتقالات .

في سجن [مزرعة طره] قبع طالب بكلية الزراعة جامعة أسيوط وكانت تهمته أنه عضو في التنظيم الجديد الذي أسسه سيد قطب .

الطالب هذا كان " شكري أحمد مصطفى " والذي لاقى من فنون التعذيب ما لاقى هو وأقرانه وكان سمير القماش ممن لاقوا مثله تلك الفنون .

في العنبر الذي قبع فيه " سمير " كان " شكري مصطفى " رفيقًا له فيه . تحت آلة التعذيب الجهنمية انقسم الإخوان ساعتها إلى فريقين ، فريق يرى أنه لابد من تأييد [جمال عبد الناصر] حتى يتسنى لهم الخروج من السجن وممارسة الدعوة من جديد . وفريق يرى أنه لا بد من الصمود وعدم تأييد الطاغية مهما كان الثمن المدفوع .

تحت وطأة التعذيب كان شكري يتساءل ويرد على نفسه :

- لماذا يعذبوننا ؟
- لأننا مسلمون .

إذن هم كفار . ومن لم يكفر الكافر ؛ فهو كافر مثله .

حدث انشقاق فكري آخر ، تكفير " ناصر " لم يكن مشكلة ، المشكلة : أن " شكري أصدر فتواه بتكفير الإخوان ورأى أن أنهم خونة وعار على الإسلام وكان يوجه لقادتهم في سجن [طرة]

أقذع السباب والاتهامات ويقول لهم :
- من العار على المسلمين أن يُمسك بهم كالدجاج دون مقاومة . كنتم تكذبون على أنفسكم وعلى الناس عندما كنتم تقولون (الموت في سبيل الله أسمى أمانينا) .
لم يصغ " سمير " – وقتها – لكلام شكري مصطفى لأن الإخوان حذروه وغيره من كلامه ودعوته الخطأ . تم نقل " سمير " إلى سجن الواحات مع من تم نقلهم فما عاد يعرف شكري وجماعته شيئًا .
كانت نفس " شكري مصطفى " مضطرمة ومشتعلة بالثورة والحقد على المجتمع كله متأثراً في ذلك بآراء وأفكار الأستاذ " سيد قطب " والتي سجلها متفرقة في كتابه (في ظلال القرآن) ثم بعد ذلك في كتابه الأشهر (معالم في الطريق) . كان " شكري مصطفى " يريد أن يعلن الجهاد ضد العالم كله ومن ليس معه فهو من الكافرين ، ثم أطلق " شكري " على جماعته : (جماعة المسلمبن) وأما غيرهم فهم من الكفار كأبي لهب وأبي جهل حذوك النعل بالنعل .
راح الإخوان يحاصرون " شكري " وجماعته في زنزانته رقم 2 في مزرعة [طرة] ويحذرون السجناء من فكره المتطرف خاصة بعدما قام شكري في وجه مدير البوليس السياسي آنذاك قائلًا له :
- أنت كافر ورئيس مصر كافر ، وهؤلاء الإخوان الكاذبون إن لم يكفرونكم فهم مثلكم كفار .
انتقل شكري لأكثر من سجن وكانت تلك فرصته الذهبية كيما ينشر أفكاره ودعوته .
عندما جاء [السادات] و أفرج عن المسجونين من جماعة الإخوان ؛ توجه فصيل منهم إلى قصر عابدين ليدوِّنوا في سجل التشريفات

شكرهم للرئيس ، بينما اتجه " شكري مصطفى " إلى الصعيد لينشر فكرته ويبشر بالدين الجديد !

كثير من الشباب المتدين التفّ حول فكر " شكري " وكان من بينهم الأستاذ " سمير القماش " والذي غاب خلف القضبان الناصرية زمنا ، لكن أفكار " شكري " لم تصل إليه إلا هنا في مغاغة بعدما جلس معه شخصيا هنا في نفس الحجرة التي فيها الآن مع " مروان " !

سأل " مروان " أستاذة :

- من أجل هذا حضرتك لا تصلي معنا لأننا كفار ؟ !

ابتسم " سمير القماش " مخففا من حدة السؤال وقال :

- نحن – جماعة المسلمين – لا نكفر شخصًا بعينه لأننا لا نكفر بالتعيين أو التخصيص . نحن نرى أن هذا المجتمع جاهلي ولا يجوز أن نصلي معه أو أن نتزوج منه ، نحن نقوم بعرض الإسلام على شخص ما فإذا ما رفض ما عرضناه عليه ؛ فهو كافر . أما قبل أن نعرض عليه الأسلام فنحن نتوقف فيه حتى نتبين منه . وها أنا يا أخ " مروان " أعرض عليك بداية كتاب [معالم في الطريق] كي تقرأه جيدًا ثم نجلس سويا نتناقش حول ما فهمت منه .

همّ الأستاذ " سمير " أن يناول " مروان " الكتاب ؛ غير أن الأخير امتنع معللا ذلك بأنه يمتلك نسخة من كتاب المعالم في مكتبة بيته الصغيرة .

قال سمير :

- على بركة الله . فلتقرأ الكتاب جيدًا مرة ثم نكمل ما بدأناه أغلق " مروان " على نفسه باب حجرته والتي توجد بها مكتبة تحوي كتبا

أغلبها دينية . بحث عن كتاب " معالم في الطريق " فلم يجده ، تذكر أن الكتاب موجود فوق دولاب أمه وكان قد دسه هناك إثر تحذير من " عاطف " لأن البوليس ربما يفتش بيوت شباب الإخوان ووجود مثل هذا الكتاب ربما يعرض صاحبه لكارثة . استأذن " مروان " أمه ثم أحضر كرسياً يقف عليه ليتمكن من رؤية سطح الدولاب

اصطدمت يده بحقيبة من القماش . أمسك بالحقيبة وألقى بها على الأرض ثم واصل البحث عن الكتاب الذي وجده أخيراً في زاوية بعيدة بين الدولاب والحائط . نزل " مروان "وتفحص الحقيبة المصنوعة يدويا من قماش الكتان . أزال ما على الحقيبة من تراب قديم . تحسسها بيديه . تأكد أن الذي بداخلها أوراق . ربما كتاب مقطعة أوراقه . ربما دفتر كبير نفرت منه أوراقه بفعل التنقلات عبر سنين . سعل بفعل التراب الناعم الذي استنشقه . تنبهت أمه لسعاله المتواصل

توجهت ناحيته مستفسرة بقلق الأم :

- إيه اللي حصل يا حبيبي ؟

وهو يشير إلى الحقيبة المتكومة على الأرض

- إيه ده يا أمي ؟ الحقيبة دي فيها إيه ؟

اربدّ وجه " إيمان " وبحركة سريعة خطفت من تحت قدميه الحقيبة القماش العتيقة ثم أردفت بصوت يهدر منه الغضب:

- أنا حذرتك زمان من الحقيبة دي (ثم وهي تهدئ من صوتها) دي حاجات خاصة بعمك أحمد وجدك وأبوك – الله يرحمهم – موصييني إن ما أفتحش الحاجات دي خالص .

اقتربت من مروان قليلا وقالت : وبعدين إنت بتتدور على كتاب ، مالك إنت ومال الحقيبة دي ؟!

كان " مروان " قد وجد كتاب المعالم ، غير أن سؤالاً نبع الآن من داخله : ترى ما الذي بداخل تلك الحقيبة القديمة ؟ ما السر الذي تكتمه تلك القماشة المخيطة باليد ؟

تناول مروان متعلقات عمه " أحمد " ووضعها مكانها فوق الدولاب على أن يعود إليها خلسة .

توجه " مروان " إلى المطبخ ليعد فنجانا من القهوة يساعده على السهر مع كتاب المعالم والذي حسب توصية الأستاذ " سمير " له لا بد ان يقرأه بتركيز . كان " مروان " قد قرأ الكتاب من قبل بطلب من الشيخ الإخواني " حسن يوسف " .

- بتعمل إيه عندك في المطبخ يا مروان ؟ (جاء صوت أمه متسائلًا من حجرتها)

- باعمل فنجان قهوة .

- طيب ما أنا موجوده يا حبيبي واطلب مني اللي إنت عايزه (قالت إيمان)

رد عليها " مروان " :

- لازم أتعود على خدمة نفسي بنفسي من الآن !

- يا مروان يا ابني : أرجوك ما تلسوعنيش بالكلام ده ، أنا فاهمه

قصدك كويس ، وبعدين أنا مش هاسيبك غير لما تتجوز وتكون مراتك معاك . (قالت إيمان ثم خرجت من حجرتها لتدخل عليه المطبخ مغيرة من نبرة صوتها مبتسمة في حذر :

- فاطمه سألت عليك النهارده .

- فاطمه ؟ ! طيب وإنت شوفتيها فين ؟ (تساءل مروان)

- هاكون شوفتها فين يعني ؟! أكيد في المسجد ، وبصراحه بقى ، هي بنت حلال وكمان حظها في الجوازه بتاعتها من ابن العمده مش حلو خالص .. مسكينه والله , ولعلمك يا مروان شكلها بتحبك .

(قالت إيمان) ليرد عليها مروان :

- فاطمة " ضحية ظروف غبية .. ربنا معاها .

ترك " مروان " المطبخ لأمه على أن تواتيه بالقهوة فور جهوزيتها ثم دخل غرفته وراح يقرأ كأنه يذاكر للإمتحان .

دخلت أمه ووضعت فنجان القهوة بجواره . كان انهماكه في القراءة كبيرًا فلم يشعر بأمه وهي تدخل أو وهي تخرج . شدت انتباهه فقرة في الكتاب راح يدونها في كراسة . كانت الفقرة عبارة عن تساؤل من " سيد قطب " ,, تساؤل من المؤلف وإجابة على التساؤل من المؤلف أيضا :

[.. فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامي ؟ .. إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة ، وتمضي في الطريق ، تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعاً ، تمضي وهي تزاول نوعاً من العزلة من جانب ، ونوعا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة] .

هذا الصباح استيقظ " مروان " دون أن يوقظه أحد ، لم يجد أمه بالبيت ، وجد رغيفا وبيضا مسلوقا وقطعة جبن في الثلاجة ، وضع الرغيف لوقت على نار البوتاجاز ووضع براد الشاي على العين الأخرى . صنع لنفسه فنجان شاي . تناول لقمة الفطار وازدرد الشاي وهو جالس في البلكونة ، لمح قسيسا يمر في الشارع أسفله بصحبة امرأة جميلة متوسطة الطول . قطب جبينه واستعاذ بالله
من الكفار . وجّه بصره في الاتجاه المعاكس ، طار العبوس من فوق جبينه ؛ كانت " فاطمة " قادمة من بعيد تخطو كغزال بري وبصحبتها بنت يعرف أنها من بنات جيرانها . جال بخاطره أن " فاطمة " قد صارت امرأة ، هذه البنت اللدنة والمدهشة كحليب الصباح أصبحت امرأة مُخترَقة ، لما اقتربت أكثر ؛ بدت كأنها ما زالت كما هي رائعة ومثيرة ، تغيرت مشيتها قليلا ، صارت أكثر جرأة من ذي قبل .
الحجاب الذي ترتديه يضيف لها إغراء . جسدها الفارع الممشوق والمُخبَّأ تحت ثيابها الواسعة يكاد يصرخ في الطرقات . ثوبها السميك لم يستطع كبح جماح ناهديها المتكورين
والقابعين كثمرتين من الفاكهة نضجتا الآن . لما صارت " فاطمة " بمحاذاة البلكونة ؛ همّ " مروان" أن يناديها كيما تصعد إليه .

عدم وجود أمه في الشقة جعله يتراجع عن تلك الفكرة . تابعها وهي تختال في الشارع بمشيتها تلك . هذه مشية يبغضها الله ، لكن مروان لم يستطع أن يخفي إعجابه بمشيتها المثيرة . تابعها بناظريه وربما بقلبه حتى اختفت . كاد فنجان الشاي يسقط من يده إلى الشارع ، أمسك الفنجان بالكاد محاولا أن يتماسك هو .

الليلة سوف يلتقي " مروان " بالأستاذ " سمير القماش " . كان قد قام بتدوين بعض فقرات من كتاب المعالم وبعض الأسئلة كي يطرحها على " القماش " . جلس يراجع ما دوّنه ، كان يعود إلى المصحف أحيانا ليتثبت من بعض الآيات ثم يعود إلى كتاب التفسير لابن كثير . تذكر حقيبة القماش الخاصة بعمه " أحمد " وما تحويه من أوراق أو ربما دفتر مذكرات ، فكر بأن يسحب الحقيبة ويفرغ ما فيها خاصة أن أمه بالخارج . تراجع أخيرا وقال في نفسه :

- ليس هذا وقته .

قبل أذان الظهر عادت " إيمان " تحمل في يدها شنطة كبيرة بها تسويقة اليوم ، لحمة وطماطم وخضار وتموين الشهر من أرز وسكر وزيت . حمل " مروان " عنها ما تحمله .

- إنت صحيت من النوم يا حبيبي ؟ (تساءلت إيمان)

- آه .. وفطرت كمان وشربت الشاي وشفت فاطمه . (اندهشت إيمان لعبارته الأخيرة وسألته مبتسمة) :

- شفت فاطمه فين ؟

- كانت ماشيه في الشارع بالصدفة وأنا كنت في البلكونة .

وهي تضع ما اشترته من السوق في الثلاجة قالت :

- طالما جبت سيرة فاطمة أنا عايزاك تفضي لي نفسك شوية أتكلم معاك .

سحبته من يده بعدما فرغت من ترتيب المطبخ ودلفت به إلى غرفته . جلسا سويا بمواجهة بعضهما البعض ، ثم قالت :

- اسمع يا مروان .. فاطمه بتعزّك كتير وأنا شايفه ده في عنيها وكلامها عنك وهي بتسأل عليك .

همّ " مروان " بمقاطعتها غير أنها أشارت إليه بيدها :
- أرجوك ما تقاطعنيش (ثم أردفت) : أنا شايفه يا ابني إنها أفضل واحدة تصلح كزوجه صالحه وتراعيك من بعدي .
- لكن فاطمه ظروفها مختلفه ، وكمان أنا ما ينفعش أفكر فيها حتى !
اكتشف " مروان " أنه يكذب . منذ قليل كان يتابعها بكل كيانه في الطريق حتى غابت عن عينيه وكلما جنّ عليه الليل يستدعيها في فراش نومه ثم يعاشرها .
قالت أمه :
- كلامك صحيح يا ابني ، لكن اعتبر إن فاطمة اتطلقت من جوزها خلاص .. أنا متأكده من كده .
- طيب .. سيبيني أفكر .
- أنا مش عايزه منك رد دلوقتي .. براحتك .. خد وقتك في التفكير .. بس خليك فاكر كويس إن أنا عايزاها لك .

اندهشت " إيمان " وهي ترى " مروان " وقد توضأ وسحب سجادة الصلاة ليصلي في حجرته الظهربدلا من الذهاب إلى المسجد .
- هو عادة يصلي الصلاة جماعة في المسجد .. إيه اللي جرى له ؟! (سألت إيمان نفسها)

لما أن انتهى من صلاته ؛ سألته غير أنه طلب منها أن تؤجل سؤالها على أن يجيبها في مرة أخرى ولما ألحت إيمان عن سبب صلاته هنا قال لها : عندي ظروف تمنعني من الصلاة في الجامع وسأحكيها لك في وقت تاني .
استجابت " إيمان " لطلبه رغم عدم اقتناعها بتأجيل الرد ثم قامت تجهز طعام الغداء .

في الليل والناس خروج من المساجد بعد أن كانوا قد أدوا صلاة العشاء ، كان " مروان " يزرع الطريق بقدمين واثقتين إلى بيت " سمير القماش " . ما إن وصل حتى زكمته رائحة الاطعمة المختلفة والمنبعثة من بيوت الجيران . طرق " مروان " الباب مرة ومرة وقبل أن يرفع يده للطرقة الثالثة ؛ انفتح الباب إلى الداخل كاشفا عن سيدة منتقبة ، سوف يعرف " مروان " من صوتها أنها في مقتبل سن المراهقة :
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (قالت المنتقبة)
دار في خلد " مروان " أنها ربما تكون ابنته من المرأة الأولى والتي كما حدثه في اللقاء الفائت أنها رفضت الانخراط في جماعة المسلمين ومن ثم أصبحت كافرة ولذا فتطليقها واجب !
- أنا مروان ، هل الأستاذ " سمير " موجود ؟
ارتبكت المنتقبة . نظرت خلفها ثم قالت :
- نعم .. موجود .. بس هو في الحمام .
ثم أضافت : لحظه من فضلك أبلغه بحضورك .
ظل " مروان " مزروعاً بالباب حتى جاء صوت " سمير " من الداخل :

- اتفضل يا أستاذ مروان ، البيت بيتك .
ما أن اجتاز " مروان " عتبة البيت إلى الداخل حتى استقبله " سمير " وهو يكمل ارتداء جلبابه والماء يتقاطر من شعر لحيته الكثة .
اصطحبه " القماش " - مرحبا به – إلى حجرة الجلوس .
على أريكة قديمة جلس مروان ثم استأذنه القماش للحظات . ليس بحجرة " سمير " ما يلفت الأنظار ، كل ما فيها من أساس قديم . لا توجد صورة على الحائط لقريب أو صديق . فقط مصحف قديم وبعض ملزمات تشبه مذكرات تعليمية . لما فتح " مروان " إحداها وجدها مكتوبة باليد بخط النسخ الجميل . ظن أنها ربما تكون مذكرات مدرسية تخص ابنة سمير المنتقبة . عاد سمير وبيده صينية فوقها كوبان كبيران من عصير الليمون المصنوع يدويا . وضع سمير الصينية فوق طاولة أمام الضيف ثم جلس قبالته مرحبا به مرة أخرى بابتسامته المعهودة منذ الابتدائية .
- هيه يا أخ مروان ، ما أخبار المعالم ؟
كان " سمير " يقصد كتاب [معالم في الطريق]
قال مروان :
- بخير يا أستاذنا والحمد لله . ذاكرته جيدا .
- وما هي انطباعاتك على المعالم ؟
- شوف يا أستاذنا .. أنا قرأت الكتاب هذا أكثر من مرة في الماضي ، الغريبة أن هذه المرة كأنني أقرؤه لأول مرة ! (ثم استطرد مروان بلهجة المكتشف) لقد لفت نظري إلى حقيقة كانت غائبة عن عقلي وروحي تمامًا .

راح مروان يحكي للشيخ " سمير القماش " عن حقيقة خطيرة يطرحها الأستاذ (سيد قطب) في كتابه الخطير والمهم وهي " غياب المجتمع المسلم الآن " وأنه لا بد – أولاً – من عودة للإسلام قبل المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية ، فالمجتمع الذي نحياه الآن هو مجتمع جاهلي وجاهلية هذا الزمان هي أعقد بكثير من جاهلية ما قبل الإسلام ؛ فالنبي " محمد " واجه جاهلية بسيطة متهاوية ، أما جاهلية القرن العشرين فهي جاهلية معقدة تعتمد على علوم العصر وفلسفاته. كما أن المساجد هذه ما هي إلا معابد كمعابد الكفار يجب تجنبها . كما أنه يجب علينا أن نمارس عزلة شعورية عن هذا المجتمع الذي نعيشه حتى يتسنى لنا أن نتربى على الإسلام كما هو واضح بين دفتي المصحف الشريف .

بدت علامات السرور على وجه " سمير " وهو يستمع لـ " مروان " وإدراكه لحقيقة الأمر ثم قال له : اسمع يا أخ مروان ، يجب أن تنعزل عن هذا المجتمع الذي أنت وأنا منغمسين فيه ونتجنب عقائده الباطلة كما فعل النبي محمد .

قال مروان متسائلًا :

- كيف أفعل ذلك ؟ وماذا أصنع ؟ إن الجماعات الدينية وكما تعرف ليست قليلة ومصادر الدعوة كثيرة، فهناك الأزهر وهناك الأوقاف والجماعات الإسلامية والإخوان المسلمين كبرى الحركات الدينية الموجودة على الساحة ، وهناك علماء السعودية . ماذا أفعل ؟! وكيف أميز بينهم وكلهم يرفع راية القرآن ؟!

- اعرف الحق ؛ تعرف أهله . (أجاب سمير ثم أضاف) :

- القرآن وسنة الرسول الصحيحة - القولية منها والفعلية والتقريرية - هي فقط البوصلة

والمعالم على الطريق الحق .
وكيف أعرف الحق ؟
- كما قلت لك ، الحق واحد . النور واحد . الظلمات كثيرة (ثم تلا) : " كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور " .
تناول " سمير " من جواره مذكرة بيده ورفعها أمام وجه " مروان " وقال في ثقة :
- هذه مذكرة كتبها أمير المسلمين في هذا الزمان إنه الشيخ [شكري مصطفى] واسمها كما هو واضح (التوسمات) وسوف تحملها معك إلى بيتك وتخفيها عن أمك وأصحابك وتقرؤها بدقة وهي سوف تقودك إلى الإسلام الصحيح .
تناول " مروان " المذكرة – والتي كان يظنها خاصة بابنته المنتقية - من يد القماش ثم وضعها بجواره . جاء صوت أنثوي نفس الصوت الذي فتح صاحبه الباب :
- العشاء يا شيخ .
قال سمير لـ مروان :
- سوف نتناول العشاء الآن ونكمل الحديث .
- أين ابنك الذي كان معنا المرة الفائتة ؟ (تساءل مروان)
- ليس ابني ، هو ابن أختي وكان هنا مع والدته في زيارة لنا .
علق مروان قائلًا :

- إذن بنتك هي من جهزت لنا العشاء ؟
ضحك الشيخ " سمير " ثم قال :
- لا .. دي مراتي يا أخ مروان . إنها زوجتي الثانية .
تاركا حيرة ودهشة على وجه مروان انصرف سمير لإحضار الطعام .
- مراته ؟! كنت فاكر إنها بنته ! (لنفسه قال مروان)
غاب سمير قليلا ثم عاد يحمل بين يديه صينية الطعام الكبيرة .
وهما يتناولان الطعام ، حكى " سمير " لضيفه قصة زواجه الثاني من السيدة المنتقبة والتي فتحت له الباب ظانا أنها بنت سمير . كانت المسافة العمرية بين صوت الأستاذ وبين زوجته المنتقبة كبيرة
لا يعرف " مروان " لماذا خطرت " فاطمة " على باله الآن ؟!
عرف " مروان " أن أستاذه تزوج من بنت أحد المسلمين في الجماعة والذي تمتد أرومته إلى إحدى القبائل الليبية حيث هاجر أجدادها في عصر جهاد عمر المختار ضد الطليان .
سأل " مروان " أستاذه :
- وما موقفك يا أستاذ من جماعة " الإخوان المسلمين " ؟
- إنها جماعة منافقة ، تهادن الدولة وتعتمد سياسة التجميع دأبها كدأب الأحزاب السياسية (يدفع سمير لقمة في فمه ثم يواصل)

- ألا ترى يا مروان أنك إنك إن دخنت السجائر وتركت شعيرة مثل اللحية والسواك لكنك كنت تتحدث عن [حسن البنا] باحترام وتبجيل وتذكر اسمه مسبوقا بكلمة(الشهيد) أو الملهم الموهوب؛ فأنت عندهم مصدر ثقة وأمان ، لكنك إن لم توقر مرشدهم الحالي أو السابق ؛ فأنت إذن من المطرودين من رحمتهم !

- صحيح .. أنا كنت ألاحظ هذا .. هم يقدسون الأشخاص خاصة حسن البنا .

واصل الشيخ سمير كلامه :

- عليك أن تحذر من جماعة الإخوان ؛ فهم مرقوا من الدين كما مرق السهم من الرمية ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم ، يهادنون أهل الكفر ويبغضوننا نحن أهل الإسلام . اقترب سمير من مروان ليشعره بأن الكلام الآتي خطير :

- إنت ما عرفتش الصفقة اللي عملها كبيرهم هنا في مغاغة ؟

- وما هي تلك الصفقة ؟

لقد زوج ابنته الوحيدة من ابن عمدة قرية الشيخ أحمد .

أتعرف لماذا يا مروان ؟

(يكمل الشيخ سمير) :

- التعليمات الإخوانية . إنهم يتقربون لرجال الدولة والأعيان في القرى والمدن من أجل الاستعداد لدخول البرلمان . (يكمل سمير بعد رشفة من ماء) :

- تصور يا أخ مروان ، رجال الدعوة والدين يدخلون مجالس الكفر

فجأة اهتز البيت على خبط قوي يصم الآذان على باب وشباك بيت الشيخ سميرالقماش وأصوات الجيران محذرة في تتابع :

- اهرب يا شيخ سمير .. اهرب بسرعة ، الحكومة جايه تقبض عليك .

كانت جماعة المسلمين أو كما تطلق عليهم الدولة جماعة [التكفير والهجرة] قد قامت بخطف الشيخ (الذهبي) وزير الأوقاف ثم قتلته . لم يكن سمير - وهو قيادي في الجماعة - يعرف شيئاً عن ذلك وإلا لكان قد احتاط لنفسه !

عندما دوت سيارة البوليس وحاصرت بيت " القماش " اندلق الخوف في شرايين مروان بينما كان القماش رابط الجأش ثابتاً ممسكاً بيد " مروان " قائلًا له :

- لا تخف أنا هاتصرف الآن .

دخل الشيخ " القماش " حجرة نومه ثم عاد مسرعا وبيده ثوب حريمي ونقاب ناولهما مروان ثم آمراً إياه بارتدائهما على أن يظل بالبيت مع زوجته الصغيرة . ارتدى مروان العباءة الحريمي السوداء اللون فوق ملابسه ، القماش ساعده على ارتداء النقاب ثم سحبه للداخل . أمر زوجته أن تبقى ثابتة الجأش حتى لا ينكشف أمر مروان .

- أما أنا فسأهرب إلى أعلى السطوح وتكون سطوح الجيران مَعْبَرا لي إلى الشارع البعيد . (قال سمير) ثم انطلق إلى أعلى عبر سلم حجري قديم داخل البيت .

أحد رجال البوليس شاهد شبحا فوق السطح فأشار لزملائه ناحيته . انسحب جزء كبير ملتفين حول المكان كيما لايهرب منهم الشيخ . جزء منهم داهم البيت ولما لم يجدوا غير امرأتين منتقبتين عادوا غير

معتذرين . خرج " مروان " بزيه الجديد إلى حجرة الجلوس . ساد المكان صمت مشوب بالخوف والترقب . لم تمض ساعة إلا وتأكد مروان من حديث الجيران بالخارج أن الشيخ " سمير "
قد سقط في أيديهم .

بعينين قلقتين من خلف شيش النافذة نظر " مروان " بعينين قلقتين ليعرف هل الطريق آمن كيما يخرج . وجد شرطياً وحيدًا قبالة النافذة في تحفز وبيده سلاحه الآلي وبجواره دراجة بخارية بيضاء اللون .
ازداد القلق . تعرَّق وجهه خلف النقاب الذي لم ينزعه حتى اللحظة بعد أن قبضوا على " سمير " وهو يجري في شارع بعيد بعد أن كان قد قفز من فوق أحد السطوح الواطئة .
سمع حركة ربما كانت من داخل المطبخ . همّ أن ينادي على زوجة " سمير " التي لا يعرف لها اسماً أو كنية ، مات الصوت في حلقه عندما تذكر أن الشرطي الوقف هناك ربما يسمعه . قبع على أريكة في حجرة الجلوس وبصعوبة بالغة تذكر أن أمه ربما تفتقده الآن .
- يأخ " مروان " . (قالت زوجة سمير) جاء الصوت من صالة البيت . تحرك هو كي يكون قريبا من صاحبة الصوت حتى لا يسمعه الشرطي المزروع بالخارج . لما اقترب منها قال بصوت يكاد يكون مسموعاً :
- نعم يا اختي .. أنا هنا ما تخافيش .
- قالت :
- أنا مش خايفه ، أنا معتاده على المواقف دي كتير .
ثم استطردت : أنا باحضر لك مشروب .

- لا .. أرجوكي .. أنا عايز أمشي .. بس منتظر ...
قاطعته :

-لا .. أنا اللي بأرجوك .. ما ينفعشي تمشي وتتركني وحدي في الليل ده ... أرجوك .

كانت كلمة (أرجوك) التي خرجت من لسانها كفيلة وحدها بأن ينسف مروان أية فكرة لمغادرة بيت سمير الآن .

في منتصف الصالة اقترب " مروان " منها . كالشبح بدت واقفة . أطراف أصابعها فقط تظهر منها ، ابتدأ هو في نزع النقاب من على وجهه ولما تعثر اقتربت منه تساعده في نزعه . كانت أطراف أصابعها تلامس عن غير قصد – ربما – وجهه المعروق . تراجع قليلا إلى الوراء بعد أن كانت قد نزعت عنه النقاب كاملا ليبدو لها وجهه مغسولا بالعرق . قالت – آمرة إياه ومشيرة إلى حجرة النوم - : اتفضل اقعد هنا في حجرة النوم لأنك أصبحت مكشوف الوجه وربما يراك أحدهم – لو نظر- من خلف النافذة . كانت زوجة " سمير " تكذب ؛ فهي تدرك أن أحدا لا يستطيع أن يلمح الجالس بالداخل والنافذة محكمة الغلق والحجرة معتمة غير أنها كانت تريد أن تتحدث معه بعيدًا عن حجرة الجلوس القريبة من الشارع وآذان المارة .

- أقول لك على فكره ؟ (أكملت دونما انتظار رده) تعالى معايا المطبخ علشان تساعدني .

على استحياء تحرك " مروان " في إثرها . وقفت هي تواجه حوض الغسيل فب المطبخ . كان الحوض ممتلئاً بأكواب وصحون غير نظيفة .

رفعت عن وجهها . كان ظهرها المواجه له . طلبت منه أن يشعل عين البوتاجاز الصغيرة ثم يعد فنجانين من القهوة . بحث " مروان " عن كنكة القهوة بعينيه فلم يجدها . ناولته الكنكة والتي كانت أمامها في الحوض دونما أن تلتفت إليه

صب الماء في الكنكة ووضع السكر ناسيا البُنَّ . طلبت منه أن يبحث عن برطمان البُنِّ هناك ، كانت قد أنهت ما بيدها من غسيل . التفتت إليه . كان ظهره في مواجهتها يبحث عن البن .

- هل تستطيع أن تصنع القهوة كما يصنعها البدو ؟

أجابها وهو يحرك البن والسكربملعقة صغيرة :

- ممكن .. بس أكيد مش زي قهوة حضرتك طبعا (قال مروان) وقبل أن يلتفت ناحيتها كانت قد أسدلت النقاب على وجهها بسرعة المتمرنة . أفسح لها المكان لتكمل هي عمل القهوةثم سألها :

- حضرتك مش قلقانه على الأستاذ " سمير " ؟!

- لا .. أنا متعودده زي ما قلت لك .. متعوده على كده من زمان (ثم أكملت وهي تتابع القهوة):

- وبعدين يومين وهايرجع .. ما تقلقش .(ثم سألته) :

- إنت خايف يا أخ مروان ؟

أجاب دونما تردد : طبعاً انا خايف وكمان مرعوب .. أصل أول مرة أتعرض لموقف زي ده (لم ير ضحكتها خلف النقاب من كلمته الأخيرة) وأضاف : وبصراحة انا ابتديت أخاف عليكي ، أصل شكلك غريبه هنا عن الناس .

وجد " مروان " نفسه في موقف أشبه باختبار قاس ومربك في حجرة النوم هو وفتاة ربما تقارنه في العمر .. فتاة كأنها فتاة القَدَر ، وحده

معها والليل والسكون والترقب الحذر وشرطي خارج البيت ربما نسيه قائده ولم يصدر له أمرا بالانصراف فظل مزروعا مكانه يمنع عليه الخروج !

الخوف تحرك قليلا عن قلب " مروان " . الثقة الساكنة صوت المنتقبة منحته قدرًا من الطمأنينة وكأنها كانت تقرأ ما يتمناه مروان ؛ فجأة رفعت النقاب عن وجهها الذي بدا قمراً ولد الآن بعد أزمنة من العتمة . وجه مبتسم . دقيق التقاسيم وبريء كالحلم , وجه مدهش كمطر الصيف . أحس كأن النجوم سقطت فوق رأسه . طارت حوائط الحجرة . كل الحوائط طارت بعيدًا

سقف الحجرة اختفى . صار مروان يواجه الآن النور في فضاء الكون . كانت هي سعيدة وهي ترى على وجهه الانبهار وهو يحدق في وجهها مأخوذا به كأن أحداً لم يشاهدها من قبل وكأن مروان الرحالة المكتشف لحجم جمال وجهها المباغت والمهاجم كنمرأسيوي . مرّ زمن وهي تناديه .. استفاق أخيراً على صوتها الذي كأنما يسمعه لأول مرة . العلاقة بين صوتها

ووجهها متناغمان ومتزنان . كان سؤاله لها ساذجا وبريئا :

- حضرتك مين بالضبط يا أختي الكريمه ؟

افترّ وجهها عن ابتسامة لمست روحه ثم راحت تحكي له مجيبة عن سؤاله بعدما تأكدت أنها لن تقض الليل وحدها :

- أنا " رقية عبد الوهاب المطراوي " .. من عرب محافظة البحيرة .. عمري الآن 23 سنة أنا من مواليد 16 يوليو 1954 . أنا حاصلة على الثانوية العامة دون علم والدي والذي كان مغيباً خلف قضبان السجون (وهي ترشف الرشفة الثانية من فنجان قهوتها) لما خرج

والدي كنت قد التحقت بكلية الآداب / قسم الفلسفة بنظام الانتساب ؛ لأن أخوالي رفضوا ذهابي لجامعة القاهرة .. انتسبت للجامعة لأن أهلي لا يتركون البنات تتعلم حتى سن كبيرة . كانت ظروفي أفضل
، حيث أن أحد أخوالي كان طبيباً ومثقفًا ومتمردًا على التقاليد القديمة للعائلة . خالي الطبيب هو اللي شجعني ووقف معايا حتى أتممت تعليمي الجامعي .

طلب " مروان " من " رقية " أن تنزل النقاب ثانية على وجهها . ضحكت غير أنها استجابت .غاب وجهها مرة أخرى خلف النقاب الأسود لكنها تنوي أن ترفعه ثانية عن وجهها في اللحظة التي تسمح . استراح " مروان " قليلا وهدأت نفسه لما عادت " رقية " كسيرتها الأولى منتقية . ثم واصلت حكاياتها .
عرف مروان أن رقية واصلت دراستها بتفوق واقتدار . حصلت على الليسانس في الفلسفة بتقدير امتياز مما جعلها أسعد البنات في عائلتها وربما في جيلها . خرج والدها من السجن الحربي ليجدها تنوي مواصلة دراستها للماجستير ليستدعيها عارضا عليها الزواج من أحد المسلمين الطيبين في الجماعة . كان هذا المسلم الطيب هو " سمير " . جاهدت " رقية " مستعينة بخالها الطبيب المثقف كيما يساعدها في رفضها الزواج الآن غير أن مجاهدتها باءت بالفشل أمام إصرار والدها . تقول وهي تتنهد : اقترنت بـ " سمير " لأصبح زوجة لرجل متدين طيب لكنه يكبرني بأعوام طوال .
اختبأت " رقية " خلف النقاب وخلف سمير بثقافتها وفلسفتها

لتصبح زوجة لرجل لا يعترف بالعلم خاصة الفلسفة التي تؤدي إلى الكفر بالله !

في هدأة الليل وعتمته التي لفت المكان وأحالته إلى عماء تام ؛ كانت " رقية " ترفع – مرة أخرى – النقاب عن وجه بدا كالسراج الوهاج الذي بدّد قطع الليل البهيم . فغر " مروان " فمه مأخوذا للمرة الثانية بجمال قفز إلى روحه فأسرها . تسارعت دقات قلبه . افتر ثغرها عن ابتسامة عريضة . استأذنته على أن تعود ثانية بعد دقائق . تساءل " مروان " في سكون نفسه حول معقولية مثل هذا الجمال المحاصر هنا مع الأستاذ سمير .

عندما عادت " رقية " كانت قد ارتدت عباءة ضيقة بلون أزرق صارخ . أفصحت العباءة الضيقة عن جسم كأنه قد صنع من الخيزران . برز نهدها كقائد روماني لو يأمر فإنه يطاع على الفور . تمايلت وهي تجلس أمامه كأنها قد خُلِقت الآن مكتملة ومثيرة . لما أن وقعت عيناه على عينيها ؛ أحس بروحه تنتفض . كانت وكأنها تنظر إلى داخله وتكشفه بعينيها الشقيتين والذكيتين . شعر أنه مكشوف ومحاصر تماما أمام عينيها المخترقتين . توغلت بناظريها إلى داخل أحشائه

كانت كأنها ترى كرات دمه البيضاء والحمراء وقد استحالتا إلى سائل آخر . حاول يائساً أن يهرب من من عينيها فوجّه بصره بعيدا لتمد هي يدها البيضاء والرقيقة إلى وجهه لتعيد عينيه إلى مواجهتها . أفسحا بخرسهما مكانا للسكون الأزلي . تكلمت خلاياهما محدثة ضجيجا يصم الآذان ومفصحة عن رغبات مكبوتة . تكلمت أخيرا وسألته :

- هل تحب الرقص أكثر أم الغناء ؟ !

بهت " مروان " للسؤال المباغت وقال :

- لا (متجهمًا) أعوز بالله .. الرقص ؟ لا لا (ثم وهو يغير من نبرة صوته) : مرة سمعت أغنية لـ [عبد الحليم حافظ] أعجبتني ولكني كتمت الأمر ... ومرة واحده – بصراحة – شفت " فاطمه" وهي بترقص – مستدركًا – بس ده كان في الحلم والله .

سألته وهي تبتسم ابتسامة ماكره :

- فاطمه مين ؟

- بنت الشيخ " حسن يوسف "

- آآه .. أنا عارفاها .. صديقتي .

بدت علامة تعجب على وجه " مروان " وسألها متعجبا :

- صديقتك ؟!

- آآه .. فاطمه صاحبتي وبتزورني هنا .. لكن من فترة ما شفتهاش .. تقريبا من بعد قصة طلاقها من جوزها (أكملت مستطردة) : إنت عارف إن " سمير " بينتمي لجماعة مختلفة عن جماعة والد فاطمة (ثم وهي تقترب من مروان قالت) :

- المهم .. خللينا في موضوعنا .. إيه رأيك في الرقص ؟ (وقبل أن يفتح فمه) : - - سيبك إنت دلوقت من قصة هل الرقص حلال أم حرام ؟

قال لها :

- بصراحة .. الرقص جميل .. لكن أنا ما جربتهوش .

- بس أكيد رقص " فاطمه " كان مثير لك .(قالت وهي تبتعد للخلف خطوتين)

- ده كان حلم .. والحلم له أحكامه وقوانينه الخاصة وقد رفع الله القلم عن النائم .

- كلامك صحيح ، بس الأحلام عبارة عن انعكاس للمخزون في

لاوعيك (ثم وهي تضحك) : إنت ناسي إن أنا دارسه فلسفة وقارئة جيدة لعلم النفس خاصة [فرويد]؟!
تعرّق وجه " مروان " لما أحس بـ " رقية " تقرأ دواخله تجاه فاطمة.
انتصبت " رقية " كرمح أمام " مروان " وقالت :
- شوف يا مروان (استدركت) قصدي يا أستاذ مروان .. أنا مخبيه شريط كاسيت رقص (استدركت ثانية) :
- قصدي شريط موسيقى رقص .. ممكن نشغله في الكاسيت ده (أشارت إلى كرتونة فوق الدولاب) وبعدين تشوف وتحكم يا ترى مين اللي بترقص أحلى ، أنا أو فاطمه ؟
لم تنتظر موافقته أو رفضه ، غير أنها أدارت الكاسيت بعد أن وضعت فيه الشريط . بدأ الشريط يتحرك داخل آلة التسجيل . لحظات ترقب سادت حجرة النوم بعدها انطلق الكاسيت هادرا بصوت مرتفع .
اتجهت " رقية " ناحيته لتخفض من الصوت قليلا . تراجعت بعدها حافية القدمين تلف حول خصرها شال من القماش الأسود تضعه دائما تحت نقابها فوق شعرها
الموسيقى الراقصة تملأ جنبات الحجرة المحكمة الإغلاق . تشعر كأن الجدران .. الطاولة.. الكراسي .. كل الأشياء تشعر وكأنها تتمايل متجاوبة مع جسد " رقية " التي كانت تتمايل في غنج ودلال مبهجين للروح . كانت تستدير مع إيقاع الموسيقى الراقصة فتبدو مؤخرتها عالماً خرافيا وأرضا بكرا لم يطأها أحد . تتمايل رقية ثم تنحني جهة أرض الحجرة المغطاة بسجادة مزركشة بمزيج من الألوان فتندلق النيران مستعرة في أحشاء " مروان " .
لم يفهم لماذا بدت له أمه الآن تتمايل شبه عارية بين أحضان الشيخ

حسن يوسف في شبق مختزن منذ أحقاب ؟! أغمض عينيه عن أمه في حضن الشيخ حسن ثم فتحهما على "رقية" وقد قفزت للتو فوق الطاولة التي تتوسط حجرة النوم والتي كأنه يراها لأول مرة . هل سكر مروان؟! تحرك بفعل الدهشة والفرح الذي غمر روحه ليجلس أسفل الطاولة كيما يرى رقية من أسفلها . كانت تتلوى كأفعى أسطورية في فضاء الحجرة . كانت تقفز بخفة الفراشات هنا وهناك . قبل أن يتوقف الكاسيت قفزت " رقية " أخيرا بين أحضانه ثم تمددت تماما فوق جلده . نامت متنهدة على صدره . أشعلت بأنفاسها أوار الرغبة التي تجوس بخلايا دمه

غامت روحه في بحار اللذة لما وجد نفسه فوقها وهي تفترش السرير الذي اتسع فجأة كالصحراء ، مدت يدها تجرده من ملابسه غير أنه أوقفها في منتصف الطريق كيما يجردها هو أولا في جرأة غير معتادة منه ، بعدها تركها تجرده . بدا عاريا مثلها تماما .ارتوت الصحراء بماء المطرالغزيرفاخضرّ العشب الظمئ لبل أوراقه الصغيرة . تفتحت الأزهار المنخنقة وتنفست الأرض عبيرها

. غمرت المياه أرض " رقية " المجدبة والصفراء فاستحالت إلى لون أخضر يبهج الروح والقلب .

سوف يغتسل " مروان " ويستأذن منصرفاً في غبشة الفجر قبل أن يستيقظ الجيران . سيذهب إلى أمه المشغولة عليه . سيصلي الفجر ويستغفر الله حيث أنه لا كبيرة مع الاستغفار .

فتحت " إيمان " الباب لوحيدها . كان القلق مرسوما على وجهها ، بدا ذلك في عصبيتها وهي تفتح الباب :

- أرجوكي يا أمي .. سيبيني أصلي الفجر وبعدين نتكلم .

- ....

توجه صوب دورة المياه . توضأ ثم فرد سجادة الصلاة . لحقته أمه كي تصلي خلفه جماعة .

أشار بيده إليها : لا يا أمي .. مش هاينفع !

- ليه يا ابني .. دا إنت الإمام وأنا المأمومه .. أنا أمك !

- هاشرح لك بعدين .. بس دلوقت مش هاينفع تصلي معايا

- براحتك يا مروان ! (كالمغلوبة على أمرها قالت)

صلى " مروان " ركعتي سنة الفجر ثم أقام الصلاة بصوت منخفض وبدأ يصلي الصبح منفردا .

في سجدته الأخيرة ؛ بكى حتى بلل سجادة الصلاة بدموعه . كانت " إيمان " قد انتهت من صلاتها . أثار بكاؤه استغرابها طول سجوده وبكاؤه المسموع . انتهى " مروان " من التشهد الأخير . كانت أمه ترقبه وهو يسلم يمنة ويسرة منهيا صلاته وكأنها تشاهده لأول مرة يفعل .

قالت له :

- هه .. احكي لي يا ابني ، كنت فين الوقت ده كله ؟ وليه ما ينفعش أصلي معاك ؟!

وإيه الدموع دي كلها ؟!

اعتدل " مروان " وصار بمواجهتها تماما وقال :

- شوفي يا أمي ، مش مهم أنا كنت فين دلوقت ، أما بخصوص صلاتك معايا أو حتى مع نفسك فهي صلاة غير صحيحة وغير مقبولة بالمرة عند الله .

فغرت " إيمان " فمها ضاربة بكفيها على صدرها الذي كاد يتوقف عن

النبض من هول ما سمعت ثم تساءلت مصدومة :
- يعني إيه يا مروان ؟!
قال لها :
- أنت يا أمي لست مسلمة . أنت كافرة ويجب عليك ابتداءً أن تدخلي في الإسلام أولاً .
كان من الصعب بمكان على " إيمان " التي عاشت حياتها حتى الآن عابدة لله
أن تستوعب حتى نصف ما يقوله لها ابنها والتي ألجمت كلماته فمها فما عادت
تقدر لوقت على الكلام .
- سأشرح لكِ أكثر .
حركت رأسها موافقة على أن يشرح لها الغامض :
- هذا مجتمع كافر يا أمي ، المجتمع الذي يحيطنا هو مجتمع جاهلي حتى وإن صلى وصام وحج البيت أو اعتمر .(يكمل مروان لأمه) : أنا – مثلا – لم أكن مسلماً من قبل ولا طرفة عين فلا بد من اعتزال هذا المجتمع بمساجده وعقائده الفاسدة ولا بد من مبايعة أمير الجماعة المسلمة لأن الرسول (ص) قال : " من مات وليس في عنقه بيعة ؛ فقد مات ميتة جاهلية " .
استطرد " مروان " شارحا لأمه فكره الجديد وانتمائه لجماعة المسلمين بقيادة الشيخ الصالح الأستاذ " سمير القماش " رغم أنه لم يبايعه الليلة الفائتة بسبب مهاجمة البوليس لبيته .
ظنت " إيمان " أن روحا شريرة قد مست ابنها فقررت أن تستشير الشيخ حسن يوسف . في لقاء الثلاثاء الذي يجتمع الإخوان فيه

بالمسجد الكبير ، كان الشيخ حسن هو المحاضر في المكان المخصص للسيدات بالمسجد . أسرّت " إيمان " لـ " فاطمة " أنها تريد أن تلتقي والشيخ حسن كيما تعرض عليه أمرا يخص وحيدها .

- حاضر يا خالتي ، إن شاء الله بعد نهاية اللقاء هاقول لبابا وها خليه يقعد مع حضرتك ويسمع منك (قالت فاطمة) .

انصرف الحضور من المسجد . جلس الشيخ والأخ " عاطف " و " فاطمه " و " إيمان " في صحن المسجد .

- اتفضلي يا أخت إيمان بارك الله فيكِ (قال الشيخ حسن)

- الله يزيد فضلك يا مولانا .. مروان يا مولانا اتغير خالص (ابتسم الشيخ ابتسامة الخبيربما ستقوله إيمان عن ولدها) أصبح لا يصلي في المسجد من فتره وكمان فجأة لقيته بيقول لي كلام غريب ، إنت مش مسلمة والناس كمان اللي حوالينا مش مسلمين !

أشار الشيخ " حسن " بيده فامتنعت إيمان عن إكمال حديثها .

قال الشيخ :

- أنا خلاص عرفت .. الحكاية وما فيها إن " مروان " انحرف بفكره السليم إلى فكرمنحرف ومغلوط ، لقد انضم إلى جماعة إسلامية أخرى (ثم وهو يطمئنها) : لا تخافي يا " إيمان " فكل الجماعات تؤدي في النهاية إلى طريق واحد .. لا تقلقي (ثم مبتسما و مغيرا من نبرة صوته) :

- المهم يا أم مروان .. أما آن للبعيد أن يدنو ؟!

ولما بدا عليها أنها لم تفهم المخبوء خلف عبارة الشيخ لها قال :

- بيتي محتاج ينور بوجودِك يا ست الكل .

ابتسمت " إيمان " خجلاً وأطرقت بوجهها حياءً ولم تنبس بكلمة .

أشار الشيخ إلى " عاطف " وفاطمة فأخذاها بعيداً إلى زاوية في المسجد وتحدثا معها بينما كان الشيخ يرقبهما عن كثب .
وافقت " إيمان " على الزواج من الشيخ شريطة أن يتم تحديد موعد الزفاف في حضور مروان وبمعرفته وأن يتم تحديد زواج " فاطمه " من " مروان " .
فرحت فاطمة لما تأكدت من أن إيمان تريدها زوجة لـ مروان . " عاطف " لم يلمح عينا فاطمة وهي تغلقهما على مروان مبتسمة .
الشيخ " حسن " لم يبد اعتراضا على زواج ابنته من مروان لكن على يتم تأجيل ذلك إلى ما بعد زواجه من إيمان .
إذن سيظل مروان وحيداً- بعد رحيل أمه - مدة من الزمن قد تقصر وقد تطول بحسب المشيئة .
كانت الحقيبة – حقيبة عمه أحمد – تناديه وتلح عليه أن يفضها ويتعرف ما فيها .
صعد " مروان " على كرسي بجوار الدولاب . رفع الحقيبة وهم ليفضها غير أن أمه دخلت الشقة ونادته . خبأ مروان الحقيبة أسفل السرير وتحرك ناحية أمه :
- ما عنديش مانع إنشالله الآن لو ينفع .(هكذا رد مروان على اقتراح أمه وعرضها عليه موضوع تحديد يوم للزواج من الشيخ " حسن " .
- اخص عليك يا مروان ، إنت زهقان عايز تخلص مني ؟! (قالت هذا إيمان وهي تضع يدها على كتف ابنها نصف مبتسمة)
- أبدا والله يا أمي .. براحتكم .. أنا تحت أمركم .(قال مروان)
كان يريد أن يختلي بحقيبة عمه وما بها والتي حرّمت عليه أمه الاقتراب منها طيلة حياته .

- فاطمة اتطلقت وعدتها انتهت يا مروان وإنت عارف إن أنا عايزاها لك . هي بنت حلال وإنت تستحق بنت الحلال .
- سيبي موضوع فاطمة دلوقت يا أمي إلى أن يشاء الله .
- ماشي يا حبيبي .. هو فعلا كده .. موضوع فاطمه مؤجل لحين ما يريد ربنا .

****

بشكل أو بآخر مضت الأيام ، تزوجت " إيمان " من الشيخ " حسن " بعد أن كان قد وافق مروان الذي ازداد تقوقعا وانعزالا عن الناس .
رجل واحد فقط لم ينعزل عنه . " محمد الأعرج " ، كان الأعرج قد زار " سمير " في السجن ومن ثم أخبره الأخير بأن شخصاً يدعى " مروان "تجب رعايته والاهتمام به جيداً .
منذ يومين كان الأخ " محمد الأعرج " قد طرق باب " مروان " وأسرّ إليه أنه من طرف الشيخ " سمير القماش " . أدخله مروان على الفور شقته دونما تردد . لما اطمأن الأعرج أن الشقة خالية إلا من " مروان " قال بصوت مسموع :
- الأخ " سمير " أوصاني بك خيرا يا أخ مروان ، فإن كنت جاهزاً للبيعة فأنا قد حللت مكانه هنا في مغاغة حتى يعود من أسره بإذن الله .
بايع " مروان " " محمد الأعرج " وأصبح عضواً في جماعة المسلمين أو التكفير والهجرة كما تسميهم الدولة وأجهزة الأمن .

كان " محمد الأعرج " قد أصبح عضواً في جماعة المسلمين منذ سنوات ، وكان قد ترك العمل في وزارة الري حسب تعليمات الجماعة

التي تحرم العمل في مؤسسات الدولة الكافرة .
هاجر " الأعرج " إلى دولة [اليمن] فترة ثم عاد منذ سنة . تكاد أجهزة الدولة الأمنية لا تهتم به لأنه حسب رأيهم غير فاعل وغير حركي ، لكن الحقيقة أن الجماعة تقوم بإعداد مجموعة تسميهم الفصيل الوسط أو [جيل الوسط] والذي ينشط بدوره – كقيادي- مباشرة فور اعتقال القادة من الجماعة .

في زيارة الأعرج الأخيرة لـ " سمير " في محبسه بالقاهرة ؛ أسرّ إليه الأعرج بأنه ما عاد يتحمل الحركة مثل سابق عهده خاصة أن قدمه اليسرى ما عادت تساعده بعدما تمكن الوهن منها وكانت قد أصيبت نتيجة قفزة أثناء مطاردته مذ كان منتمياً لجماعة الإخوان آنفاً .
نصحه الشيخ " سمير " بأن يهتم بـ " مروان " لأن له مستقبلاً مهماً في الجماعة حيث أن سمير كان يرى في مروان مشروع قائد كبير نظرا لما يتمتع به الأخير من كاريزما عاليه ولباقة في الحوار وذكاء في نظراته ولفتاته كما أن له قدرة جيدة على إقناع الآخرين برأيه .
منذ صار " مروان " عضوا في جماعة المسلمين ؛ قام بتحويل شقته إلى مركز لتجمع المسلمين الجدد كما يسميهم . " الأعرج " أطلق على شقة مروان اسم [شقة الأرقم] تيمنا بدار الأرقم بن أبي الأرقم والتي كان يجتمع فيها نبي المسلمين (محمد) وأتباعه القليلون في بدء دعوته السرية في مكة .

بعدما تأكد لها أن والدها يماطل في وعده بزواجها من حبيبها قررت " فاطمة " أن تعتمد على نفسها ؛ لذا عزمت أن لا تترك أحدا يحدد لها

مصيرها ثانية حتى ولو كان والدها الشيخ . انفلت " مروان " مستأذناً من إخوانه في جماعة المسلمين والذين كانوا مجتمعين في شقته . اتجه ناحية باب الشقة إثر طرقات على الباب . كانت " فاطمة " مزروعة كغيمة مثقلة بالمطر على باب الشقة . لم يستطع أن يخبرها أنه لا يجوز لها أن تدخل فوجد نفسه يفسح لها الطريق .

- أهلاً يا أختي .. أهلا يا فاطمة .

أدخلها حجرة أمه والتي لم يدخلها منذ فترة . أخبرها أن لديه ضيوفا , استأذن منها على أن يعود إليها بعد وقت . دخل " مروان " على إخوانه وفي لهجة حاسمة تخفي ارتباكاً قال :

- اسمعوا يا إخواني ، سوف ينصرف كل منكم الآن بشكل فردي ، بلاش الانصراف الجماعي حتى لا نلفت الانظار وسوف نلتقي عندما يأذن الله قريباً .

انصرف الإخوة واحداً إثر واحد حسب التعليمات . لما عاد مروان وجد فاطمة غارقة في دموعها ولما سألها قالت :

- بابا .. بابا يا مروان بيماطل في وعده وأنا مش هاتنازل عنك أبداً ولو إنت مش عايزني ؛ أنسحب الآن من حياتك وأعود لمصيري المجهول .

كان الاستعطاف يقطر من كل حرف نطقت به " فاطمة " . ناولها منديلاً لدموعها ثم جلس قبالتها وقال : أنا الآن يا فاطمة إنسان مختلف تماما زي ما إنت عارفه . أنا أنتمي لجماعة المسلمين ولا يجوز لي أن أتزوج إلا من مسلمة (غير مروان من نبرة صوته) ثم قال :

- وأنا أعرض عليكِ الإسلام فإن قبلتيه سأتزوجك بعدها وإلا ... (

قاطعته) قائلة :

- بلاش تكمل أرجوك ، أنا تحت أمرك ، سأدخل في دين الإسلام كما تريد وسأكون رهن إشارتك وسأبايعك .

أفهمها أنه ليس أميراً للجماعة حتى تبايعه ؛ إنه أحد المسئولين القياديين في الجماعة فقط ، وأن للجماعة أمير هو الأخ " أبو صهيب " . كان أبو صهيب هذا هو الاسم الحركي للأخ " محمد الأعرج " .

في المرة التالية كانت " فاطمة " خلف النقاب بصحبة إحدى الأخوات في الجماعة ومعهما " مروان " يتقدمهما بخطوات قليلة إلى بيت الأمير " محمد الأعرج " .

جلست " فاطمة " خلف ستارة سوداء تفصلها عن الأمير والذي طلب منها

أن تردد خلفه البيعة على الإسلام والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره .

في أثناء عودتها إلى البيت بصحبة " مروان " بارك لها إسلامها الجديد . لم تشعر هي أنها كانت كافرة ثم أسلمت ، فهي مسلمة منذ ولادتها وأبوها قيادي كبير في كبرى الحركات الإسلامية وأمها – رحمها الله – عاشت وماتت مسلمة غير أن " فاطمة " تحب مروان الذي يأتيها في نومها كل ليلة ولم تكن تدرك أنها أيضا تأتي مروان كل ليلة . فاطمة دخلت في دين مروان .

فتحت أم مروان الباب على إثر طرقات متتابعة . دخلت " فاطمة " وانطلقت صوب حجرتها تبدو عليها السعادة ربما بدخولها دين " مروان " الجديد ! لم يطرأ جديد عليها فهي تصلي في حجرتها الفرائض

الخمس وتفتح المذياع لتستمع إلى أم كلثوم وفريد وحليم . ترقص في حجرتها فرحة . تقرأ سراً روايات إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ وروايات أخرى مترجمة ، تتحسس كل ليلة جسدها الذي لما يطؤه مروان بعد . فقط النقاب الذي ترتديه عند خروجها لشراء حاجة البيت من محلات الخضار والبقالة ، فقط كان النقاب هو الجديد . قابعة هي بالبيت في انتظار موعد زواجها من مروان والذي كان قد اتفق معها أن تأتيه يوما ما ليذهبا معا إلى الأميركي يعقد عليهما القران ويبارك زواجهما . والدها لن يوافق إن هي عرضت عليه الزواج من مروان . هي حرة وسوف تفعل ما تريد . رددت بصوت مسموع في فضاء حجرتها جملة كانت قد وردت على لسان إحدى بطلات روايات إحسان عبد القدوس :

- أنا حرة .

في زيارته الأخيرة لأمه ؛ إختلى مروان بفاطمة للحظة أسرّ إليها :

-غداً الساعة 4 عصرًا .

لم تكن " فاطمة " في حاجة كي تفهم أنها ستذهب لـ " مروان " في شقته ومنها إلى الأمير" أبو صهيب " لتصير بعدها زوجة لمروان ويتحقق حلم الليالي .

عصر اليوم التالي ؛ كانت " فاطمة " مزروعة بباب شقة " مروان " . كانت قد استأذنت من زوجة أبيها والتي كانت مشغولة بحوائج البيت في غياب زوجها الشيخ " حسن " الذي كان مدعواً لألقاء محاضرة في إحدى مساجد القرى المجاورة والتابعة لمركز مغاغة .

كان " محمد الأعرج " أمير الجماعة في انتظار العروسين واللذان أقبلا الآن . جلست فاطمة منتقبة بين يدي الأمير ومروان بجواره . قال " الأعرج " :

- هل تقبلين مروان زوجا لك ؟
منذ متى وهي متزوجة من مروان في عالمها الافتراضي ؟!
انتهى طقس الزواج وصار " مروان " زوجاً لـ " فاطمة " التي عادت معه إلى شقته لتحتل مكان أمه والتي كانت قد احتلت مكان أمها .
لم يكن مروان يدرك - طبقاً لمبدأ السرية الشديد التي تنتهجه جماعة عقائدية مثل جماعة المسلمين – أنه بعد أسبوع من زواجه من فاطمة سوف يتلقى وزوجته أمراً بالتوجه إلى القاهرة للإقامة هناك في شقة تقع في الدور الرابع في شارع ضريح سعد بالقصر العيني لحين تلقي تعليمات للقيام بعملية انتقامية ضد النظام الذي حكم بالإعدام على قادة التنظيم وعلى رأسهم أمير الجماعة شكري مصطفى .
استأذنتْ"فاطمة" من زوجها على أن تذهب إلى بيت والدها لإحضار حاجياتها والتي كانت قد جمعتهم في حقائب وكرتونة . لم يكن " مروان " ليدعها تذهب وحدها . دخلا البيت ، كانت أم مروان في ذهول فرحةً لمّا أن رأتهما معاً وجسديهما متقاربين حد الالتصاق لأول مرة وكأن شيئا ما قد حدث . انفلتت " فاطمة " إلى حجرتها كي تخرج منها الحقائب ثم دخلت ثانية وأخرجت كرتونة وراديو .
- لسنا بحاجة لتلك الكرتونة يا فاطمة ، فكتب الكفر لا تلزمنا وأما المذياع فهو صوت الشيطان (قال مروان)
أعادت فاطمة كرتونة الكتب والمذياع إلى داخل حجرتها مستجيبة لـ "مروان " . أما " إيمان" فقد كادت الحيرة تنط من عينيها اللتين بدتا زائغتين وحائرتين . لم يترك لأمه فرصة التساؤل :
- أنا تزوجت من فاطمه يا أمي على شرع الله الحقيقي .
لم تدر إيمان هل تطلق زغرودة كانت قد خبأتها في صدرها لمثل هذا اليوم ، أم تصرخ فزعة من زيجة سرية لوحيدها ، زيجة خلت من الفرحة .
- بتقول إيه يا مروان يا ابني ؟ ! ثم توجهت بوجهها إلى فاطمة ربما

تسمع منها كلاما آخر .
- زي ما قال لك " مروان " يا أمي . (قالت فاطمة)
حضن مروان أمه الواقفة كصنم في ذهول ثم انصرف وفاطمة للمرة الأخيرة .
لعل أسبوعين فقط قد مضيا على زواجهما حتى جاء الأمر التنفيذي من أمير الجماعة هنا بالسفر إلى القاهرة والمكوث في شقة كان قد تم تحديدها مسبقا لحين صدور أوامر أخرى .
ظل"مروان"وزوجته ليلتهما الأخيرة في مغاغة يعدان حقائب السفر.كان مروان حريصاً على حقيبة مصنوعة من القماش السميك بها ما يخص عمه أحمد والذي لا يعرف عنه سوى أنه مات في القاهرة غريبا ودفن في مقابر الإمام.تحرك القطار من محطة مغاغة متجها إلى العاصمة ، نظرت فاطمة من نافذة بجوار عينيها ناحية الشرق حيث يقع بيت والدها هناك والذي عاشت فيه مع أمها وأبيها.ماتت أمها وأما هي فقد ماتت في مروان.لم تكن قادرة على تفسير سكوت والدها القيادي في جماعة الإخوان على زوجها من مروان العضو في جماعة التكفير والهجرة والتي تبدو كجماعة مناوئة لجماعة الإخوان أدهشها أن الشيخ "حسن"التزم الصمت تجاهها وهي البنت المتمردة !
لم تكن قادرة على فهم سكوت والدها،فقد كان الشيخ"حسن"يعمل ويتحرك مثل مروان وفق أوامر تصدر من قادة يتحركون بعيدا في العتمة .
لم تكن فاطمة تعرف أن أمراً قد صدر لوالدها من قادة جماعته مفاده : أنه لا فائدة من الاعتراض على زواجها من مروان بل هو من الأمور التي ترضى عنها الجماعة لما لذلك من فوائد مرجوة كما أن اعتراض الشيخ - والذي لن تكون له نتيجة - سيظهر قائد الإخوان وكأن لا سيطرة له على بيته مما يزعزع الثقة فيه.إذن لم تدرك فاطمة أن

صمت والدها يظهره وكأنه موافق تماما .
الناحية الغربية من القطار كانت ترعة الإبراهيمية تتمدد في كسل .
لطالما لعبت فاطمة هنا على حافة الترعة والتي يسميها أهل مغاغة (البَرْهَميَّة) . هنا تعرفت على أول معاكسات حقيقية من شباب في مقتبل المراهقة .
كانت تشمر هنا عن ملابسها وتجلس مع البنات اللائي يغسلن الصحون والأواني(المواعين) المتسخة والملابس أيضاً ، كانت فاطمة تساعدهن وتتركهن
أحيانًا منشغلة بمعاكسات الأولاد من ناحية الشط الغربي للترعة .
كانت تلك المعاكسات
تجلب لنفسها الفرحة لأنها كانت تدرك أنها هي المقصودة فقط بتلك الكلمات التي تحمل غزلا تنوَّع ما بين الصريح و العفيف .
أمام بناية شاهقة بشارع ضريح سعد بمنطقة القصرالعيني توقف تاكسي لينزل منه" مران" تتبعه " فاطمة " من الناحية الأخرى ، بعدها انطلق التاكسي تاركاً مروان في مواجهة بواب العمارة ليتأكد أنه في المكان الصحيح ، بعدها صعد للدور الثالث . أخرج من جيبه مفتاحاً صغيرا كان أمير الجماعة قد دسَّه في يده عندما أخبره بموعد السفر . لحظات وكانت فاطمة قد تمددت فوق كنبة تتوسط صالة الشقة متأوهة من وعثاء السفر
في تلك الليلة أخرج مروان من حقيبة ملابسه الكبيرة حقيبة عمه"أحمد" وبعد أن فضها أخرج منها دفتراً كبيراً يشبه دفاتر تحضير المدرسين . زكمت أنفه رائحة غريبة تسللت من أوراق الدفتر القديم ، تلك الرائحة تنتمي لعصر قديم ولأوراق الدفتر أيضا رائحة مختلفة .

رنين التليفون العنيد يأبى إلاأن تستيقظ فاطمة من أحلى نومة لها بعد عناء سفر طويل .

- آلو
- .....
- وعليكم السلام ورحمة الله
- ....
- آه .. بالظبط كده .. أنا مراته .
- ....
- حاضر حاضر .. لحظه واحده .

تركتْ سماعة التليفون فوق الطاولة وانطلقت توقظ مروان من نومه :

- اصحى يا مروان .. اصحى .. واحد اسمه (أبو حفص) عايزك ع التليفون .

انفلت من عقال سريره جهة الصالة . رفع سماعة التليفون في يقظة تامة وكأنه كان يتصنع النوم :

- السلام عليكم يا أخ عمر .
- ......
- لعنة الله على أبي لؤلؤة المجوسي .
- ....

تلقى مروان إجابة الأخ عمر حسب الاتفاق لتكملة كلمة السر بينهما .

بعد انتهاء المكالمة بدا التوتر على وجه مروان :

- أبداً يا فاطمة ، عندي موعد ضروري غداً مع أحد الإخوة وسط البلد (رد مروان على سؤالها) ....

في منتصف نهار اليوم التالي كان " مروان " يزرع ميدان التحرير بقدميه في انتظار الأخ " أبو حفص عمر " والذي وصل أخيراً ليلقي التحية عليه وليرد تحيته قائلًا :

- وعليكم مثل ما قلتم
كان رد مروان التحية بهذه الصيغة يعني أنه الشخص المقصود .
طلب الأخ عمر منه أن يتبعه ، ظل مروان يتابع خطو صاحبه الذي أخيراً توقف بعد طول مشي أمام حديقة الأزبكية .
على أريكة مصنوعة من خشب الكونتر القديم وهناك في منتصف الحديقة جلس أولا أبي حفص عمر ثم تبعه مروان الذي راح يتلفت حوله التفاتاتَ ريبة وتوتر مما دعا صاحبه أن يقول له زاجراً : لا تلفت الناس إلينا بتوترك ونظراتك المريبة يا اخ مروان ، أنت في وسط القاهرة ولست في الصعيد !
اعتذر منه " مروان " وراح ينصت في اهتمام لكلامه :
- اسمع يا " مروان " ، لقد قرر أمير المؤمنين أبو معاذ – أطال الله أجله – القيام بالرد القاسي والموجع على أحكام الدولة الكافرة والخارجة على منهج الله والتي صدرت ضد المسلمين وسوف تقوم أنت بعد عشرين يوماً من الآن بتفجير عبوة ناسفة في وسط قلعة من قلاع الكفر والمجون ، ألا وهي (دار الأوبرا)حيث سيقام حفل غنائي ماجن بحضور عدد من الفنانين والفنانات وبالتالي سيكون المكان مزدحما بالكفار . وأما زوجتك فسوف ترتدي زي الكافرات من نساء

النصارى وتدخل وسطهن كنيسة العذراء بشارع مراد بالجيزة ومعها عبوة ناسفة
لقتل ما يريد الله من كفار أهل الكتاب أعداء الله .
عاد"مروان"إلى الشقة مبتهجاً سعيداً بما سيقوم به هو وزوجته :
- سوف أموت شهيداً وأنعم بالحور العين والغلمان في الجنة (هكذا قال في نفسه)
عندما فتحت له الباب فاطمة ؛ حضنها وقال :
- هانت يا زوجتي الغالية ، سوف نذهب إلى الجنة قريبا أنا وأنت .

- وضح لي يا حبيبي . أنا مش فاهمه .
- قريبا سوف نقوم أنا وأنت بعمليتين لقتل أعداء الله والرد على حكومة مصر الكافرة التي تعتقل المسلمين وتعذبهم . سوف نموت شهداء ونلتقي بـ ....(قاطعته صارخة)

- أنت بتقول إيه ؟! أنا مش عايزه ألتقي بحد غيرك إنت .
أنا متجوزاك علشان نعيش في سبيل الله مش نموت في سبيل الله !
- أعوذ بالله .. إنت مش عايزه الشهادة يا حبيبتي ؟!
- لا يا مروان .. أنا عايزاك إنت بس .
ارتمت في حضنه وهي تبكي قائلة :
- مش عايزاك تبعد عني خالص لا دنيا ولا آخره .
نظراً لحالة فاطمة الآن ؛ قرر مروان أن يرجئ الكلام في هذا الموضوع .ثم مغيراً من نبرة صوته :

- حبيبتي خلاص ، جهزي لنا لقمة من إيدك الحلوه ناكلها وبعدين نبقى نشوف هانعمل إيه .

اتجهت فاطمة صوب المطبخ تمسح بأناملها دموعها الساخنة .
فكر مروان بأن عشرين يوما قد تكون فترة طويلة حتى مجيئ موعد العملية لقتل أعداء الله . قرر أن يقتل الفراغ بالقراءة في دفتر عمه . لعلها مذكراته ؟ إذن سيفعل ما حذرته منه أمه طيلة سنوات عمره . بعد أن تناولا الغداء . انطلقت فاطمة ألى المطبخ ثانية لغسل الصحون .
طلب منها مروان أن تعد له فنجان قهوة بعد انتهائها من شغل المطبخ.ثم انزوى في حجرة الجلوس وأغلق على نفسه الباب ودفتر عمه " أحمد " .

أوراق الكافــــــــر

(وإنما كتبــت إلى روحــي) ... الحلاج

بعد تردد دام طويلاً ؛ قررت أخيراً أن أكتب . لكن إلى من ؟! الحقيقة أنني قررت أن أكتب إليك أنت ! نعم أنت أيها المبحلق الآن في أوراقي . لكن رأيت أن أحذرك - أيها المبحلق - من أن تتورط في قراءة تلك الأوراق وأنت في غير وعيك التام . عليك أن لا تقرأها على سبيل التسلية أو حتى على سبيل الاستفادة من تجارب شخص - مثلي سبقق إلى هذه الحياة اللعينة ثم رحل بشكل أو بآخر .

لو كان يقينك هكذا وأنت تقرأ ؛ إذن دعني أبصق في فمك وأقول لك : أنت حمار ! نعم أنت حمار كبير.أنت يا -عزيزي - واهم كبيرإن كنت تقلب تلك الأوراق التي بين يديك الآن مدّعياً الثقافة والفهم والحذلقة الكاذبة .

هذه الحروف المتراصّة أمامك بشكل يبدو متوازناً لك كتبتها بدمي المحترق على قربان العبث واللاجدوى من هذه الحياة .

كما أنه ينبغي أن تعرف وأنت تقدم على قراءة أوراقي أنه سوف تنتابك أوقات من الفرح وهي أوقات لا شك مزيفة وواهية وفي أكثر الأحوال تفاؤلاً : هي أوقات فرح نادرة تكاد لا تذكر .

سوف تنتابك أحقاب من الحزن والكآبة والسوداوية وهي الأصل هنا لتلك الأوراق اللعينة.أنا أسميتها " أوراق الكافر " وأما أنت فإنني أمنحك الحرية في أن تسميها ما شئت من أسماء تروق لك .

لا أعلم إن كنت ستلقي بالأوراق تلك في أقرب سلة مهملات بجوارك أو ربما ستطيح بها من نافذة البيت..لا أعلم ! غير أني أردت بهذه الكتابة أن أخترق المسافات وأصل إليك . ربما رغبة مني في الخلود والاستمرار ؟ ! ربما ... قد تكون رغبة في أن تكون أنت نواة لخلق عالم جديد يثور على كل شيء توارثناه ، حلوه ومّره جيده ورديئه ؟ ربما .

لكن الحقيقة هي أنني قررت - وقبل أن أموت بإرادتي الحرة - أن أكتب إليك !

لا تتعجب كثيرا من كلمة (إرادتي الحرة) فلربما لم تكن لي في هذه الحياة التي عشتها أي إرادة أو أي قرار إلا هذا القرار وهذاالاختيار وهو أن أموت . هل هو الانتحار ؟ نعم هو الانتحار بعينه .

أنا قررت أن لا أتناول الدواء اليومي الذي وصفه لي الأطباء وأن أمتنع تماماً عن الطعام وأن أخالفهم مسرفاً في تجرع القهوة السوداء وتدخين السجائر والتي حرصت كثيراً على تجنبها .

نعم أنا أكتب كيما لا يكون موتي غبياً . لا أريد أن أموت هكذا ميتة كالأغبياء ينفقون كما تنفق البهائم والحمير .

لقد ابتغيت يقيناً عقلانياً - في حياتي - لفهم هذه الحياة ولفهم الله والميتافيزيقا غير أني - والحق أقول لك : ها أنا أموت والشك يلفني من كل جانب كالمشيمة التي تحاصر الجنين في بطن أمه .

نعم حاولت أن أفهم الحياة والله ولكني فشلت ! لماذا جئت إلى هنا ؟ لا أعرف !

اللامعنى واللاجدوى والعبث كانوا يسدون أمامي كل نفق أسلكه .

لقد مكثت سنوات أفتش عن حقيقة أونطولوجية ألقى الله عليها أو

حتى لا ألقاه ! لكني لم أجد !
قضيت أياماً بلياليها أبحث في الكتب أو حتى في كتاب الكون المشاهَد عن تفسير أو معنى للأديان أو لطقوسها فكانت النتيجة هي قبض الريح .
أردت الحكمة من آلام العجائز وأوجاع الأطفال فلم أجد .
لم يكن المستقبل يعني لي سوى الوهم . لم أجد لكلمة المستقبل تلك أي معنى فأنا وأنت نعيش في لحظة مستمرة ومكرورة من اللاجدوى .
أنا مثلك - يا من تحدِّق في أوراقي - قادم من العدم ومنطلق بقوة الصاروخ إلى نفس العدم !
في مرحلة لاحقة من حياتي الشقية وجدت نفسي أمام أكثر من طريق ممتلئ بالشوك والمسامير الحادة والصدئة ، إما أن أقتل الأسئلة التي تجوس في دمي بحرية الثعابين السامة وأكون ساعتها قد ارتحت منها ، وإما أن أشارك الفلاسفة والحكماء الذين حاولوا - جاهدين - تغيير العالم وتغيير الصورة عن الإله خاصة أن سلوك الآلهة هو نفسه سلوك البشر غير أنه سلوك منعكس كما نطق بذات المعنى ذات مرة الملحد العظيم " فيورباخ " .
لقد تنبهت ذات مرة إلى أنه إذا أردتَّ أن تغير العالم وسلوكيات الناس فعليك أن تغير صورة الله عندهم ، وهذا لن يحدث إلا في مرحلة الطفولة .
كيف أستطيع تغيير صورة الإله ؟ لا أدري ! فقط وجدتني مرة أصرخ مع"مارتن هايدجر":
[وحده إله جديد قادر على إنقاذنا] .

هل فهم أحد " هايدجر " ؟ لا أعتقد . هل سيفهمني أحد ؟ ربما أو سأردد مع " هولدرين " :

(ولكن كتب علينا
أن لا نستقر في أي مكان -
نحن أبناء الفجيعة -
نترنح ... نسقط بشكل أعمى
من ساعة إلى ساعة
كماء الصخرة ..
من صخرة إلى صخرة
منبوذين من قِبَل السنين
مرميين في الهاوية السحيقة) .

****

أنا أحمد بن الشيخ عبد العليم الحجازي

أكتب حكايتي منذ وطئت قدميّ أرض القاهرة ؛ لعلها تقع في يد صاحب نفس مضطربة أو عقل متأجج بنار الشك والبحث عن الحقيقة (!) وهل ثمة حقيقة هناك ؟ !

أكتب سيرتي بعد أن الجأتني الأيام إلى الانعزال الأجباري في حجرة صغيرة هنا في شارع الألفي .

الورقـــة (1)

أذكر بعد مرور عقد ونصف من الآن جئت و " فريد " ابن المقدس سمعان ، أحد أعيان قرية [مير] مركز [القوصية] التابع لمحافظة [أسيوط] . أذكر جئت ونار البحث والشك تأكلان خلايا مخي . قطعة نار ألقتها " ماريان " - بنت المقدس سمعان وأخت " فريد " – في رأسي ثم تركت النار تنتشر كأنها تسرح في هشيم جاف زاد النار لهيبا وتأججاً ما سمعته من (جبريل) عندما زارني ليلا ، ساعتها صممت أن أدرس وأتعلم الدين الإسلامي من مصادره الصحيحة ..
وهل غير الأزهر الشريف ؟
في اليوم الأول .. اصطحبني " فريد " إلى الجامع الأزهر . وقفت أمام شيخ معمم مكفهر الوجه وبجواره يجلس شيخ صنوه .
- ماذا تريد أيها الفتى الصعيدي ؟
- وكيف عرفت يا مولانا أنه صعيدي ؟ (قال الشيخ الجالس بجواره)
- منظره يوحي ببيئته ، قوة بنيانه ووجهه الذي لوحته الشمس ثم ملابسه ولهجته الخشنة .
كانت بداية غير موفقة وغير مطمئنة . ساعتها ظهر الاضطراب على وجهي .
قدمت له شهادة ميلادي ثم أخرج من دوسيه قديم ورقة وراح يسألني

- اسمك ؟ عنوانك هنا في القاهرة ؟ كم تحفظ من القرآن ..... ؟
حدد لي موعداً للإمتحان لقبولي كطالب في رواق الأزهر .

في اليوم المحدد ؛ جلست أمام شيخ آخر تحت عمود من أعمدة الجامع الأزهر . لما كنت أحفظ القرآن كما أحفظ اسمي تماما ؛ نجحت بتفوق . وهكذا أصبحت طالبا رسميا في الأزهر الشريف .
لم تكن الشقة التي أسكنها مميزة بأي حال من الأحوال . كانت في الدور الأرضي في عمارة بشارع جانبي من شارع الألفي . كان " فريد " قد اختار لي هذا السكن بمعرفة ومساعدة أحد أقربائه .
صاحب الشقة رجل نصراني يتبع طائفة غير تلك التي يتبعها أغلب نصارى مصر ، فالقسيس الذي يؤجر لي الشقة تلك يدلف كل يوم من باب العمارة مارا من أمام سكني - الذي يفتح على السلم مباشرة - يرتدي بنطالاً وقميصا أفرنكياً كالذي يرتديه أفندية مصر . عرفت بعدها أنه يتبع طائفة انجيلية غربية . أما " هيلانة " فهي تتبع الطائفة الأرثوذكسية مثلها مثل " ماريان " بنت المقدس سمعان في [مير] .
- فريد .. موصيني عليك (قالت هيلانه) ساعة كنت عائداً من الأزهر أحمل بين يديّ كتباً وفي رأسي كنت أحمل تساؤلات وأما عيناي فكانتا في رحلة استكشاف للأماكن ما زالتا . صوتها الأخّاذ والممتلئ رغبة – كما تهيأ لي – أسرني ولم أقاوم .
في البداية كان صوتها هو المتصدر للمشهد لمعرفتي بها حيث أنني ما كنت أجرؤ على التحديق في وجهها فضلاً عن أن أطالع جسمها . كان الخجل الساكن في جسدي والقادم معي من الصعيد لم يتبخر بعد .
شكرتُ " هيلانه " وأنا أكاد أنظر ناحية وجهها . كانت خارجة وحدها ودونما رفيق معها من أسرتها والبنت في الصعيد لا يحق لها ذلك ، حتى " ماريان " ما كانت تجرؤ على المجيء لنا إلا ومهعا والدها أو

الست أم مينا .
في الأيام الأولى ؛ عرّفني " فريد " على أصدقائه الذين كانوا يصطحبونني معهم إلى مقاهي وسط البلد . كان أصدقاء فريد ملتحقين بالجامعة المصرية والتي صدر مرسوم في 11مارس 1925 بقانون إنشاء الجامعة المصرية مكونة من أربع كليات هي كلية الآداب والعلوم والطب والحقوق .
كنت ألمح الاختلاف الكبير بينهم وبيم زملائي في الأزهر ، أصدقاء " فريد " مرحين وطيبين وبسطاء ، أما زملائي الأزهريون فهم معقدون ومعادون للمدنية وأهلها ونسائها . عندما عرّفني فريد على صديقته " إيفا " لم ألمح فيها شيطاناً كما علّمنا المشايخ . كانت بريئة وطيبة وكريمة حتى أنها كانت تسأل عني إذا ما غبت عن الخروج مع " فريد " وأصحابه .
الشقة التي تقطنها أسرة القمص والد هيلانه تحتل الدور الثاني كله ولها بلكونتان تطلان مباشرة على الشارع الرئيسي .
في مساء يوم ، كنت كالعادة وحدي في مسكني (شقة عبارة عن حجرة واحدة وصالة ضيقة وحمام ومطبخ بسيط) لما سمعت طرقا رقيقاً على الباب ؛ فتحت فإذا "هيلانة" وبين يديها صينية مغطاة بفرش ملون ونظيف .
- مساء الخير يا أستاذ أحمد .
- أهلاً ... مساء النور يا هيلانه هانم .
- ده عشا خفيف وبسيط ويارب يعجبك ، أصل أنا اللي عاملاه بإديّا .
- بس ده كتير عليّا .. أنا متشكر خالص و ... (قاطعتني ثم أردفت قائلة) :

- لو عند حضرتك أي ملابس محتاجه غسيل ، هاتها علشان ما ينفعش تغسلها (ضاحكة أكملت):
- أصل الرجاله ما بيعرفوش يغسلوا زي الستات .
وأنا أمد يدي لأتناول منها الأكل متحاشياً النظر إلى وجهها الذي لمحته يكاديشعل المكان نورا و يضيء داخلي المعتم . قلت :
- شكراً .. ده كتير .. بس أرجوكي بلاش الملابس ..(قاطعتني) وقالت :
- لا .. دي على فكره طلبات ماما ، وكمان بابا بيوجه الدعوه لحضرتك لزيارتنا في أي وقت تحدده ويكون مناسب لك .
أغرقتني " هيلانه " بكرمها وأدبها الهائل .
فكرت أن أحدّق في وجهها ، غير أن الرجل الريفي داخلي استنكر الفكرة فظللت أنظر تارة إلى صينية الطعام وتارة أوجه بصري إلى السلم الممتد خلفها . وكأنها قرأت رغبتي قالت وضحكتها التي تؤنس ليل القاهرة :
- على فكرة حضرتك خجول أزيد من اللازم !
انصرفت بعدما خلّفت في روحي فرحة تسع كل طلاب الأزهر المكتئبين .
أغلقت الباب خلفها . كان العشاء بساط سليمان السحري والذي حملتني رائحة طعامه إلى بيتنا في [مير] وطعام الحاجة " سعدية " أمي والتي قررتُ أن أكتب لها ولأبي رسالة . منذ مجيئي الأزهر وأخبارهم عني مبتورة . كان " فريد " قد أخبرني سابقاً أن أحد أقربائه من القرية هنا مُستضاف عند أقربائه وسيرحل نهاية الأسبوع .. غداً نهاية الأسبوع !

كثرة حديث " فريد " عن الأستاذ (أحمد لطفي السيد) مؤسس الجامعة المصرية والذي يطلقون عليه أيضاً [أبو الليبرالية المصرية] و [أستاذ الجيل] ؛ جعلني أرغب في مقابلة الرجل. كما أن الذي يحرضني أكثر على لقائه هو أنك بمجرد أن تنطق باسمه في أروقة الأزهر فإن ذلك كفيل وحده بطردك من الأزهر وربما يتطوع غير واحد بتكفيرك وإخراجك من زمرة المسلمين !

- يا ابني اسكت أحسن يطردوك من الأزهر !(قال فريد هذه العبارة لي بعدما طلبت منه أن يصطحبني معه لحضور محاضرة للأستاذ لطفي السيد)

لما صممت على ذلك ؛ ضحك الجميع وأبدوا سعادة لانضمام أزهري إلى جماعة المثقفين المتحررين .

كنا ساعتها على مقهى [ريش] في وسط البلد . أخبرتني " إيفا " أن موعد المحاضرة التي سيلقيها أستاذ الجيل ستكون غداً وستكون تضامناً مع ذكرى الأستاذ الدكتور (طه حسين) بعد أن تم إقصاء الأخير عن الجامعة بسبب كتابه الأخير [في الشعر الجاهلي] .لم أكن وقتها أعرف عن طه حسين إلا القليل والنذر اليسير من طلاب ومشايخ الأزهر ، ولقد كانت معرفة مبتسرة ومجحفة عن الرجل .

لـ " طه حسين " والأزهر حكاية :

في عام 1926 أصدر " طه حسين " كتاب [في الشعر الجاهلي] أخرجه للناس ثم سافر فرنسا ليقضي بها إيجازة الصيف ، ما إن وصلت الباخرة على الشاطئ حتى وصلته برقية عاجلة تقول :

(عُرِضَ على البارلمان كتابُك الأخير . ناقشوا طردك من الجامعة . هدد رئيس الوزراء بالاستقالة . تدخل سعد زغلول . أُحيل الموضوع

إلى النيابة العامة . النيابة تطلبك للتحقيق معك . أرجو حضورك حالاً) . ... إمضاء : محمد المرصفي (صديق قديم لـ طه حسين) .
عرفت أيضا من " إيفا " أن هذا الاستدعاء لـ طه حسين بالتحقيق معه جاء بعد أن تقدّم الشيخ (خليل حسنين) الطالب بالقسم العالي بالأزهر بتاريخ 30 مايو 1926 ببلاغ لسعادة النائب العمومي يتهم فيه (طه حسين) الأستاذ بالجامعة المصرية بأنه ألّف كتاباً أسماه [في الشعرالجاهلي] ونشره على الجمهور ، وفي هذا الكتاب طعن صريح في القرآن الكريم حيث نسب الخرافة و الكذب لهذا الكتاب السماوي .
سألتها :
- وهل تدخل الأزهر يا إيفا ؟ !
أردفت إيفا والأسى يكسو وجهها بعد أن تنحينا جانباً وكنت ساعتها خجلاً وهي تكمل لي :
- بتاريخ 5 يونيه 1926 أرسل فضيلة شيخ الجامع الأزهر لسعادة النائب العمومي خطاباً به تقرير رفعه علماء الأزهر عن نفس الكتاب : كذّب فيه المؤلف(طه حسين) القرآن صراحة وطعن فيه على النبي محمد(قلت في سرِّي- وقتها- ﷺ) وطعن – طه حسين – على نسب النبي الشريف وأهاج بذلك ثائرة المتدينين وأتى بما يخل بالنظم العامة ويدعو الناس للفوضى (تُكمل إيفا) طالب ساعتها شيخ الأزهر وأتباعه باتخاذ الوسائل القانونية الناجعة ضد هذا الطعن على دين الدولة الرسمي وتقديمه للمحاكمة . بعد ذلك توجهت مظاهرات من المتعصبين والموتورين لبيت (سعد زغلول) وطالبوه كرئيس لحزب الأغلبية باتخاذ إجراءات رادعة مع طه حسين مثل : طرده من الجامعة ومحاكمته ومعاقبته وإعلان كفره وإلحاده رسمياً .

* * *

في اليوم التالي – ونحن في طريقتا إلى محاضرة أستاذ الجيل - سألتُ " إيفا " تحديداً والتي كانت مهمومة كأصدقائها بقضية حرية التفكير،سألتها عن مضمون كتاب في (الشعر الجاهلي) وهل في الإمكان أن أحصل على نسخة منه كيما أطالعها بنفسي ؟ قلت لها : هل كان طه حسين يتصورحينما ألّف كتابه أن يحدث شيء من هذا يمكن أن يحدث كرد فعل لأقواله في الكتاب ؟

قالت : إن ما ذكره المؤلف في كتابه كان من الواجب أن يهتم به الأدباء فقط وليس الأزهريون أو حتى السياسيون (طلبت منها أن توضح لي) فأردفت :

- لقد كان جوهر الكتاب يقول : إن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً أو أدباً جاهلياً ؛ ليس من الجاهلية في شيء ! وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهي أسلامية تمثل حياة المسلمين وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين . كما أن طه حسين في كتابه هذا يشكك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي .

عرفت من " إيفا " أن هذه هي نظرية طه حسين حول الأدب والشعر الجاهليين وما كان ينبغي أن يهتم بها إلا المنشغلون بالأدب فقط .

ساعتها تعجبت كيف ينشغل الأزهر والبارلمان والملك والنيابة العامة ومجلس الوزراء بالفكر والأدب .

قلت لنفسي : إن عقوبة طه حسين هي عقوبة للعقل والفكر .

في قاعة المحاضرات ، جلست " إيفا " بجوار " فريد " ، كنت أشعر أن شيئا ما غير الصداقة والثقافة بينهما . في الصف الثالث جلستُ

وأصدقاء فريد الذين صاروا أصدقائي إلى حد ما أو صاروا معارف لي .
خرج علينا شاب وسيم الطلعة لبق اللسان ، اعتلى منصة المحاضرين وقال :
- أيها الحضور الكرام . أهلاً بكم . قلة قليلة أنتم في زمن البهتان والزيف ، تصرون على الحقيقة ذات الثمن الباهظ . أهلا بكم في الجامعة المصرية حيث نحاول أن نشعل شمعة وسط ظلام الفكر الذي يحاصرنا . والآن مع أستاذ الجيل وأبو الليبرالية المصرية الأستاذ : أحمد لطفي السيد .
تصفيق حار وحاد يصم الأذن . لحظات ومن خلف المنصة صعد رجل كأنه من عصر الأنبياء ورجال الأساطير . رجل تجاوز الخمسين بقليل وتبدو على وجهه المهابة والتي راح يخففها بابتسامة عريضة تسع كل الموجودين . رجل متفائل رغم الإحباط الذي يتسرب لحياتنا من كل جانب .
وبدأ الأستاذ :
- " مساء الخير أحبابي .. كلنا يدرك تماما أهمية هذه المرحلة الفاصلة والحرجة في أهمية أن نعلي من شأن العقل الذي به ميزنا الله الخالق عن جميع الكائنات ... "
كانت محاضرة الأستاذ – فيما أذكر – عن العقلانية والتفكير الحر وجيوش الظلام التي تواجه كل صاحب قلم حر وعقل متحرر .
تحدث ساعتها عن " طه حسين " وما عاناه ويعانيه من قوى التخلف والرجعية ثم دعا كل إنسان حر وشجاع أن يثبت على رأيه المستنير ولا يخاف مخالب الوحوش الضارية والناهشة جسد الوطن .
كانت محاضرة الأستاذ [أحمد لطفي السيد] نقطة فاصلة في حياتي أنا

شخصياً . أمدتني بالشجاعة والحرية . أطلقت كلماته في روحي قوة إلهية المصدر والمنشأ . خرجت من المحاضرة إنساناً مختلفا ، قلت لنفسي وقتها : (يجب أن أجلس مع أستاذ الجيل لأحكي له عن [جبريل] وعن " ماريان " و[جلال الدين السيوطي] . كنت أخاف أن أحكي مع أحد من المشايخ عن السيوطي وكلامه عن الغرانيق العلا ، أليس من الصواب أن أحكي عن السيوطي لمشايخي وأساتذتي في الأزهر ، هم أولى

بذاك الحكي والكلام من غيرهم ؟ لكن تجهمهم وخوفي كان يلجمني . محاضرة "لطفي السيد "حلت قيودي . لما سألني غير واحد من أصدقاء " فريد " عن انطباعي بعد المحاضرة قلت :

- نحن محتاجون لمئات من نوعية هذا الرجل الشجاع .

كان فريد أكثر الموجودين سعادةً بما أحدثته المحاضرة في نفسي .

صباح هذا اليوم لم يوقظني " فريد " كعادته وهو يتجه إلى عمله ، محل عمله في المطبعة مع أحد أقربائه لأمه ، فقد كان ينعطف ناحية العمارة التي أقطنها ثم يصعد ثلاث درجات فقط ليجد نفسه في مواجهة باب شقتي الصغيرة ثم خبطات على الباب بعدها أصحو ثم أبدأ يومي وينصرف هو دون أن أراه . في صباح هذا اليوم لم يتوقف الطرق على الباب ، لم ينصرف الطارق كالعادة ، اتجهت للباب متثائباً . لما فتحت الباب كانت " هيلانة " واقفة كانها القمر ليلة التمام في أبهى حلة وأنضر مُحيّا .

- صباح الخير يا أحمد (مستدركة) قصدي يا شيخ أحمد .

متلعثمًا قلت :

-صباح النور .. شكراً لتعبك .
- أبداً .. تعبك راحه .. أنا حبيت أقول لك : بابا منتظرك الليلة تآنسنا شويه لو كان وقتك يسمح (ثم أضافت) وكمان قلت أصحيك علشان تروح الأزهر .
انصرفت " هيلانه " وما كنت أود أن تنصرف .
ساعة من انصرافها وكنت محشوراً بين طلاب الأزهر بجوار عمود من أعمدته العتيقة ثم دقائق وكان حضور الشيخ المحاضر كفيلاً بأن يصمت الجميع . كان الدرس حول (علوم القرآن) نشأتها وأهميتها . استرسل الشيخ المحاضر في علم أسباب النزول وأهميته . كأن على رؤسنا الطير ، لا يستطيع أحد أن يقاطع الشيخ ولو مستفسراً ، غير أن الطالب " عبد الرحمن البحيري " بإلحاحه
استطاع أن يوجه للشيخ سؤالا مستوضحا منه حول القاعدة الفقهية والتي طالما رددها العلماء : " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب "
الطالب " عبدالرحمن " أصرّ على أن الذي وضع هذه القاعدة بشر والبشر يخطئون ويصيبون ولا يصح أن نتقبل كل ما قاله السلف دونما نقاش وشك .
عندما سمع الشيخ كلمة الـ (شك) انتفخت أوداجه وكأن عفاريت الدنيا امتطته ثم صرخ :
- أطه حسين من جديد ؟! .. تاني .. شك وزفت وقلة أدب ؟!(ثم محذراً ومنذراً)
- أنا مش عايز أسمع الكلمة دي تاني هنا . الشك مرض يصيب الله به المنافقين والفسّاق .
قلت لنفسي : كيف يصيب الله الناس بالنفاق والفسق ؟! أليس من الواجب علي الله أن يشفي قلوبنا من الأمراض ؟ !
في اليوم التالي تمَّ استدعاء الطالب " عبد الرحمن البحيري " لمكتب

سكرتير شيخ الجامع الأزهر ومن ثمّ التحقيق معه حول الغرض من سؤاله لشيخه وعن تلفظه بكلمة الـ (شك) !
انتهى التحقيق إلى تحذير " البحيري " تحذيراً أخيراً بعدم تتبع خطوات الشيطان والبعد عن الجدال الذي نهانا عنه فقهاؤنا الأجلاء .

****

الورقــة 2

مساء هذا اليوم ، قررت أن أصعد الدور الثاني لألتقي لأول مرة أسرة " هيلانة " . إن دخولي بيت قسيس لم يكن بالحدث الجديد ، فلطالما دخلت كنيسة العذراء في [مير] ولطالما التقيت رجال دين مسيحي في بيت المقدس " سمعان " و سلمت عليهم و جلست معهم .
صعدت الدور الثاني لأجد في مواجهتي لافتة صغيرة مكتوب عليها بخط جميل وواضح [منزل القمص / فادي عبد النور] . طرقت باب الشقة طرقات خفيفة ومرتعشة غير أن الهدوء داخل الشقة جعلها مسموعة تماما . صوت أكثر خشونة من صوت " هيلانة " جاء من داخل الشقة :

- حاضر ياللي بتخبّط .. ثواني بس .
انفتح الباب داخل الشقة على وجه مبتسم بشوش لامرأة وخَطَ الشيب شعيرات تدلت بجوار أذنيها .
- أهلاً وسهلا . اتفضل يا ابني . إنت أكيد الشيخ أحمد .
مرتبكاً قلت :
- نعم يا أفندم .. أنا أحمد .. أصل الست هيلانه ... (قاطعتني منهية ارتباكي الواضح)
- أيوا يا ابني .. كلنا منتظرين زيارتك لينا (وهي تشير بيدها إلى داخل الشقة) اتفضل .
دلفت للداخل لتستقبلني رائحة بخور طيبة مختلطة برائحة شواء اللحم والذي كانت تعده هيلانه من المطبخ كما عرفت

لاحقاً . أشارت الست الوالدة إلى حجرة مفتوحة وطلبت مني أن أنتظر هنا قليلا ريثما يأتي زوجها القمص .
داخل حجرة الجلوس وقعت عينيّ على مكتبة متوسطة الأرفف مكتظة بالكتب المتراصة . لمااقتربتُ من الكتب ؛ هالني أن بها كتباً في تفسير القرآن وكتب فقه إسلامي بجوار كتب تفاسير للإنجيل وغيرها من كتب الدين المسيحي وعلم اللاهوت الذي أعرف عنه القليل من ماريان في مير .
الكتب لاتتشاجر مع بعضها رغم الاختلاف البيَن والواضح فيما بينها ! على كرسي وثير جلستُ في مواجهة صورة للعذراء وابنها ذكرتني ببيت المقدس " سمعان " .
صوت فتاة تغني يتسرب من جرامافون إلى حجرة الجلوس ومن ثمّ إلى أذني . صوت فتاة رصين
ومدهش : الصب تفضحه عيونه *** وتنمّ عن وجد شجونه
(فيما بعد عرفت من القمص أنه صوت الآنسة [أم كلثوم] والكلمات للشاعر[أحمد رامي] والألحان للشيخ [أبو العلا] .
رحت أردد مع الجرامافون كلمات الأغنية ونسيت لوقت أني ضيف عند رجل دين . القمص دخل وألقى التحية :
- مساء الخير يا شيخ أحمد .
هممت واقفاً . وضعت يدي في يده وقلت :
- أهلا يا أبونا .. مساء الخير .
أمرني أن أجلس . كأنه لمح في عقلي سؤالاً :
- ده يا سيدي صوت الآنسة أم كلثوم . اسطوانة اشتريتها

النهارده وأنا راجع من الكنيسة (ثم وهو يضع رجله اليمنى على اليسرى) أنا باحب الصوت الجميل والبنت دي سوف يكون لها شأن عظيم في عالم الطرب (ثم أردف) كمان هي بتختار كلمات أغانيها بدقة تُحسد عليها . في البداية ظننتُ أن صوت المطربة جاء من شقة أحد الجيران ! تعجبت في نفسي لما عرفت أن القمص يستمع الأغاني وتساءلت : هل تبيح المسيحية سماع الأغاني ؟!

- لا تتعجب يا شيخ أحمد فالمسيحية لا تعرف – كما عندكم – هذا حلال وهذا حرام ، عندنا في المسيحية نقول : هذا يليق أو لا يليق (ثم استطرد القمص) : على أية حال ، عندنا رجال دين متذمتون ويمنعون سماع الأغاني والموسيقى (ثم وكأنه تذكر) :

- أنا آسف يا ابني .. دي أول زيارة ليك عندنا وأنا دخلت في موضوع تاني . على العموم إنت نورتنا وشرفتنا واعتبر نفسك واحد مننا .

- شكراً يا أبونا .. أتمنى ما أكنش سببت لكم إزعاج .

مبتسماً قال نافياً :

- أبداً أبداً .. حضرتك إضافة جميلة لنا جميعاً يا مولانا .

دخلت علينا " هيلانه " تحمل بين يديها صينية مرصوص عليها أكواب من عصير المانجو . لفت انتباهي أن الأكواب أربعة . لما سألتها قالت :

- أنا وماما سوف ننضم لكما الآن إلى أن ينضج الطعام فوق النار .

أذكر ... في هذه الليلة تناولت – لأول مرة – طعام العشاء مع أسرة القمص . عرفت أن زوجته السيدة " إستير " إيطالية المنشأ حيث أنها وُلدت في نابولي لأم إيطالية وأب مصري من أعيان مديرية الدقهلية . للقمص ولدان يعيشان في انكلترا مع عمهما . الولدان ملحدان كما عرفت ، أحدهما لا يؤمن بنظرية الخلق أصلاً وأما الثاني فهو من اللأدريين أو الربوبيين . هالني أن القمص يتحدث عنهما بحب واحترام وشوق رغم أنهما ملحدان . قال لي القمص : شوف يا ابني ، الله خلق الكون مختلفًا ومتنوعًا . من أراد النعيم فليذهب إليه ومن أراد الجحيم فليتفضل . الله يريد لنا جميعا أن ننجو من الجحيم وهو يحبنا كلنا ويريد لنا الخلاص . وأنا لا أسمح لنفسي أن أكره المختلف عني .

راعتني درجة الحب والتفاهم التي تسود بين أفراد الأسرة الصغيرة .
أذكر – ساعتها – أن هيلانة شاركتنا الحديث عن الحب الحقيقي الذي غاب كثيراً عن الناس .
قاطعتها قائلا :
- ربما أن الناس هم الذين غابوا وابتعدوا عن الحب .
السيدة " إستير " أبدت إعجابا برأيي وقالت :
- أنت أزهري متفتح ومستنير .
كانت أمسية رائعة ، انصرفت في نهايتها على وعد مع القمص وأسرته لتكرار الزيارة . خرجت ليلتها من عندهم منشرح الصدر . لما دخلت شقتي وهممت بالوضوء كي أصلي العشاء قلت في نفسي :
- لماذا لا يحب الناس بعضهم البعض وهم ضيوف عند الله حتى وإن

اختلفت وتباينت عقائدهم ؟! لماذا لا يتركون الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما هم فيه مختلفون ؟
أدّيت صلاة العشاء ونمت بعدها مطمئنا .

في الصباح جاءني " فريد " ومعه رسالة كان قد كتبها والده وأرسلها له يخبره فيها :(كن بجوار أحمد معزياً له فأمه قد ماتت) .
إذن فلقد ماتت الحاجة " سعدية " . نزل الخبر على روحي كالصخرة المدببة . انهرتُ ساعتها في بكاء مرٍّ . ماتت أمي وأنا هنا لم ألقِ عليها نظرةً أخيرةً ولم تُقبّلني كما كانت تفعل دوماً .

اصطحبني " فريد " إلى شوارع القاهرة ، لم يذهب إلى عمله . قادني إلى منزل أقربائه . مكث معي طوال اليوم يواسيني وأقرباؤه ويربتوا على روحي الموجوعة .
اليوم صرتُ يتيماً . وأما الشيخ " عبد العليم " فلا أعرف كيف هو الآن ؟! ربما لولا إيمانه بالله لمات منتحرا كيما ينام بجوار أمي . لم أعرف عن الشيخ شيئاً من رسالة المقدس " سمعان " .
ربما هو الآن يقعي منتحباً وحده . ربما يحيط به المصلون من المسلمين يعزونه . ربما يكون قد ارتمى في أحضان أسرة المقدس يقاسمونه آلام الوحدة المميتة . ربما .. وربما .

****

الورقـــة 3

قبل أن أرفع يديّ لتكبيرة إحرام صلاة الظهر في صحن الجامع الأزهر ، أمسك الشيخ " عبد الرحمن البحيري " بيميني هامساً في أذني :

- إياك أن تنصرف بعد الصلاة . أنا في انتظارك لأمر هام وضروري .

تراجع " البحيري " بعدها واندسّ بين المصلين في الصف المتراصّ خلفي . أدينا صلاة الظهر وانصرفت وعيناي عليه حتى لا يتوه مني وسط زحام الطلبة ورواد الأزهر . بعد أن خرجنا من الجامع تأبط البحيري ذراعي وملتُ عليه بوجهي :

- وما هو الأمر الهام والضروري يا شيخ عبد الرحمن ؟

- انتظر حتى نجد مقهىً نجلس فيه ثم نحكي معاً .

قادتنا أحذيتنا إلى مقهى [الفيشاوي] في حي الحسين . جلسنا معاً وطلبنا شاياً بالنعناع وشيشة له . قال البحيري :

- اسمع يا شيخ أحمد (وهو يوسع من حدقتيه) أنا سمعت امبارح خبر من أحد مشايخنا المقربين من فضيلة شيخ الجامع .

- وما هو الخبر ؟ قل يا شيخ عبد الرحمن وكفاك تشويقا .

- لقد نبا إلى علم فضيلته أنك تذهب لمحاضرات الأستاذ " أحمد لطفي السيد " في الجامعة الأهلية وأن أحد الوشاة شاهد معك كتاب (في الشعر الجاهلي) لـ طه حسين !

- وهل هي جريمة أن أحضر محاضرات الأستاذ لطفي السيد ؟ وما العيب في أن أقرأ كتاب الشعرالجاهلي يا شيخ عبد الرحمن ؟!

- اهدأ قليلاً يا مولانا ، أنا عن نفسي وآخرون غيري نقرأ كتب سلامه موسى وأحمد لطفي السيد وطه حسين كمان ياسيدي ! (ثمّ أخرج

البحيري من حقيبة كانت معه كتاب صحيح البخاري ووضعه على الطاولة التي تتوسطنا وسألني :

- هذا كتاب صحيح البخاري ! (قلت مندهشًا)

وبصوت ممتلئ باليقين قال نافياً :

- لا .. لا يا سيدي .. إنه كتاب في الشعر الجاهلي لـ طه حسين .

- إزاي ده ؟ ! .. الغلاف مكتوب عليه صحيح البخاري !

تناول البحيري الكتاب ثم نزع الغلاف السميك ليظهر من تحته كتاب في الشعر الجاهلي !

ساعتها أخبرني البحيري أن كثيرين من طلبة الأزهر يفعلون هذا ، يضعون غلاف كتاب في الفقه أو الحديث فوق كتاب من الكتب الممنوعة يريدون قراءته وذلك حتى لا يتعرضون للقيل والقال من المتذمتين من الطلبة والمشايخ وما أكثرهم .

عندما جاء الجرسون ببراد الشاي الساخن ؛ كان الحديث مع الشيخ البحيري قد ازداد سخونة .

وقتها ، قلت لنفسي : أنت تجلس مع أزهري مستنير ، فلتحادثه مصارحاً إياه بما يحيك في صدرك .

قررت فعلا أن أفاتح صديقي الشيخ " عبد الرحمن البحيري " عما يجول ويجوس في عقلي .

- اسمع يا شيخ عبد الرحمن ، أنا قبل أن ألتحق بالأزهر كنت قد قرأت في كتاب للسيوطي عن حادثة الغرانيق (قررت أن لا أحكي له عن حكاية جبريل معي) ومنذ ذلك اليوم وأنا مصدوم في القصة .

ضحك البحيري بخبث وعلق قائلا :

- أنت مصدوم في القصة أم مصدوم في النبي ؟‍!

قلت له :
- الحقيقة أنا مصدوم في كليهما خاصة بعدما تعمقت في البحث عن أصل الحادثة ومدى صحتها وعرفت أن لها تأصيلاً عند الإمام [ابن حجر العسقلاني] وأنت تعرف قامته وقيمته عند علماء السلف ، ناهيك عن ذكْر الطبري والسيوطي والنيسابوري وغيرهم للقصة في مؤلفاتهم .
مال البحيري ناحيتي وقال يخفض من صوته :
- يخرب عقلك يا شيخ احمد ، أنا وغيري انتابتنا نفس الصدمة ، لكن أحداً لا يجرؤ على الكلام في تلك القصة وسوف يكفروننا وربما يوشون بنا للملك والذي يزعم أنه خليفة المسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانية على يد أتاتورك .
لما انتهى البحيري من تحذيره لي ، قلت له :

-لا يا بحيري .. ألا لا نامت أعين الجبناء . لا بد أن نواجه مشايخنا بالمسكوت عنه في تراثنا وعلى الأقل نظهر أنفسنا وكأننا نتساءل عن تلك الأشياء أو كما يسمونها الشبهات . يجب أن يتحدثوا معنا وإما أن يقنعونا أو يعترفوا لنا بالحقيقة !
- حقائق ؟! أية حقائق يا شيخ أحمد ؟ أعندك تساؤلات أخرى غير حكاية الغرانيق ؟ (سألني) وأنا أعتدل في جلستي لأواجهه تماما ، قلت وانا أضغط على الحروف مؤكداً :
- نعم يا بحيري .. القرآن الذي حفظناه عن ظهر قلب ، به من البلاوي والمتناقضات الكثير .
تصنع البحيري الهدوء وحاول أن يتماسك وقال :
- مثل ماذا يا احمد .. هه .. هه .. قل لي .
- قصة زواج النبي بأكثر من أربعة .بل إنه جمع أكثر من أربعة نساء في

وقت واحد (!) ألا يعد هذا تناقضاً ؟!
قال الشيخ البحيري :
- يا أخي .. ربما أن هذا تناقض في شخصية الرسول ، لكن أنا أريد التناقض في القرآن !
قلت :معك حق يا بحيري ، شخصية النبي أصلاً ممتلئة بالتناقضات(ثم أردفت) القرآن يدعو إلى حرية الكفر والإيمان في قوله"فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " وفي آية أخرى يأمر المؤمنين أن يقتلوا أهل الديانات الأخرى حتى يؤمنوا حيث يقول في سورة التوبة : [فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم] .
هذه الآية يا شيخ " عبد الرحمن " أجمع العلماء – علماء الإسلام – أنها نسخت (ألغت) كل آيات التسامح والموادعة السابقة عليها ، وقد أطلق العلماء - عليها دون خجل – آية السيف .
قلت للشيخ البحيري متسائلا فيما أذكر : أي دين هذا يا شيخ ؟ ! أي إله هذا الذي يأمر أتباعه بشيء ثم يأمرهم بعد ذلك بنقيضه ؟!
سألني البحيري :
- وماذا ترى يا شيخ أحمد ؟ ماذا بأيدينا نفعله ؟!
قلت له :
- بأيدينا الكثير والكثير .. علينا أن لا نكون أقل من طه حسين وهو أزهري سابق ولطفي السيد وغيرهما .. يجب أن نتحلى فقط بالشجاعة في مواجهة جحافل الظلام .
قال كأنه يستسلم ليأس غامض :
- وما تجدي نقطة ضوء أمام محيطات الظلام الذي يحاصرنا من كل جانب ؟!
قلت :

- هذا كلام اليائس الخائر القُوَى . سوف أنتظر أقرب لقاء لشيخ الجامع الأزهر وأطلب منه الكلمة ، بعدها سأفجر مثل تلك الأسئلة في وجهه وعليك أن تؤازرني أنت وكل أصدقائك الذين لا أعرفهم .

قبل أن ننصرف عصر هذا اليوم ، استوقفني الشيخ البحيري وسألني :

- إلا قل لي يا شيخ أحمد : لماذا تصلي ؟ وماذا تقرأ في الصلاة ؟ أنا آسف يا أحمد .. بس هو سؤال طرأ على بالي الآن !

ساعتها لا أنكر أنني قد تفاجأت بالسؤال لكنني لم أستطع أن أجيبه :

- سوف أجيبك يوما ما يا بحيري .

انصرفنا على أمل اللقاء في مواجهة فضيلة شيخ الجامع الأزهر قريباً .

****

الورقــة 4

في طريقي إلى مسكني ، شاهدت مجموعة من الناس في شارع الألفي يقرؤون إعلاناً مثبتاً على جدار عمارة شاهقة . اقتربت منهم لأقرأ معهم المكتوب :

[تحييكم وتستقبلكم بعد احتجابها الطويل فحيوها
وتطربكم بصوتها الحنون بكل جديد مدهش لأول مرة

بمسرح " رمسيس شارع عماد الدين "

الآنسة [أم كلثــوم]

على تخت مؤلَّف من :
محمد العقاد ومحمد القصبجي وكريم حلمي

أغاني من نظم شاعر الشباب
الأستاذ / أحمد رامي

توجد ألواح حريمي غاية في الحفظ والصـون
فتذكروا ولا تنسوا يومي 6 و 8 يوليو سنة 1935
توجد مراوح كهربائية كبيرة لجلب الهواء داخل التياترو]

بعد أن قرأتُ الإعلان والذي كانت شركات الاسطوانات والحفلات تهتم به وتقوم بتوزيعه على الناس أو بلصقه في الشوارع والجرائد اليومية . واصلت السير على قدميّ . فتحت باب الشقة لأجد ورقة ملقاة تحت الباب ولما فتحتها قرأت :

" حضرتُ لزيارتك واصطحابك إلى وسط البلد ولم أجدك . انا موجود في مقهى [ريش] مع الأصدقاء "

(فريد)

قررت أن لا أخرج اليوم ثانية . سأقعد على مؤخرتي أمام الطاولة لأكتب ما سأنتوي مناقشته أو قوله أمام شيخ الجامع الأزهر في أقرب فرصةٍ تسنح لي .

من أين أبدأ . أمسكت بالقلم الكوبيا وأوراقٍ كنت قد جمعتها ورتبتها لتصنع دفتراً متوسط الحجم ثم دبستها بدبوسين من المسمار . من أين أبدأ ؟ .. الحقيقة ، أن دراستي هنا في الأزهر قد فتحت عقلي على قضية مبثوثة في ثنايا الكتب التراثية قلما انتبه كثير من الدارسين لها ، ألا وهي قضية (الناسخ والمنسوخ في القرآن) ، فما معنى أن تنزل آية من الله ويؤكد الصحابة أنهم كانوا يقرؤونها ثم تجد أن المصحف

خالياً منها تماماً ، بل الأدهى أن حكمها لم ينسخ ! أي أن على المؤمنين أن يعملوا بها ولا يقرؤوها ! أيُّ عبثٍ هذا ؟ !

سحبت من مكتبتي الصغيرة كتاب (الناسخ والمنسوخ) لأبي جعفر النحاس ثم تأكدت من نص الحديث الموجود في البخاري الذي يقدسه المسلمون كالقرآن حذوك النعل بالنعل ! ثم رحت أسجل نَصَّ الحديث معتمداً أيضاً على كتاب صحيح مسلم والبخاري والنص

لمسلم :

" قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله (ص) : إن الله قد بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أُنزِلَ عليه آيةُ الرجمِ . قرأناها ووعيناها وعقلناها . فرجم رسول الله ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمانٌ ، أن يقول قائلٌ : ما نجد الرجم في كتاب الله ، فيضلّوابترك فريضة أنزلها الله ، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة .. "

أما نصُّ الآية المحذوفة – دونما سبب – فهو " والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة " أو كما جاء في كتاب البرهان للإمام الزركشي : " كانت سورة الأحزاب تساوي سورة النور فكان فيها :

(والشيخ والشيخ إذا زنيا فارجموهما البتة ..) !

وكنت أتساءل : لماذا حُذفت هذه الآية رغم أنها صالحة للحكم والعمل بها ؟ !

كيف امتدت الآيادي البشرية لتحذف من آيات الله آيةً ؟ !وهل تخلّى الله عن وعده الذي وعد به بحفظ كتابه حينما قال " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " ؟!

وعلى صحة أن الله هو الذي نسخها وأزالها من المصحف ، فأين الآية التي هي خير منها أو مثلها كما قال سابقاً "ما ننسخ من آية أو ننسها.نأت بخير منها أو مثلها" ؟!

أصبح عندي ما يشبه اليقين ، وأنا الأزهري الحافظ للقرآن والدارس للسنة أن من يحذف فهو بلا شك يستطيع أن يضيف .

سوف أسأل فضيلته : إن كتاباً يُحذف منه ويضاف إليه ، أيستحق منا أن نقدسه ؟!

لا أعرف لماذا خطر على قلبي الشيخ عبد العليم وهو يقرأ القرآن ولا يفكر فيه ؟! ترى أين هو الآن ؟ سقط القلم من يدي وأنا أكاد أشعر بوجود أبي معي الآن . نَفَسُه وحضنه وصوته الصعيدي الرصين .

نسيت لوقتٍ ما كنت أكتبه . سيطر على بالي أن أسافر الآن إلى (مير) ، إلى والدي أرتمي في حضنه .أبكي معه رحيل أمي من جديد .

في الصباح ، أخبرت " فريد " أني أريد السفر إلى والدي . غير أنه فاجأني قائلًا :

- الشيخ رحل من (مير) بعد رحيل الست الوالدة يا شيخ أحمد . سافر من غيرما يعرَّف عمك سمعان ويقول له حتى هو رايح فين !

أشرقت الشمس ذات يوم في مير ذات صباح دون الشيخ .

كان وقع رحيل الشيخ الوالد من قرية (مير) على قلبي كوقع رحيل أمي من الدنيا أيضاً .

رحلت أمي إلى حفرة تحت الأرض ، وأما الوالد فقد رحل إلى حفرة فوق الأرض .

آآآه .. غريبة هي الحياة ؛ نأتيها أو تأتي هي بنا على غير ما رغبة منا أو إرادة ثم نرحل منها أو تطردنا هي ، وما بين الجبرين – جبر المجيء وجبر الرحيل – نحياها ولكن على شروطها هي !

ارتميت في حضن " فريد " الذي أجهش بالبكاء وأما أنا فقد ابتلعتُ دموعي المُرَّ ّة .

في هذا المساء ، تواعدنا أنا وفريد وأصدقائه لحضور حفل الآنسة أم كلثوم والتي كان صيتها صاعداً كالصاروخ . في مسرح رمسيس بشارع عماد الدين ، جلسنا في الصف الثالث برغم وصولنا مبكراً عن كثيرين .

جلست " إيفا " – كما هو متوقع – بجوار " فريد " . فوجئت بالشيخ " عبد الرحمن البحيري "يدخل مع صاحب له ربما رأيته من قبل وقبل أن أنادي عليه كان قد لمحني برغم خفوت الإضاءة ، اتجه وصاحبه ناحيتي ولما اقتربا مني قال البحيري - كنت متوقع أشوفك هنا يا شيخ أحمد .
ساعتها ، عرَّفني بصاحبه الذي يعمل في محل بقالة بجوار المحل الذي أعمل أنا به بعد الدراسة أحياناً . ظروفه مشابهة لظروفي . يعمل ويصرف على نفسه ويدرس أيضاً في الأزهر . جلس البحيري وصاحبه على يساري . أثناء تقدمة مدير المسرح لأم كلثوم لمحتها تدخل وأمها . أدهشني ذلك الحضور المفاجئ للسيده " إستير " و " هيلانة " .
أُطفئت – أثناء دخولهما - إضاءة المسرح الخافتة أصلاً غير أن " هيلانة " أضاءت المكان بوجودها المدهش . مرّتا من أمامي تماماً . وقفتُ وتنحنحتُ لألفت نظر هيلانة والتي كانت متأخرة عن والدتها قليلاً . التفتت ناحيتي .كان وجهها مقابلا لوجهي . نظراً لضيق الممر

شعرت بنَفَسِها يجتاحني . قالت : أهلاً يا شيخ أحمد ، معقوله حضرتك هنا ؟!

مددت يدي . سلمت عليها . شعرت ببرودة سرت في جسمي طردت سخونة يوليو القاسية . اضطربتُ قليلا لما تَرَكَتْ يدها اللدنة والرقيقة في كفي . قلت :

- لو كنتُ أعرف إن حضرتك هاتيجي الحفل ، كنت انتظرتك ، لكن ... (قاطعتني وقالت) :
- على العموم سوف نلتقي بعد الحفل ونتكلم .

واصلَتْ السير بعدما أفلتت يدها من يدي . لما جلستُ لمحت سؤالاً خبيثاً في عين البحيري .
قلت مجيبا على سؤاله الذي بدا واضحا في عينيه :
- أبداً يا شيخ عبد الرحمن ، دي جارتي واسمها هيلانة والست اللي معاها دي والدتها السيدة إستير .

قال ضاحكًا :

- هو انا قلت حاجه (وبلؤم أزهري) بس ما شاء الله ، شكلها مهتمه بيك .
- يا بحيري : اتق الله ولا تظننّ السوء بالآخرين (قلت ضاحكاً) .
- إحنا عندنا سورة اسمها (مريم) وإنت عندك صورة اسمها (هيلانه) .
ضحكنا ثلاثتنا ثم انفتح الستار على فتاة صغيرة واثقة من

نفسها وهي تحيي الجماهير وخلفها تخت موسيقي بسيط .
بعد انتهاء التصفيق الحاد ؛ بدأ التخت المصاحب لها في
عزف المقدمة الموسيقية

لأغنية (أراك عصيَّ الدمع) من ألحان / عبده الحامولي .
شعر/ أبو فراس الحمداني . عندما وصلت أم كلثوم إلى
مقطوعة :

وفيت وفي بعض الوفاء مذلة
لآنسة في الحي شيمتها الغدر

لا أعرف لماذا مدَدتُّ وجهي للأمام متجها ببصري ناحية المكان الذي تجلس فيه هيلانة رغم أن صفة الغدر أبعد ما تكون عن مثلها .

بعد انتهاء الحفل ؛ التقيت " هيلانة " ووالدتها . مدة الحوار لم تكن كبيرة ؛ فأنا كنت مرتبطاً بفريد وأصحابه والشيخ البحيري الذي كنت أنتوي أن أُعرِّفه بـ " فريد " وأصحابه الذين خرجوا أثناء وقوفي مع " هيلانة " وأمها التي استأذنت منها لأنصرف لأصدقائي وعيني على هيلانة . هزت الأم رأسها بالموافقة وأما هيلانة فقد همست في أذني :

- عايزه أشوفك لوحدك واتكلم معاك (سألتني) : ممكن ؟
قلت دونما تردد : أكيد ممكن .
إنصرفتُ مع أصدقائي وأما هي فقد انسحبت مع والدتها .
****

الورقـــــة 5

هذا الصباح وقبل أن أخرج من مسكني متجهاً إلى الأزهر وقعت عيناي على وريقة مطوية أسفل عتبة الباب ، انحنيت والتقطتها . كان المكتوب عبارات قصيرة مكتوبة بقلم الكوبيا:

" صباح الخير

أرجو أن ترجع من الأزهر مبكراً قبل الظهر إن استطعت سوف أتناول معك الغداء الذي سأطهوه أنا وأنت في شقتك

ملحوظه :

لا تشتر شيئاً من لوازم الطعام أثناء عودتك . أنا عامله حساب كل حاجه كويس . وكمان هاعلمك فن الطهي "

(هيلانه)

منتشياً انطلقت إلى الأزهر مخترقاً شارع الألفي مشياً على قدميَّ . متى تمر الساعات بسرعة حتى أعود لهيلانه ؟ ساءلت نفسي :

- لماذا ؟ ماذا تريد مني ؟ هل هو عطف أو شفقة ؟ أنا أبغض العاطفة المختلطة بالشفقة . تتابعت الأسئلة تترى على رأسي حتى وجدتني في صحن الجامع الأزهر وسط المعممين الأزهريين . قبل منتصف النهار كنت قد غادرت الأزهر بعد أن حضرت درساً حول أصول الفقه ونشأته وتركت المحاضرة

الثانية والتي كانت في علم التفسير . عدت إلى مسكني يحدوني الشوق لهيلانه وما كنت أحلم أن ألتقي بها وحدي وفي سكني المتواضع .
عندما دلفت الشقة حاولت على جناح السرعة أن
أرتب المطبخ وألملم الكتب المتناثرة وأكواب الشاي وفناجيل القهوة . نظّفتُ الأطباق والأكواب .ارتديت بنطالاً نظيفاً رمادي اللون وقميصاً أصفر و أحرقت بخوراً كنت قد ابتعته من عطّار في شارع الأزهر منذ يومين . غسلت وجهي مرتين ! دقائق وسمعت نقراً خفيفاً على الباب . فتحت الباب لأجد "هيلانة" في أحلى هيئة ترتدي جيبة زرقاء وبلوزة مشجرة بالورد الأحمر والأخضر . لما دعوتها للدخول دخلتْ وبيدها شنطة بلاستيك بها الخضار وما جهزته للطعام .
دخلتْ الشقة ثم انعطفتْ يساراً كأنها تعرف مكان المطبخ ثم بدأتْ تصدر لي التعليمات كيما أساعدها . استوقفتها لأسألها عن سر هذا الفعل المفاجئ وأين والدها ووالدتها من كل هذا ؟! قالت لي وهي تخرج الطماطم واللحمة وباقي محتويات الشنطة البلاستيك ودونما أن تنظر ناحيتي :

- بعدين .. بعدين سأشرح لك ، المهم عليك الآن بغسل الطماطم وتقشير البصل والتوم و....
عمدت هي إلى طبق كبير ووضعت فيه اللحمة وتركت حنفية الماء مفتوحة عليه . صوت الماء جعلها ترفع صوتها قليلا وهي توجه التعليمات لي . أحضرت سكيناً ورحت أقشر البصل المطلوب والذي ملأ عينيّ بالدموع . غسلت عينيّ وضحكت هيلانه من خيبة الرجال ! أمرتني أن أتابعها وهي تعد الطعام حتى أفعل هذا وحدي دونما

مساعدة من أحد وبدلاً من الأكل في المطاعم المكلفة . ألقت باللحمة في حلّة متوسطة الحجم فوق النار بعد أن كانت قد قطّعتها قطعا متوسطة ثم ألقت ببصلتين
مقشرتين في حلّة اللحمة وغطتها وتوجَّهت إلى الصالة وطلبت مني أن أتبعها . جلستُ قبالتها على كرسي عتيق متهالك وأما هي فكانت قد جلست على الكنبة الوحيدة والمنجدة . لاحظت هي درجة النظافة في الشقة وزكمتها رائحة البخور التي لم تبدِ أي إعجاب به !
لأول مرّة أحدِّق في وجه " هيلانة " ، تلك الفتاة التي تمتلك سحراً غامضاً ربما لا تشعر به وهو يتسلل لخلاياك . بعيداً عن شَعْرها المسترسل على كتفيها في شكل أسطوري رائع وعينيها العميقتين باللون الممتزج ما بين الأسود والبني وبعيداً عن تقاسيم وجهها المصنوعة بيد فنان أحب صنعته حباً كبيراً ، تركتني ولا أعرف لماذا ؟ تركتني أتفرس في وجهها كالمشدوه . وجهها الذي يبعث في النفس طمأنينة ممتزجة بقليل من القلق ! تمتلك "هيلانة" جسداً غير عادي لا كأجساد البنات الأخريات . ما الذي تتميز به عن مثيلاتها ؟ أنا لا أعرف . قاومت عينيّ وهما ترغبان في النظرتجاه صدرها غير أني فشلت فغرقت بين نهديها المعبرتين عن فتاة لا تنتمي لكوكبنا . عندما تتحدث كنت أشعر بإحساس لذيذ يجتاحني من الداخل مسببا جريان الدماء في عروقي جريانا غير معتاد ومن ثم تزداد نبضات قلبي نبضات زائدة عن المطلوب . اليوم أُعلن أن الولد القروي والصعيدي قد مات

بداخلي وولد مكانه شاب آخر يترك عينيه تجوسان جيئة وذهابًا داخل خلايا جسد هيلانة . كانت نظراتي تعريها تمامًا .

هل كانت ساعتها تدرك ما يعتمل في صدري ؟ هل كانت تعرف أن خيولاً مقيدة انطلقت الآن تصهل تحت جلدي ؟ .. ربما .. لا أعرف .
استيقظت من تهويماتي على :
- ماما اصطحبت بابا في زيارة لإحدى صديقاتها في حارة اليهود ولقيتها فرصة ربما قد لا تتكر ثانية كيما أتحدث معك وأقضي معاك وقت كويس عن قرب وأتغدى معاك (قالت هيلانة)
قلت : - ربما أنا لا أستحق كل هذه المحبة والاهتمام .

- لا يا أحمد أنت تستحق ما هو أكتر من كده .
قلت لنفسي ساعتها : ترى ما هو الأكثر الذي أستحقه من ربة الحسن والجمال ؟!

تمنيت يومها أن يسحب الله العالم بعيداً عني ويبقيني مع "هيلانة" بقية عمري بعد أن يكون قد زاد سنوات فيه . لم تتركني في حالة الوله الذي انتابني وأطلقت ناحية قلبي تلك العبارة :

- أنا بأحبك يا أحمد .. صدقني .. من أول يوم شوفتك فيه هنا وأنا مش عارفه إيه اللى جرى لي ؟
صدقني أنا قاومتك كثيراً وأنت تأتيني في أحلامي خجولاً .. كأن خجلك كان يغويني بك أكثر !
تركتها تسترسل ودخلتُ في تجربة روحية أشبه بتجارب الصوفيين الذين قرأت عنهم وسمعت من الشيخ عبد العليم عنهم .

ماذا تقول تلك المجنونة ؟! تحبني ؟ أنا ؟ كيف ؟ لماذا ؟ ..
وكأنها تقرأما يحيرني قالت :

- لا كيف ولا لماذا ولا أين ولا متى في الحب يا أحمد ! .. هو الحب ولا شيء بعده يُقال .
حاصرتني بكلامها الحلو وحاصرتني بجسدها الرائع . ماذا يفعل عصفور وهو يرى بأم عينيه الرصاصات قادمة إليه من كل النواحي ؟!
لا شك سيُقتل ، لكنه قتل يحيي الروح والنفس والجسد .

تُرى ما الذي يقرر عواطف المرء ؟ هل هو المنطق ؟ تشابه الفكر؟ لا أظن .. أعتقد أنه توجد أسباب أخرى تلعب دوراً رئيسياً وحادّاً كالنصل . ربما هي أسباب تشبه السحر الذي يقود وحده قلوبنا ليقدمها قربانا على أعتاب الحب . أعتقد أنه ربما يجب علينا أن نترك لقلوبنا وحدها القيادة وسلطة القرار .
لقد وُلدت بيني وبين هيلانة حالة من القبول والمودة – ربما – حالة من الأُنس بوجودهل معي .
إن لصوتها .. لعينيها .. لرائحتها لغة شفافة شديدة النفاذ وطاغية الحساسية . كنت أستجمع - وأنا أتفرس في وجهها - كلمات كيما أطرد هذا الخرس الذي ألجمني ... و أخيراً نطقتُ :

- صدقيني يا هيلانه ، ربما أنت أكثر جرأة وتعبيراً عن عواطفك ، لكني أمتلك إحساساً ناحيتك لا يقل عن إحساسك ناحيتي..أنا..أنا (ثم تلعثمت وتاهت مني الكلمات) . أرادت أن تنقذني من غرقي في خجلي وهمَّت واقفة وقالت :
- على فكره الأكل بينادي ويقول : تعالوا أنا قربت أشيط . ثم ضحكت

بغنج أربكني وألهب الرجل القابع تحت جلدي . عندما تحركت تجاه المطبخ أمرتني أن أتبعها ، وقف محجري عيناي فوق مؤخرتها المكتنزتين والرائعتين وهي تمشي حافية على أرض الشقة ؟ أم كانت تتمشى في شراييني المرحبة بها ؟! راحت تملأ الأطباق بالطعام ، الأرز والبطاطس وأما انا فأعددت طبق السلطة الممتلئ بالشطة والخيار والطماطم . جلست قبالتها وبدأنا نأكل ، تمنيت أن تظل هكذا بدون كلام فالخجل ربما يغمرني ثانية إن حدثتني عن المشاعر والأحاسيس . رويداً رويداً يرحل الصعيدي الخجول من داخلي . عرفت من حديثها وقتها أنها قارئة نهمة للشعر وللفلسفة . قالت لي :

- أنا قرأت كتير لأبي العلاء المعري وبشار بن برد وقرأت للتوحيدي وكمان قرأت كتير في الفلسفة الوجودية ، سورين كيركيجورد ونيقولاي برديائف وغيرهما . كانت المفاجأة لي أنها - وهي ابنة أحد أهم رجالات الكنيسة - تسكنها تساؤلات ولها اعتراضات كثيرة على ثوابت في العقيدة المسيحية .

الأغرب أنها أخبرتني – أثناء حديثنا على غداء اليوم – أن والدها يتحاور معها بدرجة عالية من التحضر والتفاهم على عكس كثيرين من رجال دين آخرين في الكنيسة .

قالت لي : هل قرأت الكتاب المقدس ؟

قلت لها : قرأتُ فيه قليلا بس من غير ما اتعمق فيه .

ضحكت وعلقت على كلامي :

- ليه ؟ على فكره الكتاب المقدس فيه حاجات حلوه كتير،وكمان فيه خرافات كتير.

قلت : الحاجات الحلوه زي إيه ؟

قالت : خد عندك مثلا : سفر " نسيد الإنشاد " ، سفر " الجامعة " .. المزامير .. الأمثال .. حاجات حلوه كتير وفيها جماليات وتعبيرات إنسانية نبيلة .

قلت لها : غريب إن حضرتِك بتقولي فيه خرافات كتير ؟!
أشرق وجهها عن ابتسامة وقالت :
- أولا :بلاش كلمة حضرتِك دي تاني من فضلك لأن علاقتنا أكبرمن الشكليات دي .
ثانيا : حضرتَك (ضاحكة) أول مرة تقرّب من تفكيري ومعتقدي وربما ستفاجأ بأني ربما أني لست مسيحية (وقبل أن تظهر الدهشة على وجهي) ولستُ مسلمة أيضاً أوحتى يهودية .
سألتها : أُمّال إنت إيه ؟
قالت : أنا يا سيدي إنسانة منفتحة بعقلي على كل الثقافات والحضارات . أنا منفتحة بقلبي على أعلى ما في الوجود ، الإنسان .. الإنسان أياً كان لونه أياً كانت عقيدته .
شجعني كلامها على أن أعترف لها بأني تقريباً على مسافة بسيطة منها .
لما استفسرت عن معنى كلامي قلت له :
- أنا في رحلة بحث عن مُنتمى ديني أو عقائدي ، عندي أسئلة لا أحد يريد أن يجيبني بالذي يروي عطشي المتزايدة مساحته كل يوم .
- هل تشك في وجود الله ؟ !
سؤالها المباغت كان حاداً وصادماً ، قلت :لا . أنا لا أشك في وجود خالق ومدبر لهذا الكون ، غير أن الشك يدور في عقلي حول فكرة الأنبياء والأديات المتتابعة والقرآن والحديث و .. و ..
امتدّ حديثنا معاً حتى انتهى الغداء . شربنا القهوة وأكلنا بعض الفاكهة وأصرّت هي أن تغسل الصحون والأواني . ساعدتها واستمر بيننا الكلام أثناء ذلك كله .
لمّا كشفت لي هيلانة عن جانب من عقلها القلق وروحها الأكثر قلقاً ؛ أحسست بوشيجة تربطني بها،وشيجة أخرى غير جسدها الذي يموج بالأنوثة والغواية .
****

الورقـــة 6

كأنها كانت تنتظرني أنام . سرعان ما جاءتني وأنا نائم . قفزت " هيلانة " إلى داخلي بعدما كانت قد
تعرّت تماما ، كانت الأنوثة تطفح من خلايا جسمها المكتنز . بدا ناهداها طائرين مدهشين وقلقين يريدان تحطيم قفصهما الذي يحتويهما رغبةً في التحرر والانطلاق . أحسست بجينات جسدي تتغير صادَرت هيلانة جسدي ، أصبح ملكاً لها وأصبحت أنا أسيراً لغوايتها . قبلتني ابتداءً في جبهتي ثم تركَت شفتيها تنزلقان على وجهي دونما تخطيط ودونما تنظيم حتى التقت شفتاها بفمي العطِش .

اشتعل الجسد رغبة وشبقاً . الجسدان امتزجا . صرنا جسدًا واحدًا . تمنيت أن أموت الآن تحت وطأة جسمها . توقف الزمان ؟ ربما انمحى . صرت أنا زمنها وصارت هي زمني .
في الصباح ، كان سريري قد ابتلَّ بمائنا . فكرتُ وأنا أجهز ماء الاغتسال من الجنابة أن هذا لا يليق بـ "هيلانة"! كيف أغتسل من الحب ؟! لقد طهرتني بجسمها الخالي من الخطيئة . لن أغسل بماء الأرض ماء السماء . غسلت وجهي . تناولت نصف رغيف وقطعة جبن وملعقتين من العسل الأسود وجلست في انتظار براد الشاي على النار .

فتحتُ الكتاب المقدس صدفةً ، قرأت ما وقعت عيناي عليه ، نشيد الإنشاد :

" ليقبلني بقبلات فمه ؛ لأن حبك أطيب من الخمر . لرائحة

أدهانك الطيبة . اسمك دهن مهراق ، لذلك أحبتك العذارى

اجذبني وراءك فنجري . أدْخلَني الملك إلى حجاله ....

أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم ، كخيام قيدار . كشقق

سليمان . لا تنظرن إليَّ لكوني سوداء ، لأن الشمس قد

لوحتني ... ها أنت حلو وجميل يا حبيبي وسريرنا أخضر

....

" كالسوسنة بين الشوك كذلك حبيبتي بين البنات .

ها أنت جميلة يا حبيبتي ، عيناك حمامتان من تحت نقابك

شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد .. " .

صنعت فنجان شاي وواصلت القراءة وأنا أرتشف من النشيد :

" ما أجمل رجليكِ بالنعلين يا بنت الكريم . دوائر فخذيك

مثل الحلى صنعة يدي صنّاع . سُرَّتُكِ كأسٌ مدورةٌ لا

يعوزها شراب ممزوج . بطنك صبرة

حنطة مسيّجة

بالسوسن . ثدياكِ كخشفتين توأمي

ظبية . عنقك كبرج

من عاج . قامتكِ هذه شبيهة بالنخلة

وثدياكِ بالعناقيد

قلت : إني أصعد النخلة وأمسك

بعذوقها وتكون ثدياكِ

كعناقيد الكرم ورائحة أنفك كالتفاح

وحنكك كأجود الخمر " .

كان وجه " هيلانة " يطلع لي من بين الحروف فيعطي للكلمات معنىً آخر أجمل وأرق وأعذب

أغلقت الكتاب المقدّس ووضعته بجانب المصحف وقلت مبتسماً : " هذه المؤلفات الكاملة لله "

قلت لنفسي أيضاً : هل هذه الكتب – التوراة والإنجيل والقرآن – هي فقط كلام الله ؟ هل سكت الله عن الكلام وتذكرت الآية القرآنية : " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا " . هل أصيب الله بالخرس بعدما كان قد أنزل القرآن وما عاد ينطق ؟ ! المنطق يقول بأن الله كامل ، والخرس صفة نقص . لا شك أن الله ما زال يتكلم . ربما يتكلم على لسان أخرين يحيون بيننا كالحكماء والفلاسفة والأدباء . أليست رائحة الورود والرياحين كلام لله ؟! ألا يكون من المعقول أن كلام الحلاج

وابن عربي والسهروردي وابن الرومي هو كلام الله نطق به على ألسنتهم ؟! .. أذكرُ ، قالت لي " هيلانة " : إن كهنة الدين وفقهاؤه قد حصروا الله وحجبوه عن الناس . إن الله محبة والكهنة كراهية .
شيوخ الأزهر يقدمون الله للناس بشخص عابس جبار متكبر ومنتقم !
كيف ولماذا يتكبر الله على عباده الضعفاء ؟! أليس هذا عبثاً ؟!
عندما وجدتني أخطو صباح اليوم في صحن الجامع الأزهر ؛ كان زملائي الأزهريون يحدجونني بنظرات سرطانية خادشة وخشنة كذقونهم . سحبني " البحيري " من يدي بعيداً في ركن من الجامع وهمس في أذني :
- خذ حذرك يا شيخ أحمد ، شيخ الجامع سمع عنك وعن أفكارك المتمردة ، إنهم يجهزون لك مصيدة كيما يكفرونك ويطردونك من الأزهر .
كالسهم ، انطلق ناحيتنا أحد المشايخ الموتورين . متجهماً أشار لي بسبابته الغليظة :

اسمع يا أحمد ، لقد تم تشكيل لجنة من كبار المشايخ والعلماء لمناقشتك بعد انتهاء الدراسة اليوم وعليك بالحضور بمفردك أمام اللجنة اليوم .
لمَّا انصرف المتجهم قال لي " البحيري " :
- سلام قولا من رب رحيم ! أزفت الآزفة يا شيخ أحمد و سوف أنصرف الآن وأتركك تفكر في كيفية مواجهتهم والرد عليهم .
- لا تخف يا بحيري . أنا لها ولكل نازلة .
الحقيقة أنني ساعتها كنت أبدو متماسكاً غير مرتبك . تظاهرت بذلك رغم أن ما بداخلي كان يموج اضطرابا . سَرَت قشعريرة قوية بجسمي . كنت أطرد الخوف من مواجهة عتاة الأزهر وحلاس الدين،هل

سيأمروني فأتجرع السم كسقراط ؟! أم تراهم يصلبوني كالحلاج ؟!أم سيذبحني أحدهم بسكين بارد كما ذبحوا"الجعد بن درهم"؟! الوقت مرّ بطيئاً وثقيلاً .
وأنا أخطو ناحية حجرة التحقيق ؛ برز مشهد المعتزلي الكبير [الجعد بن درهم] أمامي وهو الذي قال بـ " خلق القرآن وقدرة العبد على الفعل بنفسه "؛ فأرسل الخليفة الأموي [هشام بن عبد الملك] إلى واليه على العراق [خالد القسري] يأمره بقتل الجعد ؛ فوقف " القسري " على منبر المسجد يوم عيد الأضحى وأنهى خطبته بقوله : " أيها الناس انصرفوا وضحُّوا تقبل الله منكم فإني أريد أن أضحِّي بـ الجعد بن درهم فإنه يقول : " ما كلّم الله موسى ولا اتخذ إبراهيم خليلا " تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . وكان الجعد مربوطاً في السلاسل تحت المنبر وأهله ينتظرونه كيما يفرحوامعه بالعيد ، غير أن القسريّ كان له رأي آخر حيث نزل إلى الجعد وذبحه بيده في المحراب مفتتحاًللناس عيد النحر .
فكرتُ بأن تاريخنا عامربذبح كل من غرّد خارج السرب أو رفض أفكار القطيع مثل غيلان الدمشقي الذي تمّ ذبحه وتقطيع أوصاله بفتوى من الفقيه الأشهر " الأوزاعي " لأنه قال : " إن الإمامة لكل الناس وليست قاصرة على قريش " .

****

الورقــة 7

-

انسكب فصل الشتاء كله في دمي وأنا في طريقي للمحاكمة أمام مشايخ الأزهر . لا أخفي ذلك الخوف . القشعريرة المتواصلة جعلتني أبدو كديك مبلول . حاولتُ أن أمسك بقدر من التماسك والثبات .
استحضرت كل أسئلتي وشكوكي واعتراضاتي . هل كان سقراط يعاني

عندما مَثُلَ أمام محاكميه ؟
أنا سقراط ، أنا أحمد بن الشيخ عبد العليم الصعيدي وأبحث عن إجابات لما اعتراني واعترى عقلي .
هل صار السؤال في عالمنا جريمة ؟! بلاد الفرنجة الكفرة لم تتقدم إلا عندما أطلقت عنان السؤال .
عندما هجروا كل أردية الآباء والأسلاف ، مزقوها وأحرقوها . أصبح المجد للعقل . نهضوا بعد تخلف وتقدموا بعد تراجع . حاصروا رجل الدين وطاردوه حتى عاد إلى معبده ولم يخرج منه ثانية . قلموا أظافر الكهنة التي خمشت عروقهم أزمنة . لحظات ووجدتني بين وجوه كالحة وكأنها الوجوه وقد عادت من القبور ثانية كيما تحاكمني وتكفِّرني ثم تعود إلى قبورها ثانية . زكمت أنفي رائحتهم النتنة فشعرت بالغثيان يجتاحني .

- السلام عليكم يا مشايخنا (قلت) - لم يرد أحد منهم السلام . أول القصيدة كفر !
كن الشيخ عبد العليم يقول : السلام لله .. وردُّ السلام فريضة وواجب لقول الله (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) . لكن هؤلاء الكالحة وجوههم متى عرفوا الله الحقيقي ؟! إنهم يعبدون آراءهم وأهواءهم ومناصبهم . فزع أحدهم وهو يشير ناحيتي:

- اجلس أيها الطالب الأزهري .
جلستُ على كرسي خشبي أسود .
- سمعنا أنك تقوم بأفعال تتنافى وأخلاق الأزهريين ، فما قولك ؟ (سألني أحدهم)

- مثل ماذا يا مولانا ؟ (قلت)
- مثل ترددك على محاضرات الزنديق [أحمد لطفي السيد] ومثل قراءتك لكتب الكافر [طه حسين]وسلامه موسى وغيرهم .

تجرّأت وتساءلت بصوت يكاد يُسمع :
- وهل هناك إجماع على كفر هؤلاء ؟
- لا ... ليس هناك إجماع على كفرهم ، لكن علماء الأزهر الذي تنتسب أنت إليه يكفرونهم .

قلت وقد بلغت الجراءة عندي مبلغا عظيماً :
- عذراً يا مولانا .. أنا لا أرى أنهم كفار لأنهم لم ينكروا معلوما من الدين بالضرورة .قال أحدهم ساخراً : ما شاء الله ! وكمان أصبح لك رأي يخالف رأينا ؟! (ثم استطرد) : ما علينا يا سيدي ! .. كمان سمعنا أنك تشكك في القرآن والسنة وتتهجم على الفقهاء ، ما قولك ؟
- أنا عندي تساؤلات فقط حول القرآن والسنة والفقهاء وليست تهكمات ولم أجد من يجيبني ويريحني .
- اتفضل اسأل وسوف نجيبك (قال غير واحد منهم)
- هل هناك قرآن محذوف ؟ (سألت)
وكأن صاعقة من السماء نزلت عليهم :
- قرآن محذوف ؟! من قال لك هذا أيها الجاهل .(قال شيخ منهم)

- البخاري .. نعم هو البخاري إمام أهل الحديث وصاحب أصحّ الكتب بعد القرآن .

تسريت الطمأنينة شيئاً فشيئاً إلى فؤادي وطار الخوف وأحييت أني في وضعية هجومية .

سألني أحدهم : وأين تجد هذا الكلام في صحيح البخاري ؟
قلت : أجده في كتاب الحدود / باب الرجم حيث أن [عمر بن الخطاب] ذكر أن آية الرجم أنزلها الله وقرأها الصحابة لكنها الآن غير موجودة في المصحف !
قال الشيخ الأكثر هدوءاً والذي كان يتوسطهم :

- نعم هذه الآية منسوخة والنسخ في كتاب الله حق حيث يقول الله تعالى في سورة البقرة"ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها"
- وما الحكمة يا مولانا من حذفها مع بقاء حكمها ؟! ثم أين الآية التي جاءت مثلها أو خير منها ؟!!
ساعتها نظر المشايخ لبعضهم البعض . أحدهم أخرج منديلاً وجفف به عرق جبهته .
- سوف ندوِّن هذا السؤال ونرد عليه تالياً (قال شيخ) ثم أردف آخر :
هل عندك أسئلة أخرى حول القرآن ؟
قلت : نعم .. قصة الغرانيق التي ذكرها المفسرون وعلماء الحديث
- على رسلك .. هذه القصة لا أصل لها وهي من وضْع أعداء الله ليضلوا بها ضعيفي العقل من أمثالك .
- وما رأيكم في الإمام (ابن حجر العسقلاني) ؟ (سألتهم)

- هو إمامنا وشيخ من شيوخ أهل السنة والجماعة (قالوا معاً)
قلت : هذا الإمام أورد القصة وحكم بصحتها والإمام السيوطي كذلك وحديث الغرانيق صحيح على شرط البخاري نفسه .
قال المتجهم دائما : أنت تجادل في كتاب الله بغير علم ،لكن قل لنا - من الذي أخبرك بكل هذا الهراء والشك في كتاب الله ؟!
ثم بدأ الهرج بين المشايخ . أحسست بالانتصار وأنا أسمع منهم سباباً وشتماً ولا أسمع رداً لأسئلتي . كان الحوار معهم طويلاً . كان يؤرقني مخالفة النبي فيما أمر به الآخرين !
النبي حرّم على المسلمين أن يجمعوا في حياتهم الزوجية بأكثر من أربعة نساء ثم هو قد فعل غير ذلك حيث جمع بين تسع زوجات في وقت واحد !!
قلت لهم : إن الملائكة لا تدخل دورات المياه ،أليس كذلك ؟ ولما أجابوا بأن هذا صحيح قلت لهم أيضاً : أليس الديك حين يصيح مؤذناً فإنه قد رأى ملكاً ؟ قالوا : نعم .
قلت لهم : لو أن أحدنا أمسك ديكا وحبسه في دورة المياه التي لا يدخلها ملَك،فهل سيصيح الديك مؤذِّنا ؟!
لم ينبس أحدهم برد . أذكر أنني لم أجد رداً على أغلب تساؤلاتي وكان الرد غير منطقي فهم يمتلكون إجابات معلبة جاهزة غير مقنعة وبعض ردودهم كانت سباً ولعنة على شيطاني الذي يشككني في الدين !
- سوف نتركك الآن لتناول الغداء على أن نكمل الحوار في وقت لاحق غدا أو بعد غد (قال واحد منهم) .
غادرت حجرة التحقيق . كان الشيخ " البحيري " قد رحل ربما بعد دخولي للمشايخ . دلفت إلى خارج الجامع.اتجهت إلى حوش (عُطَيّ) بالقرب من الجامع الأزهرحيث يسكن البحيري.
استقبلني طلبة الأزهر هناك بتجهم وعبوس شديدين . أحدهم نادى على " البحيري " وأشار ناحيتي :

- صاحبك المتشكك في دين الله يسأل عليك .
آلمتني الكلمة فأنا لست أكثر من متسائل وباحث عن الصواب . هذا العام كنت قد تجاوزت المرحلة الأولى و الوسطي للدراسة الأزهرية وأشرفت على المرحلة النهائية . اصطحبني البحيري إلى مقهى الفيشاوي بالحسين وفي الطريق أخبرني قائلاً :
- اسمع يا شيخ " أحمد " أنت أصبحت شبهةً لمن يمشي معك ، كل الطلبة والمشايخ يحذروني منك ، لكني أحبك وأعرف أنك لست أكثر من متسائل وباحث عن الخط الفاصل ما بين الحق والباطل . فهمت ساعتها أنني يجب أن أبتعد قليلاً عن صديقي الذي أعرف أنه يحبني لكن علاقته بي قد تسبب له مشاكل وتجلب عليه المتاعب . لم أكن حقيقة أكثر من باحث عن الحقيقة في الدين الذي أحمله كاسمي على كاهلي منذ ولدت. .
جلسنا أنا والبحيري ، كنا نفسح مكانا للصمت ، لم يشأ هو أن يثرثر معي كعادته ، كنت كئيبا وخائفاً من مغبة المناقشات مع مشايخ الأزهر . ماذا لو طردوني من الأزهر ؟ ماذا لو كفروني
وجعلوني مرتداً ؟ صار التساؤل جريمة ؟ لماذا لا يلقموني حجرا في فمي بإجابات منطقية تدحر جحافل الشك التي وُلد في عقلي وصار كائنا متوحشاً يتجول في صدري ؟
استأذنت من صديقي ورحلت . أطلقت قدميّ للشوارع .
أحسست لأول مرة بالغربة تقضم عظامي . راحت كل الأسئلة تنطرح أمامي وانا كالملّاح التائه في شوارع القاهرة هائماً .
كيف يتزوج نبيٌّ من زوجة ابنه ؟! كان [زيد بن حارثة] يطلقون عليه [زيد بن محمد] وكان زيد مُتبنَّى محمد من خديجة . رفض زيد أن يعود لأبيه الحقيقي "حارثة " وارتمى في أحضان محمد ثم أصبح اسمه "زيد بن محمد" الذي تزوج من"زينب بنت جحش"بنت عمة محمد وكان محمد هو الذي خطبها لابنه "زيد " . تمر الأيام ويفتقد النبي ابنه فيروح إلى

بيته ليسأل عليه فلا يجده . تخرج زينب وكانت شبه عارية (؟!) رآها النبي فتحرك الإنسان البشريُّ بداخله ، أُعجب بها ، أحبها ، ملكت عليه عقله وقلبه . دعته " زينب " أن يدخل لكنه رفض لما علم أن " زيداً " غير موجود . لما عاد زيدٌ أخبرته زوجته بما حدث قال زيد لزوجته : " ولماذا لم تطلبي منه أن يدخل ؟! إنه بيت ابنه ! ثم تساءل :

- وهل سمعتِه قال شيئاً ؟

قالت : " سمعته يقول : سبحان الله مقلب القلوب ! "

أدرك " زيد " ساعتها بحدسه البدوي أن أبيه محمداً قد راقت له زينب زوجته وأنه هام بها !

انطلق " زيد " إلى أبيه محمد النبي الكريم وقال له :

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، هل أطلق زينب لك ؟

رفض النبي الوالد وقال لابنه : " أمسك عليك زوجك زينب "

في الليل جاء جبريل لمحمد وقال له قرآناً :

- " وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا" .

الحقيقة أنني كنت قد قرأت قصة زواج النبي محمد من " زينب بنت جحش " في كل كتب التفاسير المقررة علينا في الأزهر ولا أعرف لماذا شيوخنا يستنكرون على مثلي التساؤلَ والقصة موجودة في أصح كتب الدين والتي تجمع على أن سبب زواج محمد من"زينب"

زوجة ابنه "زيد" هو أن النبي محمد أتى زيداً ذات يوم فوقف على بابه ثم نادى زيداً فنظر إلى "زينب" وعليها ثياب رقاق تشف ما تحتها (شبه عارية) فوقعت في نفسه ورفض دعوتها للدخول غير أن "زيداً"

جاء النبيَّ وعرض عليه أن يطلقها له لكن محمد رفض حتى جاءت الآيات في سورة الأحزاب لتفك للنبي مشكلته تلك وتفرج عنه همه وحبه لـ " زينب " .
حتى أنّ " زيداً " فهم دواخل النبي وما يعتلج قلبه فقال له :
- يا رسول الله ، لعل "زينب" أعجبتك فأفارقها وأطلقها لك ؟
و المفسرون يذكرون ويدونون أن [مقاتل بن سليمان] قال : إن النبي عليه السلام أتى "زيدا" يوما يطلبه فأبصر زينب قائلة وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش ؛ فهويها النبي وأحبها وقال : " سبحان الله مقلب القلوب . وذكر غير واحد من المفسرين أن الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينب عارية في منزلها فرأى زينب ؛ فوقعت في نفسه ووقع في نفْس " زينب " أنها وقعت في نفس النبي !
أما ابن عباس فيفسر (وتخفي في نفسك) : الحب لها (!) (وتخشى الناس) : أي تستحييهم وتخاف وتكره لائمة الناس لو قلتَ : – لزيد – طلِّقْها . ويقولون : إن محمداً أمر ابنه أن يطلق امرأته ثم نكحها حين طلقها .
قلت لنفسي وأنا هائم على حيرتي : كيف حدث هذا من نبي الله ؟ أم هل تراهم يتقولون عليه ؟!
لكني قلت أيضاً : ولماذا لا يحدث ؟! أليس محمد بشر مثل باقي البشر ؟! محمد هو القائل :
" إنما أنا بشر مثلكم " . لماذا نُصِرُّ نحن - المسلمين - أن نجعل من محمداً إلهاً أو حتى نصف إله أو نجعله كملَك من الملائكة ؟! أليس هو القائل : " كل ابن آدم خطاّء وخير الخطّائين
التوابون " ؟! ثم أليس هو ابن آدم مثلنا ؟! ألم يقل الله له : يا أيها النبي استغفر لذنبك ؟!
ثم يجيء صوت من داخلي : صحيح أنه بشر،لكن أن يأمر رجلاً - ناهيك عن كونه ابنه - بأن يطلق زوجته كيما يتزوجها هو ؟! تلك

وربي كارثة !
ليتني لم أقرأ . ليتني لم ألتق بـ "ماريان بنت المقدس سمعان" . ترى أين هي الآن ؟ لقد سمعت من " فريد " أنها اختارت الرهبنة ، اختارت أن تكون راهبة في الدير .
آه أيها الأزهر ، لقد زودتني حيرة على حيرة وقلقا على قلق !
****

الورقـــة 8

في اليوم التالي لمناقشتي أو إن شئت فلتقل محاكمتي أمام عمائم الأزهر التي تفوح منها رائحة غير مطمئنة بالمرة ، أشعر أن تلكم العمائم تستر تحتها سماً زعافاً لي !
لما سألني أحدهم منفعلاً :
- وما رأيك في الأحاديث التي أوردها أسيادك أيها المتشكك في كلام العلماء ؟
قلت : أنا لستُ متشككاً أو حتى مشككا ، أنا متسائل فقط .
لما طُلب مني أن أعرض تساؤلي ، قلت :
- أنا أحفظ أكثر من مائة آية في القرآن تحض على التسامح والموادعة وقبول الآخر وعدم إكراه أحد على الإسلام مثل : " من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " .. ثم بعد ذلك أقرأ قولاً لأحد المشايخ هنا في الأزهر بأن آية السيف وهي الآية الخامسة من سورة التوبة قد نسخت كل آيات التسامح والموادعة والصبر وأصبح التحاكم للسيف فإما الدخول في الإسلام وإما التحاكم للسيف .
ثم أقرأ تأكيدا لهذا الكلام حديثاً سمعته من نفس الشيخ يقول : قال رسول الله : " أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن قالوها عصموا مني دماءهم .." .
ألا يدعونا هذا إلى التساؤل حول هذا التناقض في الآيات والأحاديث ؟ كيف تريدونني أن أقرأ وأسمع حديثاً منسوباً للنبي يقول : " جُعل رزقي تحت ظل رمحي " ثم لا اتساءل : ألا يُظهر مثل هذا الحديث النبيَّ

وكأنه بلطجي أو فتوة يريد أن يفرض دينه على الناس بالقوة ؟!
أنا يا مولانا أرى تناقضاً واضحاً بين النصوص مجتمعة سواء أكانت قرآناً أم أحاديث ، ثم لعلي أكون على فهم خاطئ ودوركم أن تصوبوا لي ولغيري ما التبس علينا . ما ردكم يا مشايخنا ؟

قال أحدهم وهو الذي كنا نتعلم منه علوم الحديث :

- أيها الجاهل ، الرسول قال : أقاتل الناس وهو يقصد بعض الناس .

قلت : حتى وإن كان يقصد بعض الناس ، فهل يجوز أن أُرغم بعض الناس على اعتناق الإسلام ؟!

قال الشيخ : نعم يجوز ذلك ، وإن كان لا يعجبك فاخرج من الدين وتصير مرتداً أيها الجاهل .

قلت :

- المرتد ، كلمة تُطلق على الذي اختار الإسلام بمحض إرادته ثم تركه بمحض إرادته ، وأما أنا فقد وُلِدتُ لأبوين مسلمين ولم يعرض أحد عليَّ الإسلام كي أختاره أو أرفضه بمحض إرادتي أنا ورثت الإسلام ولا اختيار لي في ذلك !

صرخ في وجهي أحدهم :

- أنت لا تستحق أن تكون مسلماً (ثم أضاف رافعا من عقيرته) خسارة فيك أيها الكا ....

الشيخ الأكثر هدوءاً وضع يده على فمه وأكمل بدلا منه :

- اسمع يا أحمد ، سوف نتداول الحكم عليك فيما بيننا ثم نصدر ما اتفقنا فيه عليك ونعلنه ، فانتظر خارج الحجرة الآن (وأشار لي بالخروج فخرجت) .

مرّ الوقت بطيئاً وثقيلا حتى جاء من يدعوني لدخول الحجرة الكئيبة الآن . دخلت ، فإذا الوجوه قد ازدادت سواداً وعبوساً .
تلا كبيرهم والذي كان يعطينا دروساً في الفقه :

بسم الله الرحمن الرحيـــم

" إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون "

صدق الله العظيم

ويقول رسولنا الكريم – ﷺ – " من بدّل دينه فاقتلوه "

وبعد الاطلاع والمشاورة بيننا نحن – علماء الأزهر – رأينا أنه بعد استدعاء
الطالب / [أحمد بن الشيخ عبد العليم الصعيدي] ومناقشتة واستجوابه حول أفكاره المغايرة والمخالفة تماما لمنهج الأزهر الشريف ولدين الله ومن ثمّ ردودنا عليه بالحجة والأدلة التي لم يقتنع بها المذكور أعلاه . لذا رأينا نحن مجلس علماء الازهـر والمشكَّل بناء على طلب من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع أن المذكـورقد طعن في كتاب الله وفي سنة رسوله المختار وأنه استهزأ بعلماء وفقهـاء الأمة وإجماعهم الثابت على مدار تاريخنا الثقافي وأن المذكورأصر على أفكاره الضالة المضلة والملحدة ، لذا قررنا :

أولًا

ـ

حكمنا نحن – علماء الأزهر – بكفر الطالب [أحمد بن الشيخ عبد العليم الصعيدي] كفراً يُخرجه من الملة وأنه إن مات لا يُصَلَّى عليه ولا يُدفَن في مقابر المسلمين ويفرّق بينه وبين زوجته ، إن كانت له زوجة ولا يُوَرَّث .

ثانياً

ـ

قمنا بطرد الطالب من زمرة طلاب الأزهر الشريف حيث أن الأزهر ينفي عنه خبثه .

ثالثاً

ـ

رفع مذكرة إلى السلطات الحاكمة حتى تتخذ حياله ما يتفق وشرع الله من أحكام منوطة تنفيذها بهم كأولي أمر .

هذا والله على ما نقول شهيد .

ثم قام جماعة من العاملين بالأزهر – بناء على تعليمات مسبقة – بنزع عمامتي من فوق رأسي وتجريدي من الزي الازهري الذي كنت أرتديه وهو عبارة عن جبّة وقفطان .

خرجت من الغرفة مطروداً شبه عارٍ إلا من ملابسي الداخلية والتي كانت عبارة عن بنطال واسع أبيض يستر نصفي الأسفل وبروفل بني اللون يستر نصفي الأعلى .

لما وصلت صحن الجامع صاح أحدهم : " لا يُكلِّم أحد منكم هذا الكافر المرتد "
انهال الطلاب الموجودون بأحذيتهم فوق رأسي . صاحَبَ ذلك الضربَ بالأحذية شتائمُ وبصاق وسب وتكفير وتهليل .
كثرت على رأسي الأحذية . أحسست بدوار وغثيان . كان "البحيري" يتوقع ما حدث فاقترب منِّي - متظاهرا بأنه يضربني ويوبخني كالآخرين - وهمس في أذني :

- تظاهر كأنك ميت حتى يتركوك .
سقطتُ على الأرض بعد طول مقاومة غير مجدية . صرخ فيهم البحيري : " اتركوه . ربما يكون الملعون قد مات ، ولنتركه للسلطات تفعل فيه ما تريد .
جرَّني البحيري ناحية (الميضة) . انصرف الضاربون يحملون نعالهم المُجْهَدَةَ والمُجْهِدَةَ . غسل صديقي وجهي بالماء ثم مسح بمنديله العريض الدم المنساب من أنفي وفمي . دقائق وكنت قد تعافيت إلى حد ما . كان " البحيري " قد أعدَّ – في شنطة – بنطلوناً وقميصاً وبالطو تحسبا لما قد حدث بالفعل .
ارتديت الملابس وشكرتُ البحيري ومشيت معه خطوتين ثم توقّف وتراجع وحده قائلاً لي :
- لا أستطيع الخروج معك وإلا فإنهم يشكون في علاقتي بك وربما يطردوني ساعتها من الأزهر . سوف التقي بك في وقت لاحق .
دس " البحيري " في جيبي قروشا وغادرت الأزهر وحيدا لآخر مرة .
لما خرجت من صحن الجامع وابتعدت عنه قرب الغوري ، لا أعرف لماذا انتحيت جانبا ورحت أجهش بالبكاء ؟ لماذا بكيت ؟ ! أنا لا أعرف . المفروض أني جئت الأزهر لأجد ولو بصيصا من نور يبدد ضبابية الأسئلة من عقلي غي أني وجدت مصابيح تنشر الظلام وتنفث

الجهل والتخلف . من المفروض أن أكون سعيدا الآن ! هل بكيت ساعتها لأنني كنت أخاف مغبة التكفير ؟ هل بكيت – ربما – لأني أحسست بالغربة حيث صرتُ منبوذاً الآن ؟ لا أعرف غير أنني ظللت أبكي حتى تنبه المارّة
لي وحدجتني أعينهم بالشفقة والسؤال .
لما وصلتُ السكن ؛ أغلقت الباب على نفسي وواصلت النحيب ولما هدأت قليلا ؛ تذكرتُ أحد زملاء البحيري في سكنه ، قال لي : " ماذا ستقول لربك حين يسألك عن معتقدك الفاسد ؟ "
ساعتها لم أجبه لأنه كان في موقف استهزاء وسخرية ، لكن الآن سأجيب :
لو سألني ربي كما يزعمون سأقول له :
- يا رب .. انت أعطيتني عقلاً لا يؤمن إلا بعد تفكير وتمحيص . أنا يا رب كنت في رحلة البحث عنك ، عن حقيقتك فقد شوهك كهنة الأديان حينما اختزلوك فيهم . اليهود اختزلوك وسرقوك فأصبحت إلهاً لهم فقط والباقون عندهم أشبه بالحيوانات. المسلمون اختزلوك في كهنتهم وفقهائهم المتاجرين بك فصيروك إلها لهم ، لا يدخل الجنة غيرهم . المسيحيون انخدعوا بالقساوسة وكهّانهم الكَذَبَة واعتقلوا المسيح عندهم ووقفوا حجَبَةً دونك والناس . حتى البوذيون والزرادشتيون وأصحاب الأديان الأرضية كلهم يزعمون أنك لهم فقط ، وأنت يا رب صامت كحجر ، ربما أنك تسخر منهم ، ربما تملي لهم ، ربما وربما وربما .. لكن لماذا أنت مبهم وغامض ؟! كيف تركتهم يتاجرون بك ويتكلمون على لسانك ؟ هل أعطيت أحدهم توكيلا أو صكا لينوب عنك ؟! لماذا احتجبت وتخليت عني وانا أبحث عنك ؟! .. أعرف يا رب أنك الجمال والخير والرحمة المطلقة ، لكني حِرْتُ فيك وزدتني حيرة بصمتك الأبدي الرهيب . كنت أبحث عنك غير أنك لم تمهلني لأصلَ وأعرفَ . توفيتني – ربما - في منتصف الطريق ،

وربما في أوله وربما في ما قبل آخره . أنت يا رب وضعت بذرة السؤال في عقلي كالسوسة التي راحت تنخر في كل ما ورثته عن أجدادي . إن أنت أدخلتني الجحيم فأنا لم أقترف ذنباً ببحثي عنك ، وإن أنت أدخلتني النعيم فماذا أنا فعلت حتى تدخلني نعيمك ؟! أم أنه لا يوجد لديك جحيم أو نعيم والأنبياء والكهنة هم الذين أوهمونا بهما حتى نتبعهم ؟!

هل أنا اخترت لنفسي أم أنك اخترت لي ؟ أما أنا فلم أختر شيئاً ..

اسمي لم أختره .. ديني .. أهلي ولغتي .. لم اختر لوني ولم أختر أي شيء .. أي شيء ! الحياة – ربما – هي التي حددت لي كيف أحيا .. أنا عشتُ الحياة كما أرادت هي وبشروطها هي لا كما أردتُ أنا !

سأقول أيضاً لله إن هو حاسبني :

- بأي ذنب ستأخذني ؟ بأي جريرة ؟ أنا لم أسرق .. لم أقتل .. لم أكذب ، ربما أخطأتُ كالبشر أو حتى كالأنبياء .. نعم .. حتى الأنبياء أخطأوا وأنت قبلتهم ثانية .. أنا لم أعذب طفلاً بآلام العظام والربو كما فعلتَ أنت مع الأطفال الذين خلقتهم معذّبين ! أنا لم أغرق الناس – كل الناس – بالطوفان لأنهم لم يؤمنوا بي ! .. أنت أعطيتهم الحرية أن يؤمنوا بك أو لا يؤمنوا ثم لمّا رفضوك أغرقتهم !

أنا يا رب لم أُفقر أو أُظمئ إنساناً ضعيفاً .. لم أضيِّق على الفقراء وأوسِّع على الأغنياء كما فعلت أنت! سامحني إن كنت صريحا حد الجراءة معك ..

أنا أقف أمام الله العادل والقوي والرحيم . دعني أفضفض لك : أنت خلقت الشيطان ليضل الناس ؟!

أليس هذا صحيحاً ؟ .. أنت تعلم أنه كان سيضل الناس . إذن لماذا تركته يضلهم ثم تحاسبهم ؟!

لماذا أعطيت الشيطان القدرة على إضلال الناس

أُذْكُرُ : قال لي أحدهم وهو يحاكمني في الأزهر : " أنت مثلُ الشيطان تماما ، أعطاه الله علماً لكنه كفر لما عصى وتكبّر " .
ساعتها قلتى في صمت الروح : " إن إبليس تعهّد لربه أن لا يسجد إلا لله ، ولما أمره أن يسجد للطين ؛ رفض وأبى ولسان حاله يقول : إن وجهاً تعمّد بنور وجه ربه لا يخفضه لطين " .
إن إبليس كان طاووسَ الملائكة وفخرَهم ، يعلم مقدار الله الخالق ويقدره حق قدره لذا رفض السجود لغيره غير أن الله لعنه وطرده من رحمته . الذي أعطى لـ أبليس القدرة على الطاعة حتى كان طاووس الملائكة ، هو أيضاً الذي أعطاه القدرة على التمرد والعصيان .
إذا كان المسيح قد صرخ على الصليب وخاطبك يا ربُّ قائلاً : " إلهي إلهي لماذا تركتني ؟! لماذا تخليت عنّي ؟! " وإذا كان محمداً قد قال لك في لحظة ألم وتعب : " إلهي ، إلى من تكلني ؟! إلى بعيد يتجهمني ؟! أم إلى عدو ملّكته أمري ؟! .. أما أنا فسأسألك إن عاتبتني أو حاكمتني وربما أصرخ فيك معاتباً : لماذا تركتني أخوض جحيم المعرفة وأكتوي بنارها ؟! للمعرفة نار أشدّ من نار الجهل ! أنا كنت أخوض ظلمات المعرفة (!) فلماذا لم تنقذني ؟ لماذا لم تطفئ عقلي وتصيرني مجنوناً فيسقط عني الحساب وتسقط عني المساءلة ؟!

****

الورقـــة 9

في الصباح توجهت إلى وكالة الغوري . كنت أعمل في دكان للعطارة عند رجل سمح الوجه كريم في عطاياه لي موفقاً بين العمل عنده وما بين دراستي في الأزهر . أما الآن وقد أصبحتُ عُطْلاً من الدراسة فسأذهب إليه كل يوم بانتظام حتى أستطيع أن أعيش . اقتربتُ من العطّار . ألقيتُ عليه السلام . كان منكفئاً على جوال عطارة ينقيه من الشوائب . لمّا أن سمع صوتي حتى انتصب مذعوراً
وصرخ في وجهي :

- ابعد عني يا عدو الله يا كافر يا ابن الكلب .

امسك العطار بحجرٍ كان يستخدمه كميزان ورماه ناحيتي . اتّقيتُ الحجر براحة يدي والتفتُّ بعيدا غير أن الحجر اصطدم بكتفي .
شعرت بألم الخبطة ولم أصرخ . كان أحد الأزهريين قد سبقني إليه واشياً بي وأخبره بما كان معي وشيوخ المحاكمة . تركت العطّار يسب ويشتم متوعداً إيّايَ إن هو رآني هنا مرةً أخرى حتى لا أُنَجِّسَ المكان الطاهر .
تذكرت أن " فريد " قد ترك لي رسالة يخبرني فيها بأنه وأصدقاءه موجودون على مقهى ريش استعداداً للذهاب إلى التوجه للجامعة الأهلية والتي أصبح اسمها الآن الجامعة المصرية بمرسوم ملَكيّ من ملك البلاد ، لحضور محاضرة هناك .
ركبت الترومواي المتجع إلى وسط البلد .

نزلت في منتصف شارع سليمان ومشيت حتى مقهى ريش وجدتُ الأصدقاء وكانت إيفا هي أول من لمح دخولي من باب المقهى .

كان التعب بادياً على وجهي وبعض كدمات . سألَتْ إيفا مذعورة : إيه اللي حصل لك يا مولانا ؟!

ضحكتُ من كلمة (مولانا) وقلت :

- ما عدتُ مولاكم الآن ، أنا صرت كافراً بمرسوم رسمي من مشيخة الأزهر . لفتَ كلامي انتباه الجميع فتركوا ما بأيديهم من كتب وشيشة وطاولة وطلب " فريد " وهو يسحب كرسياً لأجلس عليه أن أعيد كلامي ثانية وطلب غير واحد عصير ليمون لأجلي . قلت وأنا أجلس : نعم . لقد صرتُ كافراًبقرار رسمي من هيئة كبار علماء الأزهر الشريف . قصصتُ عليهم ما حدث لي مع علماء الأزهر والبحيري وحجرالعطارالذي ما زلت أشعر بأثر ألمه في كتفي . قال " فريد " :

- كنت أتوقع هذا . ثم قال غير واحد :

- على أيّة حال ، ولا يهمك يا شيخ أحمد سوف نبحث،لك عن عمل وسوف نكلّم لك المسؤولين في الجامعة المصرية إذا كان من الممكن أن تنخرط فيها للدراسة كطالب .

قالت إيفا :

- على العموم الإنجليز والملك مش بس همّ الخطر الوحيد على البلد دي !

أردف " فريد " :

- رجال الدين المسيحي والإسلامي أخطر على البلد دي من الملك والإستعمار، فتاوى بعدم الخروج على الحاكم حتى وإن جلد ظهورنا وأخذ أموالنا ، فتاوى بعدم عصيان ولي الأمر ودعاوات وصلوات في الكنائس من أجل الملك وأعوانه .

قال آخر :

- رجال الدين يجرونا إلى الخلف ، لن نتقدّمَ إلا عندما تحدُث ثورة ، ثورة على أمثال هؤلاء الكهنة .

أحدهم – وكان دارساً للحقوق – قال :

- المشكلة ، لو الأزهر رفع بلاغا للسلطات .

تساءلت إيفا وفريد في نفَسٍ واحد :

- وإيه اللى ممكن يحصل ؟

- سوف يقبضون على الشيخ أحمد وبعدها سوف يُستتاب أمام علماء أزهريين .

تساءل فريد :

- يعني إيه " يُستتاب " ؟

قال الحقوقي :

- يعرض المشايخ على أحمد أن يتراجع عن فكره وإن رفض فإن الحاكم سوف يقتله

تسأل " فريد " :

- طيب وإن رجع عن كلامه وفكره وقال أنا مسلم وزي الفل ؟

قال الحقوقي وقد التفت ناحيتي :

- أتمنى ذلك يا أحمد ،يجب أن تظهر لهم أنك كنت متسائلاً فقط و ساعتها سوف يفرحون تعود للأزهر كطالب وتكون مسلما في نظرهم وتحفظ دمك من الهدر .

أذكر – فيما أذكر – أن الجميع هنا على مقهى ريش حاول كل واحد منهم أن يخفف عني الجروح التي طالت جسدي وروحي .

اتجهنا إلى الجامعة المصرية مشياً على الأقدام . كنا نفسح للضحك والتسرية مكاناً ، كأنهم كانوا يعزونني في مصابي .

كانت المحاضرة لمستشرق فرنسي – على ما أتذكر – وهي الأهم في تاريخي الفكري والمعرفي ، كانت نقطةَ تحوُّلِ في مسيرتي نحو البحث والمعرفة . المحاضرة كانت حول الفلسفة الوجودية ومؤسسها " سورين كيركيجورد " .

****

الورقـــة 10

نمت الليلة الماضية عندأحد الأصقاء الريشيين (نسبة لـ مقهى ريش) ، استضافني عنده على سبيل التعزية والتضامن معي . قبلت دعوته لما عرفت أنه وحده الليلة لغياب أسرته . استيقظتُ عصراً لأجده قد أعدّ لي طعاماً شهياً عرفتُ أنه لم يصنعه بنقسه بل نزل إلى أحد المطاعم الفاخرة واشتراه خصيصاً لي . شكرته ووعدني بأن عملا مناسباً سيكون في انتظاري قريبا في أحد محلات جده لأمه في وسط البلد لبيع الملابس الجاهزة . اكتشفت وأنا أجتاز بيته الفخم أن في جيبي مظروفاً ، لما فتحته في الشارع وجدتُ مبلغاً معقولاً وورقة صغيرة قرأتها : " مبلغ بسيط لك على سبيل السلفة حتى إذا ما تسلمت عملك قريبا ، تسدده لي " .

أراد بتلك العبارة أن يرفع عني الحرج والكسوف فهو يدرك أنني صعيدي وربما أتحرج من السؤال بسبب الحاجَة بعد أن طُرِدتُّ من محل العطارة والذي كنت أعمل به تسكعتُ في شوارع القاهرة الممتلئة بعساكر الإنجليز والرجال الذين خرجوا للتريض والفرجة على محلات الملابس مع نسائهم . استقليتُ الترومواي إلى سكني في شارع الألفي . لما أن وصلتُ إلى حجرة نومي الغير مرتّبة كحياتي ؛ سمعت طرقاً خفيفاً على الباب . قلت لنفسي : " لن أفتح الباب ولا أريد أن أرى أحداً اليوم ، سأظل اليوم بقيته منطوياُ كشجرة صنوبر على نفسي " . بعد محاولات يائسة للنوم هرباً مما اعتراني من خوف وقلق على مستقبل غير واضحةٍ معالمُه .

الفشل ؟ ما أروعها من كلمة موجعة . فشل يتبعه فشل . ما الجدوى

من حياة تنحرف بي إلى جهة لم اخترها إلى طريق لا أريده ؟! ألا يشفق ذلك الساكن السماوات السبع على كائن مثلي ؟! صنعت فنجان قهوة مُرَّة . قلت : لعل مرارة البن في حلقي تخفف من وطأة مرارة الواقع . في طريق عودتي من المطبخ إلى حجرة النوم ثانية لمحت ورقة أسفل باب الشقة . التقطتُّها وقرأتها:

" أحمد : لم أجدك في شقتك . أين أنت ؟! .. على أيّة حال ، غداً أريد أن اصطحبك إلى كنيسة العذراء بجاردن سيتي لحضور إكليل إحدى صديقاتي .. وكمان فرصة تتعرّف على عاداتنا في الأفراح .

تحياتـي ..... هيلانــة

انتابتني رهبة دخول المكان لأول مرة وأنا أخطو مع " هيلانة " أولى خطواتي داخل كنيسة العذراء بجاردن سيتي . قلت لها : أنا لن أنحني مقبلا يد الكاهن ! .

ضحكت ثم قالت : " ولا أنا كمان .. ولا يهمك يا سيدي ..

هايحسبوك من طائفة الإنجيليين ! (الإنجيليون لا يقبلون يد كاهن)

كان من الواضح أن هيلانة شخصية معروفة هنا ربما نظراً لأن والدها من أهم رجالات الكنيسة الأرثوذكسية المصرية . التف كثير من الشباب والبنات حولها للسلام عليها والسؤال عن غيابها الطويل لرؤيتهم لها . قدّمتني لأصدقائها وصديقاتها :"أحمد صديق العائلة وكمان جارنا " .

لم يكن ذلك مستغرباً ، فكثير من المسلمين موجودون هنا كأصدقاء للعروسة أو العريس .انتحَتْ بي جانباً . جلسنا معا على أريكة من خشب مفروشة بفرش ناعم ووثير . بدأ الإكليل بكلمة للكاهن المسئول عن ذلك تحدّث فيها عن قيمة الزواج في المسيحية وأهمية أن تخضَعَ المرأة للرجل زوجِها .

جزعتْ نفسي من كلمة الخضوع التي تكررت على لسان الكاهن أكثر من مرة . إنها نفس الأوامر والإرشادات الصارمة التي يلقيها الشيخ المأذون على الزوجين في المسجد ! .. الخضوع والطاعة المطلقة . نفس الخطاب التراجعي المقيت والمعبّق برائحةٍ ذكوريةٍ فجّةٍ تعطي للرجل كل الحقوق والسيادة المطلقة على الأنثى تحت غطاءٍ ديني ، إسلاميا كان أو مسيحياً وسالبة في الوقت نفسه أغلب - إن لم يكن كل - الحقوق من الأنثى .
لما لاحَظَتْ "هيلانة" على وجهي عدم الرضا ؛ همست في أذني :" سوف نخرج الآن .. تعالى معايا (واقفة) للعروسة أقدّم لها هديتها ، وبكده أكون عملت الواجب معاها كصديقة ، وبعدين نخرج لمكان نقعد فيه شويه علشان عايزه أتكلِّم معاك "
انتهت هيلانه من واجبها تجاه العروسة وأشارت ناحية باب الخروج فتبعتُها .
اجتزنا منطقة القصر العيني مشياً على الأقدام . كنا نفسح مكانا للصمت . وصلنا ميدان الإسماعيلية . ثم قالت واضعةً نهايةً لحالة الصمت الذي يحاصرنا :
- أحمد : إنت فاكر رواية [ماجدولين] اللي اديتها لك من فترة علشان

تقراها ؟

- آه .. فاكر .. وقريتها كويس .. ليه ؟

- أصل الرواية اتعملت فيلم وهايُعرَض الليلة في سينما [أمير] بشارع عماد الدين .

لم أدخل سينما حتى الآن منذ مجيئي قاهرة المعز . اليوم دخلت كنيسة العذراء لأول مرة مع هيلانة وها أنا في طريقي إلى سينما [أمير] لأول مرة معها أيضاً .

قلت لها متسائلا :

- هو ده الموضوع اللي عايزه تحكي لي عليه ؟

لما خافت أن تفضحها عيناها ؛ نظرت بعيداً وقالت متلعثمة :

- آه .. لا .. بصراحه أنا خايفه أحكي معاك فيه ، بس بعد الفلم ممكن نتكلم .

قادتنا أقدامنا بعدما فضّلتْ هي أن نمشي إلى شارع رمسيس ومنه انحرفنا إلى شارع عماد الدين .

واجهتنا أفيشات فيلم اليوم :

فلم
عبد الوهـاب
يعرض

دموع الحــــــب
بسينما أميـــر

مأساة مصرية غنائيـــــة
مقتبسة من رواية ماجدولين التي ترجمها
إلى العربية
المرحوم / مصطفى لطفي
المنفلوطي. طاقم العمل
محمد عبد الوهاب / نجاة علي / سليمان
نجيب .
تأليف الفونس / كار
إخراج
محمد كريـــم

اكتشفتُ أنها قد رتّبتْ لهذه السهرة من قبل ذلك لأنها أخرجت من حقيبتها تذكرتين . اقتادنا شاب يرتدي زيا مختلفاً وطربوشا أنيقاً بيده كشاف صغير- إلى مقعدين يعرفهما برقميهما المدونين على التذكرتين . أذكر وأثناء دويتو (ما أحلى الحبيب) بين محمد عبد الوهاب ونجاة علي ، أذكر كنت أغني مع عبد الوهاب مردداً :

" تعالى واسي الفؤاد
أسقيك من كاس حناني
وأسمعك لحن حبي
ونعيش في جو الأماني ".

الجملة الأخيرة رددتها (نجاة علي) مع عبد الوهاب . هل رددتها هيلانة مع نفسها ؟ ربما ! انتهت حفلة الفلم بنهاية سعيدة كما هو متوقع ، اندفعنا بخطوات هادئة ومنتظمة تجاه باب الخروج .

الجو خارج السينما ينذر بانخفاض في درجة الحرارة غير أن الحالة التي عشتها مع هيلانة جعلتني لا أخشى من البرد .
شارع عماد الدين يشبه حي [وست إند] في لندن كما أخبرتني " إيفا " فيما بعد . اتجهت بي هيلانة إلى مقهى مكون من طابقين ، الطابق العلوي للعائلات . صعدَتْ هي أولاً وتبعتها . لما جاء النادل ؛ طلبنا في صوت واحد فنجان قهوة مظبوط . لما اعتدلتْ قبالتي قالت متسائلةً :

- إيه رأيك في الكوبليه الأخير اللى كنت بتغنيه مع محمد عبد الوهاب لدرجة إن القريبين منا التفتوا مبتسمين ؟!

- آه .. كوبليه جميل ومشحون بمشاعر راقية طبعاً وما قدرتش أمسك نفسي ورددتُ الكوبليه مع عبدالوهاب ونجاة (قلت)

- هل تعلم إن أنا كنت بأردد نفس الكوبليه بس من غير صوت ؟!

- ربما المشاعر والأحاسيس تتغلّب على الإنسان أن يكتم ذلك.

عندما وضع النادل فنجاني القهوة على الطاولة كانت هي البادئة فسحبَتْ فنجانها . رشفت رشفة كأنها لتعينها على الكلام الآتي . وضعت الفنجان على الطاولة ثانية . سحبت من فضاء المكان نفسا عميقا ثم زفرته وقالت كانها تخاطب ملائكة :

- الحب يجعلنا نرى الأشياء من جديد وكأننا نراها الآن ، يجعلنا نكتشف الكون ثانية وكأننا لم نكن نعرفه من قبل ، يمسح الحب بأصابعه البيضاء والمقدّسة على أعيننا نبصر الحياة في أروع تجسدٍ لها ، نبصرها وهي تولد من جديد ، الحب يُحْيينا ويجددنا ، البغض يقتلنا كل يوم ، من يكره يسقط في الموت .

أحسست ساعتها أن اعترافاً ما تنوي"هيلانة" أن تبثه لي .

جفلتُ وسمعت دقات قلبي الذي كاد أن يقفز من بين ضلوعي . ضلوعي التي بدأ المرض يتحرك فيها منذ أسبوع .

في الوقت الذي رشفتُ آخر رشفة من فنجاني كانت ترفع الفنجان إلى شفتيها الرقيقتين ثم تحفُّزٌ واضحٌ ارتسم على وجهها الملائكي :

- أنا عايزه أصارحك يا أحمد ويا رب تفهمني صح !

- اتفضلي . كلِّي آذان صاغية .

تحول جسدي كله إلى أُذنٌ كبيرة في انتظار اعتراف ما أو قرار ما يشبه القرارات القدرية .

- أنا بحبك (قالت)

انمحت الفواصل بين الأشياء من حولي . كبرت النجوم وتدلت . تحرك القمر بسرعة غير معتادة ليقف فوق رأسي تماماً . أصبحتُ قاب قوسين أو أدنى من عرش الله .

أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن أنا واصلت هذا السكوت .

أربكني اعترافها الذي يشبه كلام السماء . كيف أستقبل هذا الاعتراف بدون ملأ من ملائكة الله في معيتي ؟! حاولت أن

أحشر قلبي في علبة الصمت . لذتُ بقلبي فوجدته ضعيفاً . بذلتُ جهدا كما الأنبياء كي أُخرج صوتي المدفون في مقبرة الخرس .

- أنا لا أحبك فقط يا هيلانة .. أنا الآن أحاول أن أفرش حصيرتي اللغوية كي أصيغ جملةً تليق بحبي لك (قلت) ثم صرختً كطفل دُهِشَ برؤية أمه التي كان قد يئس من حضورها .

قالت ساعتها :

- أريد الآن أن أرقص عاريةً معك . مش ممكن يا أحمد .. كنت خايفه .. خايفه من ردّك .. أنا عارفه إنك صريح لدرجة الصدمة ... يااااااه ... حبيبي يا أحمد .

****

الورقـــة 11

هكذا اقتادتني " هيلانة " إلى منطقة أشبه بمناطق الزلازل والعواصف . ساءلت نفسي :

لكن هل أنا أحب هيلانة ؟! أقصد هل أنا أحب ذلك الجسد الشهي المُغوي والمثير ؟ هل انا أحب تمرّدها - كأنثى نادرة الوجود – على ثقافتنا التي تلقيناها وتسلّمناها بالرضا والقبول دونما غربلة؟
هي وحدها التي من دونهن تمرّدت . هل انا أحب روحها التي تشبه روح الصوفي والعارف بالله ؟
على أيّة حال ، أنا أحب هيلانة . هيلانة فقط ؟ أشك في هذا . لستُ – ربما – من هذا النوع من الرجال الذين تمتلكهم أنثى بحبها . ربما أن العقل يزاحم القلب في نظرته للحب . إن ذلك الثقب في عقلي يزداد تجويفاً يوماً بعد يوم .. إن عقلي يكاد يبلعني .
الساعة ، تملّكني إحساس أن مساحة في قلبي فارغة وتحتاج لمن يملؤها . لا أفهم لماذا انتصبت شخصية المسيح أمام عينيّ ، انتصب المسيح واقفا أمامي كأنه يقول : أنا هو الذي سأملأ فراغ قلبك وروحك .
اللاهوت المسيحي يقول بأن المسيح جاء للعالم ليخلّص الخطاةَ من ثقل خطيئتهم . جاء للمتعبين ليريحهم من نير أغلالهم وثِقَل قيودهم . الخاطئ ؟ هل جاء للخطاة ؟! الذين هم كمية من النجاسة المعجونة بشهوات وشرور وخبرات مؤلمة في الفجور ؟! الخاطئ الذي هو رذالة عند الناس ؟!
هذا – الخاطئ – تقول العقيدة المسيحية : هو صديق المسيح المدعوّ لحفل عشائه ، الذي جاء يطلبه من وراء السياجات ، يطلبه

شريكاً لعرسه ووريثاً معه لله . المسيح وعد الخاطئ – تقول المسيحية - أن لا يذكر له خطيئة واحدة مما فعل بل ينساها كغيمة صيف يبتلعها وهج الشمس .

قالت لي " ماريان " بنت المقدس سمعان يوماً : " بدون الخاطئ لا يمكن أن نفهم محبة المسيح ولا يقاس عمقها ولا يكون لها فعل يكشف تفوقها الإلهي"(لم أستوعب كلاما مثل هذا وقتها) غير أنها أردفت :"المحبة الإلهية تظهر جليلة في عين الإنسان حينما يتعرّف عليها وهي متنازلة إليه بينما يكون هو ساقطاً في حالته المزرية . من أجل الخاطئ انكشفت أسرار حب الله للإنسان وانفتح عليه غنى المسيح . المسيح لا يُغْنِي غنياً ولا يُشبِع شبعانا ولا يبرر بارّاً . غنى المسيح للفقراء والمطرودين والمُحتقَرين عند أنفسهم . دَسَمُه للجياع وبِرُّه للخطاة ويمينه للساقطين وعلمه للأطفال وللمتصاغرين عند أنفسهم . من كان فقيرا أو جائعا أو خاطئا أو ساقطا أو جاهلا فهو ضيف المسيح . المسيح نزل من مجد ملكه يطلب الذين في الحضيض الذين بلغوا حالة مذلة وهلاك . لقد جاء للذين فقدوا الأمل والرجاء في أنفسهم ، في نفوس هؤلاء المُزدرَى بهم والمنبوذين يرتاح اتضاعه إذ يجد في التنازل إليهم عملا لوداعته" .

لم أعِ كيف تذكرت كل هذا من كلامِ ماريان وكأنها طوت المسافات وجاءت تلقيه على مسمعي الآن . قمت من مكاني في حالة من السُّكْرِ والهيام وقلت في نفسي :"كيف لم أعر هذه الكلمات قلبي ؟! آه يا ماريان يا سرالألم ويا وجع العقل والروح . ترى أين أنتِ الآن ؟صنعتُ لنفسي فنجان قهوة . أطفأت النور وأضأتُ داخلي بمصابيح ماريان :

- آه يا أحمد لو علم الخطاةُ أنهم عمل الله ومسرة قلبه ، لو تأكد الخاطئ أن مكانته عند الله هي المكانة الأولى في اهتمامات القدير وتدبيره منذ الأزل وأن بال الله ظلّ مشغولا بعودته كل الدهور وأن السماء كلها تترقب رجوعه ، لما خجل من نفسه أو احتقر قدرته ، أو

أجّل دعوته . آه لو لو علم الخاطئ أن كل ذنوبه مع تعدياته وضعفاته هي موضع إشفاق الله ومحل عفووتسامح وأنها مهما تعاظمت ، فلا يمكن أن تصدّ قلبه أو تُطفئ رحمته أو تعطل حبه ولا إلى لحظة واحدة . يقول المسيح :

"هلمّ نتحاجّ " يقول الرب . إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيضُّ مثل الثلج . إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف " .

الحقيقة ، كنت والآن فقط أقارن بين الله الذي ورثْتُه عن أبي وبين الله الذي كانت قد حدثتني عنه "ماريان" .. الحقيقة أيضا أنني لم أكن – ساعتها – أصغي لكلامها بقلبي ، كنت أسمع وأسجل ما أسمعه في ذاكرتي . على أية حال : الخاطئ في الإسلام – كما تعلمت – منبوذ ويعامله الناس كالأجرب . كان خطيب المسجد يحذرنا من الخطاة :" ابتعدوا عنهم " كان يقول بصوته الجهوري :

- لا يأكل طعامك إلا مؤمن . لا تساعد محتاجا بعيدا عن دينك .

في المسيحية ، الخاطئ ربما ظن أن خطيئته تمنعه عن طلب الله مع أن المسيح جاء يطلب الخاطئ ! لم تعد الخطيئة قادرة على أن تفصل الخاطئ عن الله بعد أن جاء المسيح ودفع الثمن ، كل الثمن على الصليب . المسيح وصف التائب بإنسان غريب الجنس وقع بين لصوص في بلد غريب فجردوه من ملابسه وسلبوه وفضحوه وجرحوه وتركوه ميتا أكثر منه حيا . التائب كإنسان عرّاه الشيطان من ثوب كرامته كانت تلك حالة التائب حتى جاء المسيح فتلقفه وغسله ولم يفكر في أن يسأله أو يلومه بل قدّم له شفاءً لروحه وانحنى عليه يضمد جروحه حتى تعافى تماما .

لا أعرف ما الذي أدخلني في هذه الحالة النفسية المسيحية رغم أنني ضجرتُ بالأمس من عظة الكاهن في كنيسة العذراء بجاردن سيتي ، لا أعرف ! هل المسيح الذي عرفته من " ماريان " ووجدته في سلوكيات أم مينا في [مير] يختلف عن مسيح الكنائس والعِظات ؟! هل سرق

الكهنةُ المسيحَ وأخفوه عن الناس لحسابهم الخاص ؟! مرةً قال لي والد هيلانة القمص فادي وكنت ضيفاعنده : " المسيحية ليست دينا ، المسيحية برنامج حياة " . قضمتُ رغيفا جافا وقطعة جبن خشنة وارتميت على السرير أفكر بـ ماريان بنت المقدس سمعان والتي جاءتني في نومي حزينة على غير عادتها . سألتها عن حزنها حاولَتْ أن تحرك شفتيها كيما تجيبني غير أن دموعها سبقتها .

****

الورقـــــة 12

عندما يتوقف عقلك الباطن عن الأحلام ؛ فلربما تهاجمك الكوابيس اللعينة . تأكدتُ بعد قليل أنه لم يكن كابوساً بل كان رعباً وفزعاً .
كنت نائماً وكنت قد تمنيت أن يجيء الله لي فيضع نهاية لهذا القلق الوجودي الديني الذي يلفني كضباب سميك ، أو لربما يأتيني أحد بطاركة الله أو حتى العذراء مريم .
لكن جاءني البوليس السياسي كما توقعتُ وتوقع غير واحد من أصدقائي الريشيين . يدٌ غليظةٌ خنقتني وحذاءٌ أكثر غلظةً داس على بطني فاستيقظتُ ما بين الميِّتِ والسكران .
- اصحى يا ابن الشرموطة يا كافر يا ابن الكافرة .
شعرت كأنما الحاجة " سعدية " وقد تململت في قبرها ؛ لم يسبها أحد من قبل . لم تكن كافرةً وأنا لست كافراً . أكبرهم جسماً سحبني إلى أسفل الحنفية وترك الماء ينساب فوق رأسي . تأكدتُ والدم ينساب من أنفي وفمي كخيطٍ مختلطٍ بالماء أن ما يحدث ليس كابوساً . كان حقيقة . صفعني أحدهم على رقبتي فسقطتُّ كالمغشيِّ عليه أرضا . صرختُ غير أن أمي لم تهرول ناحيتي لتضمني إلى صدرها وتسقيني جرعة ماء وتُذهب الروع عني بكلماتها : " خير اللهمّ اجعله خير . ماتخافش يا حبيبي ، ابعد يا شيطان " .
لم يبتعد الشيطان وجثا على ظهري . تصورت أنه لوطيٌّ وربما يفعلها معي الآن غير أن كبيرهم أمرهم قائلاً :
- اسحبو ابن المتناكه ده وهاتوه برّه .

أقل من ساعة (ربما) وكنت مرمياً كعلبةِ سجائرَ فارغةٍ في حجرة معتمة . هل هي حجرة ؟! .. ربما كانت سرداباً .. ربما . مرّت عليَّ أيام وأنا لا أدري أين أنا ؟ كانوا يتناوبون الضرب على جسدي الواهن وقبل أن أموت يتركوني . عندما أصحو من الإغماءة يعودون للركل والضرب المصحوبين بالسباب . ربما مرّ زمن وأنا في حالة إغماء عميقة .. ربما !

يدٌ ، كأنها يد الشيخ عبد العليم ربَّتت على ظهري فتألمت لكني كتمت الصرخة لما أدركت أنه يقصد تخفيف الألم ومواساتي . قال :

- سلامتك يا ابني . إيه اللي جابك هنا ؟

كان السؤال ساذجاً وبريئاً . التفتُّ إلى صاحب الصوت والذي بدا لي شبحاً . ظنَّ أنني خائف منه

- ما تخافش يا ابني . أنا سجين ومظلوم زيّك .

ما الذي عرّفه أنني مظلوماً ؟! كل المساجين على مرّالتاريخ يعتقدون أنهم مظلومون. حاولتُ أن أردَّ عليه .. ابتلعتُ كلامي . جاء صوتٌ من ركن معتم في المكان :

- من أي ينبوعٍ دامٍ هذه العتمة المنسكبة في قلبي وروحي ؟

شجعني الكلام المتسائل على التساؤل :

- مين ده يا عم ؟

- أخيراً نطقت يا ابني ؟! .. الحمد لله .. إنت بخير ؟ ثم أضاف :

- ده واحد من السياسيين , وشكله شاعر لأنه من ساعة ما جيت أنا هنا وهو بيتكلم بالشعر والحِكَم .

بالكاد أسندتُّ ظهري لحائط السجن بمساعدة الذي يشبه صوته صوتَ أبي الشيخ . تحسسته ثم سألته:

- حضرتك مين يا حاج ؟

قال :

- أنا عمّك عبد المنعم الفقير لله . أعمل مقيم شعائر في مسجد قريتنا .

سألته : إنت هنا ليه يا حاج عبد المنعم ؟

- تُهْمة يا ابني ومظلوم فيها (ثم اكمل) : خطيب المسجد بتاعنا طلع من جماعة الإخوان المسلمين والله ما كنت أعرف ، وكان بيزورني كل جمعة بعد الصلاة لأنه كان من بلد بعيد عن قريتنا ، وبعد ما كان بيتغدّى معانا كان بيتّكل على الله ويمشي لبلده (أكمل الحاج عبد المنعم كلامه بعد أن تنهّد) :

- وفوجئتُ يا أستاذ ... (ثم توقف عن الكلام وسألني): ممكن أعرف اسمك يا ابني ؟

- اسمي أحمد .

- وفوجئت يا أستاذ أحمد بالبوليس هاجمين على بيتي وأخدوني من وسط عيالي . وهنا بس عرفت إن تهمتي إن أنا عضو في جماعة الإخوان! . وكمان عرفت إنهم هايفصلوني من شغلي ويقطعوا عيشي .

الحاج عبد المنعم قال الجملة الأخيرة وهو ينتحب .

كالمشلول حرّكتُ يدي ووضعتها على كتفه مربتا عليها محاولا أن أطمئنه :

- ما تخافش يا مولانا ، ربنا موجود .

سألت نفسي : الله موجود ؟ .. طبعا موجود .. لكن ماذا يفعل الآن ؟ هل لا يعلم بتلك الآلام ؟ حشرجات الضعفاء وأنّات المكلومين ألا يسمعها ؟!

سألت الرجل :

- اسمع يا مولانا ، إنت مش مؤمن بالله ؟

- ونعم بالله يا أستاذ أحمد .

طيب . إنت مش عارف إن كل شيء بقضاء الله وقدره ؟

- طبعا يا ابني .

- أُمّال ليه قلقان وخايف طالما إنك مؤمن بكل ده ؟!

سكت الشيخ برهة ثم قال :

- والله يا أستاذ أنا مش عارف . أنا فعلا مؤمن بقضاء الله وفي نفس الوقت قلقان ومش مطمئن !

ضحك الشاعر قبالتنا وبدون استئذان انضمّ إلينا وقال بيقين :

- خِدَع وأوهام ورثناها . أفكار متناقضة يستخدمها السلطان في كل زمان لتخدير الشعوب وتكميمها .

أحسست أن الشيخ " عبد المنعم " يوجه سؤاله لي أنا بدلا من توجيهه للشاعر :

- يعني إيه الكلام ده ؟

كلام له معاني كتير يا حاج .. التقاليد والعادات اللي ورثناها عن جدودنا من غير ما نفكّر فيها ومن غير ما نسأل أنفسنا هل هي صح ولا غلط ؟

- والله يا ابني كلامك سليم . العلم نور واحنا غلابه لا أهلنا

علّمونا غير ده ولا حد ورّانا الطريق الصح . سكتنا جميعاً لنسمع صوت عسكري يجلجل :

- افتحوا الباب وهاتوا الولد الشيوعي الشاعرالخاين ابن المره الشرموطه .

تملكني الرعب . خفتُ أن أكون المقصود . ضحكتُ كالمذبوح وقلت لنفسي :

- طب ما أنا لا شاعر ولا شيوعي ولا خاين ولا ابن شرموطه .

فتح أحدهم الباب وتبعه آخر . قاما بسحب الشاعر من بيننا . عادت الروح إلى جثتي مرة أخرى لمّا تأكدتُ أنني لست المسحوب . لمحت ورقة تسقط من جيب الشاعر المسحول توّاً على ضوء الباب المفتوح . لما ارتجَّ البابُ منغلقا ؛ عادت العتمة . أمسكت ورقة المسحوب للخارج إلى غير ما عودة . وقفت متحاملا على الحائط والشيخ عبد المنعم . اتجهت ناحية كوة تطل على قمر مذعور في سماء الدنيا . فتحت الورقة وقرأت :

" أيها الوطت المسافر
ملامحي تسيل على كفي كلما
حاولتُ
أن أتحسسه بكفي
أنا خليط مائع لأني حضنت
الشمس
ذابت ملامحي وانصهرت عظامي
في قدرها الكبير المغلي

وها أنا أدور وأذوب وأصرخ
وما زال ثلج غيابك يطفو على
سطح القدر
كتلة جليدية عصيّة على الذوبان

****

الورقــــة 13

تمر الأيام هنا في السجن بطيئة ومتشابهة كالقطط السيامية . علاقتي بالشيخ " عبد المنعم " تزداد قوة . مساجين آخرون انضموا إلينا بتهم مختلفة ، كانوا يسألونني عن أشياء كثيرة في الدين أو السياسة فكنت أجيبهم بما لا يصدم مشاعرهم وحتى لا أفقد المتعاطفين معي في محنتي ، وكلنا في مِحَنٍ مختلفة .

هذا الصباح وكما عرفت من الزائر المباغت أن اليوم الجمعة . سأل عني في كل مكان حتى استطاع عن طريق ضابط قريب له أن يعرف مكاني ويزورني صباح يوم الجمعة هذا .
العسكري الحارس نادى بصوت خشن :
- أحمد عبد العليم .. المسجون أحمد عبد العليم . زيارة .
سحبني العسكري من تحت إبطي المتسلخ بفعل حرارة الغرفة القذرة والملتهبة برغم أن الشتاء كان يجثم على القاهرة . أوصلني العسكري إلى حجرة مضاءة وواسعة ، أسفل جدران الحجرة مقاعد من خشب متين وعتيق . كانت المفاجأة والفرحة ؛ إنه هو بوجهه المبتسم غالبا . الشيخ " البحيري " الصديق الأزهري بعمته وزيه الأزهري . طار التعب من فوق جسمي . دبَّ نشاط غريب في جثتي جعلني لا أتمالك نفسي عندما رأيته يرفع ذراعيه مرحباً . انطلقت كالسهم تجاهه . دفنت رأسي في صدره . بكى هو وبكيت أنا بصوت مسموع .
- حمد الله ع السلامه يا شيخ أحمد .
مسحت آخر دمعتين من عينيّ وقلت :

- بخير يا مولانا . أخبارك يا صديقي ؟ فينك من زمان ؟ كيف عرفت طريقي ؟! أذكر ساعتها أن الشيخ " البحيري " اعتذر عن عدم سؤاله عني وقال :

- كنت خايف أسأل عليك تكون متراقب من مشايخ الأزهر ويفصلوني أنا كمان !

كانت الزيارة لطيفة خففتْ من وقع ما أنا فيه ، حاول – ساعتها – أن يخف عني بنكاته وقفشاته المعهودة . نجح البحيري إلى حد ما في أن يبدد بعضا من المرارة والحزن اللذين سكنا روحي . عاتبني على جرأتي في التصريح بأفكاري وأنّبني على ما وصلت إليه من حال !

قال لي البحيري :

- خُد بالك يا شيخ أحمد ، أنا على مسافة ليست بعيدة منك . أنا قريب من أفكارك كثيراً،غير أنني لا أقدرأن أنبِس بكلمة من تلك التساؤلات وإلا فسأعود لأهلي بخُفَّي حنين (ضاحكا) وربما حتى لا أجد الخُفَّين .

قال لي أيضا ، فيما أذكر :

- لا بد أن أعود إلى أسرتي بالشهادة العالية حتى أحقق لهم حلمهم بكوني خطيباً في مسجد القرية يشار إليه بالبنان . (ضحكتُ وضحك البحيري ثم قال) :

- أهو كله أكل عيش والسلام !

- كيف عرفت أنني هنا يا بحيري ؟

- من أصحابك في مقهى ريش .

في نهاية الزيارة دسَّ البحيري في جيبي أوراق نقود وناولني بقجة وقال :

- فيها ما لذّ وطاب يا شيخ أحمد وكمان أنا عملت حساب اللي معاك .

كان حضن الوداع كبيرا وكانت الدموع غزيرة .. ثم لما مات الكلام في حلقه ؛ رحل .
قلت في نفسي : لماذا لم يزرْني أحد من الريشيين ؟! ... ربما خافوا .. التمست لهم الأعذار فهم طيبون ومخلصون .
الحارس أرجعني مرة اخرى إلى الزنزانة . جلستُ والمساجين نتناول معاً ما لذّ وطاب على رأي الشيخ البحيري . كنا نتبادل النكات أثناء الطعام . كنا نخفف عن بعضنا البعض كآبة الأيام ووطأتها على قلوبنا . فجأةً ، انفتح باب الزنزانة . تعالت أصوات العسكر موجهين كلامهم الخشن إلى المسجونين معي :
- أنتم قاعدين تاكلوا مع النصراني الكافر اللي بيشكك الناس في القرآن وبيشتم على سيدنا محمد ؟!
قال آخر :
- الكافر ده كان طالب في الأزهر الشريف وكان حافظ القرآن ، لكنه اتصاحب على شوية من الشبان الزنادقه الكفره من أتباع [طه حسين] وأحمد لطفي السيد .
وجمَ المسجونون . اتسعت أحداقهم وهم يبحلقون ناحيتي يكتشفونني لأول مرة . رمى الشيخ عبد المنعم اللقمة التي كانت في طريقها إلى فمه على الأرض .وتفل ما بقي من طعام في فيه محوقلا:
- لا حول ولا قوة إلا بالله .. نصراني ؟ ! كافر ؟! .. أعوذ بالله (ثم بصوت عال) :

- إنت مرتد يا نجس ؟!
الآخرون فعلوا مثله ، ألقوا ما بأيديهم من خبز وتفلوا ما في حلوقهم من طعام . أحد المساجين قال :

- طعام الكافر حراااام . نصراني يا عدو الله ؟! .

الشيخ عبد المنعم رفع حذاءه وعقيرته بالسب متوجهاً ناحيتي معلنا بَدْء حفلة التعذيب من مساجين لمسجون مثلهم . زاغ البصر وانعدمت الرؤية تماما وأنا أحاول تفادي ضرباتهم قدر المستطاع . كان العساكر يضحكون ويهللون بصوت ممتلئ فرحاً . تحول الشيخ " عبد المنعم " من مسجون يشعربالظلم إلى ضابط بوليس سياسي خبير بفنون التعذيب ! كان الركل العشوائي على جثتي يحيلني إلى كتلة ممتهنة من الجميع . الصفعات والبصقات تتابع على وجهي . لما أشرفتُ على الموت ؛ سحبني عسكري وجرجرني على أرض الزنزانة الصلبة . أحسست كأن جلدي تهرّأ ، خيوط من الدم تنزل من أنفي وتتسرب إلى فمي ، عرفتُ أنه دمٌ من طعمه . لم أستطع أن أبصق دمي فابتلعته ؛ كان فمي مُخدَّراً مشلولاً من كثرة الضرب . تماهي إلى سمعي صوت كأنه آتٍ من أعماق كابوس : " اقتلوا الكاااافر

عليه لعنة الله " . ظهر لي وجه الجعد بن درهم- كما كنت أرسمه في خيالي - مبتسماً وقال لي : " أنا لم يعذبني أحدهم . لقد ذبحني " خالد القسري " دونما تعذيب " .

العسكري الذي كان يسحلني على الأرض تركني . قال ضابط (؟) :

- سيبوه يزحف زي الكلب لحد برّه الزنزانة . زحفتُ إلى خارج الزنزانة . كانت مدّةُ الزحف تساوي عمري كله . لما شممت رائحة هواء مغايرة تأكدتُ أنني خارج الزنزانة . تراء لي الدهليز ممتداً ورطباً .من سخونة الزنزانة إلى رطوبة الدهليز ؛ تحرّك السعال في صدري فسعلتُ بصوت مرعب .اختلط البلغم المتراكم على صدري بالدم وتساءلت :" هل انفجرت رئتاي؟" .. ربما ! . أحدهم أمرني بأن أستمرَّ في الزحف فتبعتُ خطواتِه زاحفاً . توقف وقع الخطى فتوقفت أنا أيضاً عن الزحف . كنت أضبط إيقاع زحفي كحشرة مهيضة بإيقاع صوت حذائه الغليظ فوق بلاط الدهليز . سمعتُ صوت باب يُفتح . أحدث صرير الباب صوتاً بغيضاً للنفس . زحفتُ منعطفاً يميناً متتبعا إيقاع صوت الحذاء الغليظ حتى دخلتُ غرفة ضيقة مُضاءة . توسَّطَتْ جثتي الغرفة . ركلني الحذاء الغليظ على مؤخرتي وقال :

- خليك هنا يا ابن المتناكه لغاية لما تموت .

الورقـــة 14

اليوم ... هذا الصباح صرخ الحارس من نافذة الباب ، باب زنزانتي الصغيرة :
- المشايخ عايزين يشوفوك .. زيارة يا ابن المحظوظة .

فتح الحارس باب الزنزانة وسحبني من رقبتي إلى دورة المياه وأمرني أن أستحم ثم أرتدي ملابس السجن النظيفة التي كان قد أحضرها معه . انتهيت من الاستحمام ولبست الزي الجديد . اقتادني الحارس إلى غرفة مأمور السجن . لما دخلت وقف المأمور قبالتي مستأذناً من شيخين جالسين أمام مكتبه ثم انصرف من باب جانبي . اقتربت من الشيخين المعممين . لم أصدق عينيّ
كان أحدهما " فريد بن المقدِّس سمعان " والآخر صديق من شلة مقهى ريش نسيت اسمه .

هممت أن أصرخ باسمه غير أنه قفز من مكانه وسدّ براحة يده فمي وقال :
- يخرب بيتك يا أحمد ، إوعى تنطق باسمي . أنا متنكر في زي المشايخ وصاحبي معايا على أساس إن مشيخة الأزهر هي اللي أرسلتنا علشان نناقشك ونرجّعك للإسلام تاني !
عرفتُ يومها أن " فريد " وأصدقاءه لما تأكدوا من الشيخ البحيري أنني ما زلت حيا ؛ فكروا في تلك الحيلة الجهنمية واتفقوا على أن يرتدي فريد وصاحبه زياً أزهريا ثم يأتيان للسجن على أساس أنهما مبعوثان من مشيخة الأزهر لمناقشة الكافر " أحمد " ربما أن الله

يهديه ويعود للإسلام .
قال لي فريد أيضا :
- اسمع يا أحمد ، إحنا عاملين مغامرة ولو انكشفنا هانروح في داهية فخليك طبيعي ثم أخبرني عن أحوال أصدقائنا وكيف أنهم لم يشعروا براحة بعد اعتقالي . أخبرني أن " هيلانة "مبتئسة وسكنها الحزن من يوم حبسي :
- إحنا عرفنا قصة اعتقالك من هيلانة ! (أضاف بلؤم) : إيه ده يا مولانا ، ده إنت طلعت عاشق كبير وإحنا ما كناش نعرف ؟!
- أبدا والله يا فريد .. أنا .. أنا مش عارف .. أقول لك إيه بس ؟! .. انا لقيت نفسي باحبها ولم أتأكد من حبي لها إلا هنا في الظروف السوده دي !
قال فريد :
- المهم إحنا مش عاملين المغامرة دي علشان نشوفك بس .. لا .. إحنا جهزنا لك طريقة كويسة علشان تروح بسببها المستشفى وهناك هانقدر نساعدك .
ناولني فريد قطعة تشبه الشيكولاته ثم قال وهو يشير إليها في يدي:
- أنت هاتاكلها في الليل ، هاتشعر بعد ما تاكلها بشوية مغص بسيط بس عليك إنك تبالغ في إحساسك بالتعب وتصرخ بصوت عالي ، بعدها هاتروح المستشفى ، مستشفى القصر العيني وسيب إنت الباقي علينا .
وهما يهمان بالرحيل ، قال الذي مع فريد :
- سوف نخبر المأمور إنك مستجيب لكلامنا وكان عندك شوية شبهات وسوف نزيلها لك .

تغيرت المعاملة معي إلى الأفضل طيلة اليوم من الحراس ومأمور السجن خاصة . عندما جاء الليل ؛ أكلتُ الحلوى التي بحوزتي حسب اتفاقي مع فريد ثم دقائق وتحرك الألم بصورة جنونية في أمعائي فصرخت من أعماقي ورحتُ في دوار كبير أَفَقْتُ فوجدت نفسي ممدداً فوق سرير إيديال مفروش بالأبيض وحولي سريران آخران وممرضان مبتسمان قالا في صوت واحد :

- حمد الله على السلامة يا أفندم . تساءلت :

- أنا فين ؟

- حضرتك في القصر العيني . ثم لما وجداني مندهشا أضافا : " علي باشا إبراهيم هو اللي موصينا على جنابك .

- " علي إبراهيم باشا " ؟! مين ده ؟

- عميد المستشفى يا أفندم .

دخلتْ " إيفا " و بصحبتها " فريد " وأصدقاء مقهى ريش والجامعة الأهلية . كانت " إيفا "قد طلبت من والدها (عبد الحميد بيه الدمياطي) - والذي كان قد تبوأ مكانة كبيرة في قصر الملك [فؤاد الأول] وكأشهر أطباء الملك – أن يساعدني قدر الإمكان فأشار عليها بأن أتحايل حتى أصل إلى مستشفى القصر العيني وهناك سوف يقوم الدكتور بما يلزم . إذن صاحب المغامرة والخدعة هو والد إيفا والتي نقلتها بدورها لـ فريد وأصحابه . قالت لي إيفا :

- هيلانة تتابع أخبارك غير أنها عاجزة عن الوصول إليك كما أنها لا تعرف أنك وصلت المستشفى .

كانت"هيلانة" تذهب كل يوم لميدان سليمان باشا وتقف أمام مقهى ريش لتسأل عن فريد أو إيفا لعلمها أنني كنت أتردد على هذا

المقهى بصحبتهما . كانت تتردد على المكان وتسأل عني بلهفة جعلت فريد وإيفا يلمحان في عينيها شيئاً غير قصة أنني أسكن جارهم .
كانت " هيلانة " تعرف أخباري في السجن من أصدقائي ثم ترحل بدموع واطمئنان لا يشفي صدرها وقلقها .
عندما جاء الدكتور " عبد الحميد " والد إيفا أخبرتُه أنني أعاني من ألم في صدري . أصدر الرجل ساعتها أمراً لأطباء يرافقونه بعمل اللازم ، بعدها قاموا بإجراء فحوصات على الصدر وتحاليل .
كتب لي الطبي روشتة دواء ثم بعدها تماثلتُ للشفاء إلى حد كبير .

****

الورقـــــة 15

في صباح هذا اليوم ؛ جاءت إيفا ومعها بوكيه ورد . ادهشني ذوقها العالي في اختياره . حاولت أن أعتدل لكنني لما عجزت عن ذلك ؛ أشارت لي بأن أبقى كما أنا ممددا على السرير . تعجبتُ أنها جاءت بمفردها وأنها تركت باب الغرفة مفتوحاً . لما طلبتُ منها أن تغلق الباب ؛ ضحكت رافضةً وقالت : " حظّر فظّر .. مين معايا ومستني الإذن يدخل ؟! قبل أن أعطي لها الإذن زكمتني رائحتها الطيبة . كان قدوم " إيفا " أولاً كمجيء يوحنا المعمدان ليبشّر بقدوم المسيح المخلّص .

2

230صوت صارخ في البرية . هيلانة سوف تأتي الآن . أشرقت هيلانة تملؤها الرغبة في عناقي .

انتفضتُّ كرمح جالساً على السرير . صرت الآن قادراً على الوقوف ، على التحليق كفراشة حول نورها الساحر والغامض . غمرتني بعينيها الغائمتين بدموع تأبى أن تغادر مقلتيها . لما تركتْ كفها في كفي ؛ أمسكتُ قلبي بالكفة الأخرى حتى لا يسقط في حِجْري . كانت إيفا ترقب حالة الوجد والكشف الهائلتين بيننا .

- عامل إيه يا أحمد ؟

هل ذابت حروف " أح م د " وهي تخرج من بين شفتيها ؟ .. هل نطقت باسمي ؟! .. ربما يُخيَّل لي.إن هيلانة تغمرني الآن بنورها الصافي.هل رحَلَتْ إيفا دونما استئذان ؟ لم أشاهد إيفا ولم أعد قادراً على الرؤية في بحار النور القادم منها .

- أهلاً يا هيلانة ، وحشتيني كتير (قلت)

- إنت ما وحشتنيش .. إنت كنت معايا طول الوقت ، كنت باتألِّم معاك .

أذكر ساعتها أنها سكتت بعد أن أيْقَنَتْ أنها لم تعد قادرة على الكلام . تركتْ يدها في يدي وتركتني أبحر في عينيها الجميلتين والفاتنتين . جاء صوت " إيفا " : إحم إحم .. إحنا هنا " .

أدركتُ أن إيفا لم تنسحب من الحجرة وتغادرنا . ساعدتني هيلانة على التمدد ثانية على السرير ثم سحبت يدها برفق وكأنها تنبهت أخيرا لذلك .

- على فكرة ، الآنسة أم كلثوم هاتغنّي بعد يومين أغنية جديدة وكان نفسي أعزمك إنت وكل أصحابك على الغنوة الجديدة (قالت هيلانة)

عقبت إيفا متسائلة :

- وإيه اللي يمنع ؟!

- اللي يمنع ، ظروف أحمد الصحية وكمان ظروفه الأمنية !

- خلاص يا ستي (وفي فرح أكملت) : " لا ظروف صحية ولا حاجه تمنع الآن لأن بابا أخبرني إن أحمد ممكن يخرج من النهارده لو حابب ، هو بس محتاج شوية إرادة وحد يخرّجه من الحالة النفسية بتاعته . (ثم أضافت إيفا مبتسمة) : وبخصوص الحالة الأمنية ، أحب أعرفكم إن بابا كلّم واحد في القصر الملكي وتمّ الاتفاق على تسوية الموضوع على الورق مع القلم السياسي وأحمد مش راجع تاني للسجن .

الطبيب النوباتجي أخبرني أنني من الممكن أن أخرج ولكن ليس قبل ضحى الغد .

تأكّدت من خروجي غداً وتأكدت من عدم عودتي للسجن ثانية ثم تأكّدت من حضوري حفل الآنسة أم كلثوم بعد غد على مسرح الأزبكية وزاد يقيني من حب هيلانة لي .

****

الورقـــــة 16

مدخل تياترو حديقة الأزبكية يفضى إلى باحة واسعة تدخل منها أتومبيلات نجوم العرض . صالة المسرح تشبه صالة الأوبرا في تصميمها . بالمسرح بنوار خاص يحمل التاج المصري مذهّبا وهو البنوار الملكي .

وصلنا متأخرين قليلاً أنا وهيلانة أما باقي الأصدقاء فقد وصلوا قبلنا حيث أنهم قد تواطؤا فيما بينهم على أن يتركوني وهيلانة كيما نأت معاً ، ما أحلاه من تواطؤ .

" أيها السادة الحضور : أهلاً بكم وبحضوركم الكريم ، سوف

نستمع بعد قليل إلى الحفل الغنائي المنتظر من الآنسة

[أم كلثوم]

في قصيدة جديدة من كلمات الشاعر/ [بيرم التونسي]

ومن تلحين الموسيقار / الشيخ زكريا أحمد .الأغنية بعنوان :

(آه من لقاك) "

عندما انتهى مقدّم الحفل من جملته الأخيرة (آه من لقاك) التقت عيناي بعيني " هيلانة " . جلسنا في مقعدين متجاورين كان العامل قد أشار علينا بالجلوس عليهما . كأن الأقدار تتلاعب بي من حجرة

معتمة في سجن البوليس السياسي إلى غرفة في مستشفى القصر العيني إلى تياترو حديقة الأزبكية حيث الآنسة أم كلثوم .
طرحتُ الأيام الخوالي وراء ظهري ووضعت يدي بجواري وتركتها تسقط على يد هيلانة برفق . انتظرتُ قليلا منتظرا أن تسحب يدها لكنها لم تفعل . سحبت يدي ثانية فنظرَتْ ناحيتي مبتسمة .
" آه من لقاك " . هل كانت تلك الأغنية مقصودة ؟! كان المسرح يهتز تصفيقا مع نهاية كل كوبليه لـ أم كلثوم ثم يصمت المسرح منصتا . كأن على رؤوسهم الطير . وجدتني أردد وهيلانة بصوت خفيض مع الأغنية :

" .. وارجع وأسأل عقلي
هو الزمان هايروق لي ؟!
يقول لي عقلي : آه
العقل يا ربي
ضايع ومتبدد
والقلب في جنبي
يسكت ويتنهّد
آه من لقاك في أول يوم
ومن رجايا
ومن حبّي "

كنا نلتفت لبعضنا أثناء ترجيع المطربة لهذا المقطع من الغنوة . كان الشوق ينموبيننا كحديقة مشتعلة بماء العشق والرغبة .
لما انتهى الحفل ؛ وجدتني محشوراً بجوار هيلانة في أوتوموبيل " شارع الألفي من فضلك يا أسطى" (قالت)

نزلنا من الأوتوموبيل وعرجنا إلى العمارة التي نسكنها . وهي تخرج من حقيبتها السوداء مفتاحا صغيرا وتديره في باب شقتي ما كنت ساعتها في حاجة كي أفهم أنها اعتنت بشقتي بعد اعتقالي وأنها اشترت قفلا جديدا للشقة .عندما دلفت وهيلانة باب الشقة ؛ زكمتني رائحة بخور من النوع الغالي (كنت أعمل عند عطار في حي الغورية وأستطيع تمييز العطور) كانت الشقة نظيفة ومرتبة على غير عادتها . تحسست يد هيلانة الصغيرة كعصفورة استيقظَتْ للتو من النوم وقربتها من شفتيّ لثمتُ ظهر يدها . أغمضت هي عينيها وأما أنا فقد انفتحتْ عيون الروح على شجرة ورد أسطورية .

لثمت جبينها وتركتُ شفتيّ تنزلان إلى شفتيها مارة بأنفاسها المسكرة والتي انداحت من خلايا وجهها. مرّ زمن والشفاة متعانقة . استفقتُ لأقول لها : أنا هاطلَع معاكي أوصلك لباب الشقة "

قالت : " ماما سافرت الدقهلية عند جدّي وأخدت بابا معاها ، والمفروض إن أنا هاكون عند واحده صديقة ماما " . فهمتُ أنني سأقضي الليل معها .

****

الورقـــة 17

وحدي وهيلانة في شقة القمص والدها . لمّا استأذَنَتْ منصرفة لحاجتها ؛ تحرّكتُ داخل الشقة بحرية . قادتني قدماي إلى حجرة نومها المفتوحة على الصالة الفسيحة . تعلّق بصري بلوحة جميلة فوق سريرها ، كانت السيدة العذراء تحتضن طفلها في حنو رائع .
وقفت طويلا أمام اللوحة والتي لعلها للرسام [مايكل أنجلو] . استدرتُ لأجد " هيلانة " في أبهى صورة ، مقبلةً نحوي ترتدي ثيابا شفافة تظهر ماتحتها تماما . لم يكن تحت الثياب غير جسد بدا كأنه زهرة انبثقت الآن من حقول الثلج . لمّا أن حضنتني كدت أذوب . سقطنا على السرير كثمرة نضجت للتو ثم سقطت.
كأن السرير كان ينتظر تلك اللحظة من الأبد . لم أعرف كيف – وهي تجتاح بجسدها كل خلايا جسدي – استطاعت أن تنزع ثوبها الشفاف فيبدو جسدها الناصع البياض كالثلج المشتعل . عندما التقت عيناي بعينيها أحسستُ أنها ترى باطني كله . كانت عيناها نجمتين ممتلئتين غواية وفتنة . خصلات شعرها هامت وتحررت في سماء الرغبة وتهدّلت على جبينها الوضئ في حركة عصبية عنيفة . سرَتْ في جسدي قشعريرة مهتاجة وتحفز يؤذن بما استولى عليَّ من قلق ولهفة ونزق . أبعدتها عني برفق كيما أتمكن من التخلص من ملابسي كاملة . رميت ثيابي أرضا . كأنني رميت حطباً لنار خلاياها المتوهجة . ازدادت اشتعالا وازداد جسدي سعيرا . كانت تَثِبُ على فمي وصدري كحصان جامح . هذا الجسد الذي يحاصر هيلانة منذ بدأ ناهداها يتكوران ظهر الآن وكأنه يريد أن يحطم العالم ويبنيه كما يريد .

جريئةً كانت ومتوحشة . في رقة الحمام أمطرت جسدي كله بقبلاتها . انتهزتُ فرصة هدوء منها فقلبتها على ظهرها من فوقي واعتليتها لأبدأ تقبيلها من جبينها الوضيئ مارّاً بعنقها وشفتيها الملتهبتين و الطازجتين كفاكهة الصحراء . لما تمكنت من صدرها الذي يشبه فهدا آسيويا . تمنيت أن أموت بين نهديها . رويت صحراء فمي منها . نزلت إلى قارة بطنها لاكتشف الأشجار المثمرة والحدائق البدائية . كنت أشعر بالزغب المنتشر على سطح جسدها منتشيا بقبلاتي في البداية ، كانت تصدر تأوهات رخيمة كموسيقى حالمة ولما لثمتُ أسفل بطنها ؛ صرخت هيلانة منتفضة كأن الجحيم اندلق في حشاياها . حاصرتني بقدميها الضاغطين على ظهري كدعوة للتوغل داخلها لاكتشاف العالم الأسنى . خبّأتُ وجهي طويلاً بين فخذيها وتذكرت النبي إبراهيم ، لم تحرقه النار وهو فيها . مرة أخرى رجوت الله أن يسحب روحي الآن لأموت هنا وسط النار الباردة . لما أن وصلتُ لحالة السُّكْر والتوحدِ مع هيلانة ؛ تركت المنتصب أسفلي - بعد أن كان قد تحرّر من عقاله – لينطلق صارخا إلى أسفلها المغدق كجنة عدن . كل صحرائي المقفرة ارتوت من مائها الذي اختلط بمائي.

صرخة مدوية صاحبت صرختي .. آآآآه يا هيلانة ، بعدك لن يخلق الله شيئاً جميلاً . رحتُ بعدها أردد مع أبي مدين الغوث :

" وصن سرنا في سكرنا عن حسودنا
وإن أنكرت عيناك شيئا فسامحنا
فإنا إذا طبنا وطابت عقولـنا
وخامرنا خمر الغرام ؛ تهتكـنا

فلا تلم السكران في حال سكر

فقد رُفع التكليف في سُكْرٍ عنا "

في صباح تلكم الليلة أيقطتني هيلانة بلمسات رقيقة على أرنبة انفي . كل الصباحات بدون هيلانة معتمة وشائكة . أمرتني فاستيقظتُ ودخلت الحمام ثم تناولت معها فطارا شهياُ . أذكر كان بيضا مسلوقا وطبقا من السلاطة الشهي وكوب لبن . تناولت معها فنجان قهوتي في صالة الشقة وصوت عبد الوهاب القادم من الجرامافون .

استأذنت من هيلانة التي سألتني :

- هل تحب أن ترحل إلى بلد أوربي ؟

صدمني السؤال المباغت وقلت :

- أتمنى ذلك ولكن ...

قاطعتني : " خلليها على الله "

نزلت إلى شقتي . كانت جيوبي شبه خاوية من نقود لكن قلبي كان ممتلئا حبا وعشقا . كنت أبحث عن الله في المساجد فوجدته يسكن هيلانة .

****

الورقـــة 18

التقيت " فريد " في منتصف شارع الألفي وكأنه قد يئس من لقائي : " إنت فين يا أحمد ؟ أنا بأدور عليك من الصبح !

- فيه إيه يا فريد ؟

- الشيخ البحيري جاءنا المقهى امبارح وحمل معه رسالة بريدية من والدك الشيخ عبد العليم .

وكأن أنهارا من عسل مُصفّى غمرتني .

- الشيخ عبد العليم ؟! معقوله ؟!

خطفتُ الرسالة من يد فريد الذي أكمل كلامه : الشيخ " البحيري " استلم الرسالة بدلا عنك وحملها إلينا ، وبالمناسبة : البحيري بيسلم عليك كتير وهايشوفك قريب .

دخلتُ أقرب مقهى موجود بالقرب منِّي وفريد ، سحبتُ كرسياً وجلست أفض الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

ابني الغالي الحبيب / أحمد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لو قلت لك يا ابني إنك واحشني بس ، فهذا قليل عليك يا أحمد .

بعد موت أمك ؛ الدنيا ما عادتش دنيا . أمك ميته ومدفونه تحت وأنا من غيرها ميِّت ومدفون فوق الارض . أنا تركت [مير] والقوصية

والمقدس " سمعان " ومشيت وخلاص .

وصلت لمديرية المنيا ورجليا جرجرتني لمركز مغاغة ومنه لقرية غرب البلاد اسمها [قرية الجبل الغربي] . اتجوِّزت وخلِّفت " إبراهيم " ... أخوك إبراهيم بيكبر كل دقيقة ونفسه يشوفك

ملحوظة

أنا اتوظفت هنا في قرية الجبل بالمسجد الوحيد اللي فيها مش هاينفع الكلام على الورق . منتظرينك ، أنا وإبراهيم وأمه.

من طرف أبوك

الشيخ عبدالعليم

قرية الجبل الغربي . غروب مغاغة . المنيا

ساعتها – أذكرُ – حضنتُ الرسالة وظرف الجواب كأنني أحضن الشيخ وأمي .. كأنني أحضن عمري الفائت كله . قلت لنفسي : لازم أسافر للشيخ .. لازم وضروري . لكن من أنا ؟ ! هل سيفرح الوالد بي ؟ أنا سأجد الشيخ كما هو ، لكن .. هل سيجدني أبي كما أنا ؟! أقصد كما حلُم الشيخ بإبنه شيخا أزهرياً ؟ أنا لم أعُدْ أحمد ذلك الصعيدي و الريفي الساذج الذي يدور كل يوم على بيوت المسلمين في مير والبلاد المجاورة ليحفِّظهم القرآن . كما أنني حتى لم أعد الطالب الأزهري المُعَمَّم والذي ينتظره أهله بالجبَّة والقفطان ليعتلي منبر المسجد يوم الجمعة فيخطب في الناس ثم ينزل ليؤمهم

في الصلاة .على أيّة حال سأسافر لأرى الشيخ وزوجته وأخويا إبراهيم .
أخبرتُ " فريد " بما أنتويه من السفر للمنيا . بحثتُ عن " هيلانة " كيما أستلف منها مبلغاً لن أردُّه لها أبداً . وجدتها أخيراً عائدة - ربما - من الكنيسة . حاوَلَتْ أن تثنيني عن السفر غير أنها تراجعت لما أحسّت بإصراري . بَكَتْ وهي تناولني أوراق نقود . ضغطت على أصابعي بيديها وطالبتني بلهجة واضحة بالعودة إليها سريعاً .
قضَّيتُ الليلة ، ليلة سفري للشيخ الوالد أفكر بكيف ألتقيه ؟! ماذا لو علم أنه قد تمّ طردي من الأزهربتهمة الزندقة والتجديف ؟ ربما سيتوقف قلب الشيخ لو علم بذلك . ماذا لو سألني عن شهادة العالية الأزهرية ؟ هل أقول له أنني ما زلت طالبا ؟ هل أكذب عليه ؟ هل سيصدقني ؟ .. لكن المؤكد أنني سأذهب معه إلى المسجد ولن أستطيع أن أقول له بأن الله لن يستفيد من صلاتنا شيئاً .
سأذهب معه وسأتوضّأ وربما سأتقدّم المصلين إماما كما سيطلب مني . لن أخالفه فهو سيطلب مني ذلك افتخارا ومباهاة بإبنه الأزهري .
مبكراً استيقظتُ . رتبت حقيبة سفري التي لم ينقصها سوى الزي الأزهري . لا بد أن أشتري زياً أزهريا أدخل به قرية الجبل التي لا أعرفها وأُدخل البهجة على قلب الوالد . ربما الشيخ قد أشاع في الناس هناك أن ابنه الشيخ أحمد الأزهري سوف يُشرِّف بقدومه القريةَ خلال الأيام هذه .

اشتريت زياً أزهرياً من شارع [الملكة نازلي] ثم دخلت محطة باب الحديد منتظرا قطار الصعيد

****

الورقـــة 19

وصل القطار مركز مغاغة . وقفت مقتربا من الباب و على كتفي أحمل حقيبتي وفوق ظهري أحمل عبء اللقاء بالشيخ " عبد العليم " وعبء المواجهة بأحلامه التي خبّأها في ابنه الشيخ أحمد . كبر إبراهيم في غيابي . توقف القطار تماما على رصيف المحطة ولم يتوقف عقلي عن التفكير .
قطعت الطريق إلى جهة الغرب حيث موقف السيارات المؤدية إلى غروب مغاغة ومن ثَمَّ إلى قرية الجبل الغربي بعد أن دلّني عليه بائع فول متجول . الشمس غائبة والسماء غائمة بسحب داكنة متحفزة وتنذر بمطر غزير .
وصلتُ موقف السيارات الذي بدا خاليا من سيارة واحدة . لمّا سألتُ مندهشاً ؛ أخبرني غير واحد أن السيارة الوحيدة لقرية الجبل سوف تأتي بعد ساعة من الآن . أحد المنتظرين لتلك السيارة اقترب مني . كان يرتدي بنطالاً رمادياً قديماً وبالطو أصفر اللون متسخا ، يكبس رأسه بطربوش أحمر . اقترب مني محيياً :
- أهلاً يا مولانا ، على فين العزم إن شاء الله ؟

-قرية الجبل الغربي .
- يا مرحبا يا مرحبا .. انا من الجبل الغربي ، اتفضل نشرب شاي على القهوه دي(أشار إلى مقهى بسيط مواجه لموقف السيارات) .
سحبني الرجل من يدي ولما هممت بحمل الحقيبة خاصتي من على الأرض ؛ سبقني منحنياً وحملها قائلا : " عيب يا مولانا ، حضرتك إنت ضيفنا " .
- ربنا يبارك فيك . ثم جلسنا على المقهى ، بقية المنتظرين جلس بعضهم قبالتنا وآخرون فضلوا الجلوس على رصيف الموقف في الشارع . كان الذي استضافني يحمل تحت إبطه حقيبة متوسطة الحجم ممتلئة بأوراق .
سألته : " حضرتك بتشتغل إيه ؟" غير أنه صفّق بيديه رافعا من صوته مناديا على الجرسون الذي جاء ملبيا ، التفت ناحيتي وسألني :
- تشرب إيه يا مولانا ؟
- فنجان قهوة مظبوط من فضلك .
- هات لي انا شاي تقيل وشيشة يا ابني (قال للجرسون) ثم التفت ناحيتي وقال :
- أنا يا سيدي صالح ، اسمي " صالح " . وشغال في مصلحة البريد .
- بوسطجي ؟
- آه بالظبط كده يا مولانا ، أنا بوسطجي بلاد الغروب ، غروب مغاغة ، أنا أصلا من قرية الجبل الغربي وعايش فيها .
حكى لي " صالح " عن المشقة التي يعانيها في عمله متنقلا على حمار ما بين القرى والنجوع والكفور التابعة لدائرة عمله . تذكرتُ أيام [مير] حيث كنت أتنقَّل على حمار ما بين القرى المجاورة لتعليم أولاد

المسلمين القرآن والصلاة . لا أدري لماذا لمع في خاطري وجه " ماريان " ساعتها ؟!

وتساءلت : ترى أين تكون هي الآن ؟!

- إيه يا مولانا .. إنت سرحت ولا إيه ؟! (نبّهني صالح البوسطجي)

- أبداً يا صالح .. إنت عارف السفر وتعبه .

لم يتوقف " صالح : عن الحكي .. حكى لي عن حياة الناس في قرية الجبل الغربي وكيف أنهم في حاجة إلى إمام مسجد أزهري يعلمهم الدين على أصوله ! كان يظن أن السلطات أرسلتني إماما لمسجد القرية .

ربما مرّت ساعة ونحن جلوس على المقهى المواجه لموقف السيارات ولم تأت حتى الآن السيارة الوحيدة كما أخبرني " صالح البوسطجي " الذي استرسل في حكاياته :

- عارف يا مولانا ؟ من شدة التعب في شغلانتي دي بأكسل آجي هنا البندر علشان ما استلمش الجوابات ولا الطرود اللي باعتينها الناس المسافرة بلاد برّه لأهاليها في غروب مغاغة . رجليا تعبت يا مولانا والجسم ما عادش زي الأول .

عرفت من البوسطجي أنه يترك الرسائل تتكوّم هنا في المكتب الرئيسي ثم يأت على فترات متباعدة مما عرّضه للتحقيق كثيرا وخصم جزء من مرتبه .

- المشكله كمان يا مولانا إن الناس بتطلب مني أقرا لهم الجوابات المبعوتة لهم لغاية ما لساني بيتعب ، خد عندك مثلا الجوابات اللي معايا دي ، كان المفروض أستلمها من كام شهر ، وعلشان كده باتعرّض لخصومات كتير من مهيتي .

تنهد " صالح " وهو يقول : " الواحد تعب من الشغلانه دي،ربنا يتوب علينا منها "
أردت أن أنهي الحوار معه فقلت :" ربنا يساعدك " غير أنه لم يتوقف ولم يعطني فرصة أسأله عن الشيخ عبد العليم وأخبره أنني ابنه ولست مرسلا من السلطات إلى مسجد قرية الجبل الغربي .
ظل البوسطجي يتكلم حتى دخل أحدهم مخبراً إيانا بوصول عربة الجبل أخيرا .
هرول الجالسون بالمقهى وخارجه ليحجزوا مكانا في آخر مواصلة لغروب مغاغة . أخرج صالح قطعة نقود معدنية ودفعها ليد الجرسون وانطلق كالسهم ناحية السيارة وقال : " أنا هاحجز لك مكان جنبي يا مولانا "
لما وصلت إلى عربية الركاب ؛ انحشرتُ بين الناس محاولا أن أبتعد عن الجلوس بجوار صالح حتى لا يواصل حكيَه الممل والرتيب .
جلستُ بالكاد في المقعد الخلفي للسيارة الأوتوموبيل بعيداً عن صالح الذي جلس في المقعد المتوسط للمقاعد . سقطت حقيبة البوسطجي من يده على الأرض المبتلة بالمطر . حاول أن ينزل ثانية غير أن أحدهم وعن غير ما قصد ركل الحقيبة برجله المفلطحة فتطاير ما بها من جوابات . أحدهم لملم الخطابات بشكل عشوائي وألقاها داخل السيارة ناحية صالح
انتثرت الجوابات على وجوه الركاب وعلى حجورهم . تحت قدمي سقط جواب مكتوب على غلافه " يصل ويسلم للشيخ عبد العليم الصعيدي العامل بمسجد قرية الجبل الغربي . مغاغة . المنيا ."

حاولت أن أعرف الجهة المُرسِلة للجواب غير أن أحدهم خطفه من يدي وناوله

للبوسطجي صالح مع حزمة أخرى من جوابات كانت مبتلة بفعل الطين وماء المطر الذي كان قد ازداد هطولاً منذ قليل .
قلت لنفسي : ربما يوجد شيخ آخر اسمه متشابه مع الوالد ؟!!
انطلقت السيارة تهدر ناحية الغرب في طريق طويل عبارة عن حُفَر ومطبات لا متناهية . الحفر والتراب الكثيف في الطريق جعلا الرحلة إلى القرية صعبة وشاقة . كان المطريضرب زجاج السيارة ثم ينزلق إلى الطريق غير قليل منه كان يتسرب إلى الداخل فيداعب الوجوه المقشعرة من البرد .
- نسيت أسألك يا مولانا عن اسمك . جاءني صوت صالح فتصنعت النوم . ردّ عليه أحدهم :
- الشيخ نايم يا صالح أفندي ، سيبه يرتاح شويه .
قال الذي بجواري : " شكله تعبان من السفر ، ربنا يعينه "
- سيبوه ينام يا جماعه (قال السائق)

****

الورقـــــة 20

وصلتْ السيارةُ أخيراً على مشارف قرية الجبل الغربي وتوقفتْ تمامًا . نزل المحشورون بداخلها . انتظرت حتى نزل الجميع وانصرفواغير"صالح البوسطجي " الذي وقف خارج السيارة ينتظرني ، تمنيت أن لو كان قد رحل كالآخرين . لما داست بقدمي أرض القرية ؛ مدّ صالح يده يساعدني فرفضت شاكرا غير أنه أصرّ أن يحمل عني حقيبتي وقال :

- جنابك نازل عند مين يا مولانا ؟
- أنا رايح بيت الشيخ عبد العليم مؤذن المسجد اللي هنا .
- أنا هادلَّك على البيت بس لازم الأول تشرفني في بيتي ، تاكل لك لقمه وتشرب كوباية الشاي وبعدين أوصّلك لغاية بيت الشيخ عبد العليم .

لما وجدني مصرا على التوجه مباشرة لبيت الشخ ؛ أشار صالح إلى مئذنة متوسطة الارتفاع مصنوعة من الطين اللبن وقال :

- شايف المدنه اللي هناك دي يا مولانا ؟
- آه .. شايفها .
- بيت الشيخ عبد العليم هناك جنب المسجد .

كان المسجد يقع غرب البلد وأما صالح فقد مشى ناحية الشرق حيث يقع بيته كما أخبرني وهو يودعني . تحسست موضع قدميّ كي لا أسقط في الشارع الذي استحال طيناً بفعل المطر . لما حاذيتُ بيتاً من بيوت القرية ؛ خرج منه حمار يتبعه رجل على مشارف الخمسين ، هتف الرجل مندهشا :

- أهلا يا مولانا . والله ما إنت ماشي غير لما نسلّم عليك .
غاب الرجل لحظات في عتمة بيته وخرج تصحبه امرأة وثلاثة أولاد قال بأنها زوجته وأولاده

- بوسوا إيد مولانا يا عيال (قال الرجل يأمرأهله)
انهالت المرأة على يدي تقبلها ثم تبعها الأولاد على استحياء .
كنت مذهولا وسعيدا ببساطتهم ومحبتهم وانتظارهم ككل المصريين للمخلِّص الذي لا يجيء أبدا .
- والله يا مولانا ما إنت رايح مكان على رجليك في الوحله دي .
ساعدني الرجل على اعتلاء دابَّته ثم مشى أمامي يسحب الحمار حتى بيت الشيخ الوالد . توقف الرجل وأشار إلى بيت وقال : " هو ده بيت الشيخ عبد العليم " ، نزلتُ من فوق الحمار بمساعدة الرجل الذي مسح بيده الخشنة بقعة طين كانت قد علقت بحذائي ثم رحل .
طرقت بابا من خشب السنط سميكا . انفتح الباب عن امرأة على مشارف الأربعين وقالت مرحبة :
- يا نور النبي ، أهلا يا مولانا ، لازم حضرتك الشيخ أحمد ابن الشيخ عبد العليم ، الليل كله بيحلم بيك وما صدقناهوش لما قال " أحمد ابني هاييجي قريب " .
تأكدتُ أنها أم " إبراهيم " زوجة أبي بعد أمي .
- اتفضّل يا مولانا ، زارنا النبي (ثم انطلقت داخل البيت تصيح) :

- يا شيخ عبد العليم ، أحمد وصل ، يا إبراهيم تعالى شوف أخوك . الحجرة التي على يسار الداخل خرج منها ولد يرتدي ثوبا مخططا من الكاستور . لم أتمالك نفسي وأنا أخفض من جسمي قليلا كيما أكون فى مستوى طوله . قفز لحضني فحضنته بكلتا ذراعيّ . بكيت فرحا . أن يكون لك أخ ليس بالأمر الهين . خرج الشيخ من سنوات الغياب صائحاً :

- أحمد .. أحمد .

ملأتْ الدموعُ فمه وعينيه . فتح ذراعيه القويتين وارتميتُ في حضنه زمنا .

" أم إبراهيم " استخفّت بها الفرحة فراحت تتحرك في كل مكان دونما وعي منها وعلى لسانها تتردد جُمَل مثل :"يا نور النبي ، إنت نوّرتنا يا شيخ أحمد ، يا صلاة النبي ".

في المساء كانت الطبليّة تجمعنا وفوقها ما استطاعت أم إبراهيم أن تجهزه على جناح السرعة من طعام . في عتمة أول الليل ؛ سحبني الشيخ الوالد إلى المسجد لصلاة العشاء . بدت القرية كتلة شبحية صامتة . تكالب المصلون عليَّ مرحبين :" يا أهلا يا مولانا.. أهلا بمولانا وابن مولانا .. يا أهلا برجال الأزهر .. الأزهرية أسيادنا وتاج راسنا .. الجبل الغربي نوّر بوجودك يا سيدنا الشيخ " . أشار غير واحد إلى دورة مياه المسجد وقال لي :

- اتفضل يا سيدنا الشيخ .

كانت المراحيض قذرة لدرجة تزكم الأنوف . على ضوء لمبات الجاز كنت ترى ديدان غليظة تتحرك بحرية في حوض الماء المخصص للاستنجاء وعلى أرضية الحمامات المتسخة . مكثت غير قليل وخرجت دونما وضوء . كان البرد شديداً وكنت مجهداً . عندما أُقيمت الصلاة توجه الشيخ الوالد ناحيتي وقال مبتسماً فخورا : " اتفضل يا شيخ أحمد ، إنت الإمام ، صلِّ بنا يا ابني "

حاولت – ساعتها - أن اتراجع غير أن رغبة الناس كانت أشدَّ .
- استقيموا يرحمكم الله وساووا الصف فإن تسوية الصف من تمام الصلاة (قلت لهم) وأعطيتهم ظهري موليا القبلة ورفعت يديَّ قائلا بصوت مسموع : " الله أكبر "

ارتجَّ المسجد بالمأمومين خلفي قائلين : " الله أكبر "

في الركعة الثانية سيطر على روحي وجه هيلانة .

سوف أبحث عن تليفون واتصل بها . وحشني صوتها ؟! الحقيقة : ليس صوتها فقط هو الذي وحشني . في أوقات الغياب نكتشف عمق محبتنا .
الله أكبر..سمع الله لمن حمده ... الله اكبر . انتهيتُ من صلاة العشاء وتعجبتُ : كيف أديتُ الصلاة إماماً دونما خطأ ؟! وفور انتهائي منها ؛ قفز واحد من بين المصلين ونظر ناحيتي بابتسامة مصطنعة كأنه يستأذن بها لما سيفعل ثم حمدَ الله وأثنى عليه متوجها للمصلين قائلا :
- أيها الأحباب : إن دين الله يجب أن يكون عندنا أغلى من أموالنا وأهلينا ومن أنفسنا ، وإن الله ناصر دينه بنا أو بغيرنا ، فلنحمل أنفسنا على طاعة الله والاستجابة لأوامره والابتعاد عن نواهيه.
أيها الأحباب : أنتم تعرفون انه لا يجوز بناء كنائس في ديار المسلمين ، وهذا ليس رأيي أنا ، بل هو رأي الجمهور من علماء المسامين . لا يجوز بناء كنيسة في مصر بل يجب أن تُهدم كنائسهم إن هم حاولوا بنائها أوحتى ترميمها ... لماذا تخافون ؟ إن رسول الله قال : " لا يُقتل مسلم بكافر" وكما تعلمون فإن النصارى كفّار ومشركون لأنهم يعبدون المسيح عيسى بن مريم . لا يقتل مسلم بكافر .

آلمتني عبارة : " لا يُقتل مسلم بكافر " والتي كررها مراراً ، لم أتمالك نفسي فقلت مقاطعا حديثه المنفعل : " كيف لا يُقتل مسلم بكافر والإمام أبو حنيفة قال : النفس بالنفس ؟!

كما أن الدين جاء لتحقيق المساواة بين الناس .

قال منفعلا : " رأي الإمام أبو حنيفة ضعيف ولا يؤخذ به ، ثم إن هذا هو ديننا والحديث موجود في صحيح البخاري ، عارف يا مولانا يعني إيه البخاري ولا مش عارف ؟!

قلت منفعلا :

- وإيه يعني البخاري ؟! البخاري بشر له ما له وعليه ما عليه !

وكأنني قد عضضته في إصبعه ؛ إحمرَّ وجهه وتوجه غاضبًا للمصلين يخاطبهم :

- سامعين يا مسلمين الشيخ بيقول إيه ؟هذا هو الأزهر وهؤلاء علماؤه ! إنهم يضلُّون الناس !(ثم وهو يوسع من حدقتيه): الشيخ بيتهجِّم على البخاري وبيقلل من كلام رسول الله ، منتظرين إيه تاني ؟! دين الله يتعرّض للحرب من أهله ! حاول الشيخ الوالد أن يهدِّئ من روعه لكنه فشل . ساد هرج ومرج في المسجد . صاحِبُ الصوت العالي دائما يفوز في مجتمعات كمجتمعاتنا ! هممتُ بالإنصراف غير أنه بادرني :

- إنت رايح على فين يا مولانا ؟ يجب أن تستغفر على خطئك في حق البخاري .

قلت بصوت سمعه الجميع:

- أنا لم أخطئ في حق البخاري . البخاري وأمثاله رجال ونحن رجال ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . ليس البخاري معصوما من الخطأ .

صرخ محتدماً :

- إنت بتقول إيه ؟ اتق الله يا شيخ ، إنت عايز تساوي نفسك بالأئمة ؟! إنت مين يا شيخ ؟!

ثارت ثائرتي وغلى الدم في عروقي وفقدتُ كل حكمتي المصطنعة وصرخت في وجهه :

- إنت إنسان متخلِّف ، الثقافة والفكر اللي إنت وارثه من أهلك هو سبب تخلفك . العلماء بتوعك والكلام الفارغ لا علاقة له بالعلم ، بلا بخاري بلا شافعي ، كلهم أضلونا وتركولنا الجهل والتخلف.

وكأنني أعلنت عن كفري وإلحادي بالله أمام المتواجدين بالمسجد .

صرخ أحدهم :

- هو ده شيخ ولا قسيس ؟!

قال آخر : " أعوذ بالله .. مشايخ آخر زمن " !

الشيخ عبد العليم أُسقط في يده وحاول أن يخفف من الحرج الذي ملأه :

- يا جماعه : الشيخ أحمد تعبان من السفر وما نامش لغاية دلوقت (ثم أضاف يعتذر) :

- البخاري سيدنا وتاج راسنا ، أنا اللي محقوق لكم .

هممتُ أن أطلب من الشيخ أن لا يعتذر غير أن أحد الموجودين وضع يده على فمي مما ألجمني عن الكلام . لما أن نظرتُ لوجهه ؛ بدا لي

شاباً في عمري تقريبا ، لا يضع على رأسه شالاً أبيضا كباقي الناس هنا ، ابتسم وقال :
- علشان خاطري بلاش ترد على الهمجية والتخلُّف ده .
رفع يده من على فمي وسحبني بعيداً وقال لي : " تعالى يا مولانا معايا ، إنت ضيفي الليلة "
في طريقي معه إلى بيته عرفت أنه :
الأستاذ خالد . مدرس اللغة العربية بمدرسة قرية الجبل الغربي الابتدائية . دخلت البيت خلفه ، كان بيت خالد مميزأ عن باقي بيوت القرية بسور متوسط الارتفاع حوله . تنتشر على السور أشجار ورد بألوان مختلفة استطعت أن أميّزها بفعل الأنوار المنتشرو على السور حيث يمتلك خالد ميكنة إضاءة خاصة به . في حجرة الجلوس أجلسني مرحبا بي . غاب عني دقائق قليلة ثم عاد وبين يديه طبق من الفاكهة لعله كان برتقالا فيما أتذكر .
عرفت منه - في بداية حوارنا - أنه يعيش وحيداً ، ماتت أمه يوم ولدته وأما والده فقد مات منذ عامين تاركا له هذا البيت ومساحة من الأرض الزراعية . هو قارئ جيد لكتب الأدب العربي والأجنبي خاصة الإنجليزي منه . غير متزوج ورافض للفكرة . لمحتُ في حجرة الجلوس كتابا للكاتب المصري سلامه موسى (نسيت اسم الكتاب) أذكر أنني رأيت كتابا في يد " ماريان بنت المقدّس سمعان " لنفس الكاتب .
سألت نفسي : ترى أين ماريان الآن ؟ اختلط وجه ماريان بوجه هيلانه في مخيلتي . ما الذي جعلهما الآن تبدوان لي وكأنهما شخصية واحدة ؟!
" ماريان " أطلقت في داخلي ثورة العقل وأما " هيلانة " فأشعلت

القلب والرغبة ثورة العقل أوردتني مورد التهلكة ووضعتني على حافة الجنون والموت ، لكنه جنون بطعم النعيم . لا بد أن أتّصل بـ هيلانة ، هل أجد في بيت خالد تليفونا ؟ بيت مميز في مجاهل الريف وميكنة كهرباء لا بد أن به تليفونا .

أيقظني " خالد " من غفوة الذكريات :

- إيه ، إنت رحت لغاية فين يا مولانا ؟!

- أبداً يا أستاذ خالد ، أنا هنا معاك (مبتسما قلت)

اعتدل قبالتي وقال بحروف فصيحة وكأنه يخطب الجمعة :

- إنه رجل متعصِّب ومتطرف كجماعته التي ينتمي لها .

- تقصد مين ؟ وجماعة إيه ؟ (سألتُ)

- الأخ اللي اتكلم معاك في المسجد وحضرتك شدّيت معاه في الكلام (ثم أضاف) :

- ده إنسان مالوش دور في الحياة ووجد له دور هنا لمّا المرشد بتاع الإخوان [حسن البنا] زارالقرية وعيِّنه كمسئول عن شعبة الإخوان للقرية (يسترسل خالد) : هو إنسان بسيط ومخلص لكنه وقع في إيد جماعة الإخوان وهؤلاء يعرفون جيداً كيف يستغلّون أمثال هؤلاء السُّذّج من الشباب .

عرفت من خالد أن الإخوان المسلمين متواجدون هنا في القرية بشكل قانوني رغم أنهم يهاجمون الملك تارة ويمدحونه تارة معتمدين على ذاكرة البسطاء الضعيفة .

الأستاذ " خالد " موضع شبهة بالنسبة للإخوان لأنه قارئ جيد لكتب الفلسفة والأدب العربي والأجنبي وهم يريدون جثة بدون عقل يفكر أو عقل مستسلم لهم لا يعرف سوى السمع والطاعة لهم ، ولأن

الأستاذ ليس من هذا الطراز فهم يحاربونه ويحذرون الناس منه حتى لا يفسد عليهم دينهم .

لحق بنا الشيخ عبد العليم . فتح خالد الباب للوالد . دخل علينا والغضب يقوده ثم قال يوبخني :

- ليه كده يا ابني ؟ أول يوم تيجي من غيابك الطويل والناس كلها متشوقه تشوفك علشان تعلّمهم الدين ، فبدل كل ده تشتم على البخاري وتجرّح الناس في عقيدتهم ؟! (ثم جلس وأكمل) : هو ده العلم اللي إنت اتعلمته في الأزهر ؟! (ضرب الشيخ الوالد فخذيه بيديه وقال) :

- أخبِّي وشِّي فين من الناس ؟!

تركت الشيخ يفضفض عما بداخله . لما ارتفع صوته قلت :

- إحنا ضيوف يا أبويا عند الأستاذ خالد ، ولما نروح البيت ابقى قول اللي حضرتك عايزه .

حوقل الشيخ وناوله الأستاذ خالد كوب ماء وبرتقالة ثم انصرف وعاد بسرعة وقال :

- أنا بأجهّز لقمة على السريع يا مشايخنا . اعذروني (مبتسما) أنا عازب زي ما أنتم عارفين !

(ثم أضاف وهو يضحك ليخفف من وطأة الجو المشحون):

- لقمة عُزَّابي على ما قُسِم .

اعتذرت له ووالدي وشكرناه ثم استأذنّا منه بعد محاولات جادة كيما يبقينا في ضيافته غير أن إصرارنا كان أقوى . ثم ودعناه على وعد بلقائه في الغد .

****

الورقـــة 21

بيت الشيخ الوالد من البيوت المتوسطة الحال . مساحة البيت لا تزيد على مائة متر . جدران البيت مبنية بالطوب اللبِن . يتكون من أربع حجرات ، حجرتان على يسار الداخل واثنتان على اليمين ، تفصلهما صالة طويلة . خلف البيت توجد حجرة منفردة يستقبل فيها أولاد القرية لتعليمهم الحساب والخط وتحفيظهم القرآن .
البيت كله مسقوف بجريد النخل وخشبه . الأرض طينية مفروشة بحصير البردي من نوعية الحصر التي في الجامع .
كانت الست" أم إبراهيم " قد أعدّت لي الحجرة الثانية على يمين الداخل للنوم . سرير ولحاف وبطانيتين وششبشب أسفل السرير وسجادة للصلاة . يكاد البخور الذي أطلقته ام إبراهيم في الحجرة يخنقني ، هي لا تعرف أنني مصاب في الرئة غير أنه ترحيب البسطاء الممتلئة قلوبهم
بالمحبة . كنت لا أسمع من فمها غير : " البيت نوّر بوجودك يا شيخ أحمد .. و زارنا النبي ".
كان العشاء عبارة عن بتّاو(عيش بلدي) وبيض مسلوق وجبنه بلدي وعسل إسود وقطع من البصل والطماطم والخيار.إبراهيم كان فرِحاً بوجودي كأمه تمامًا ، تارة يجلس على يميني وأخرى على شمالي ، نهرَتْه أمه قائلة :
- يا ابني سيب أخوك ياكل زي الناس .
- مالكيش دعوه ، أنا وأخويا نصطفل (قال إبراهيم)

ضحكنا جميعًا غير ان الشيخ كان متجهمًا . لم يضحك أبدًا طيلة تناولنا طعام العشاء . شربنا الشاي . ما زال إبراهيم يصنع البهجة وما زال الشيخ عابسا . أصرّ إبراهيم أن ينام بجواري .
غادر لأول مرة جوار أمه ليكون معي . استيقظت ظهرا وأصرّ الشيخ يومها أن أصطحبه إلى المسجد . صليت الظهر مع الناس وصافحوني ببرود . بعضهم ابتسم في وجهي ربما تقديرا للزي الأزهري الذي حرص والدي أن أظل مرتديا إياه . في الليل وجدتني في بيت الأستاذ " خالد " الذي غاب لدقائق ثم عاد يحمل بين يديه صينية كبيرة مغطاة بمفرش نظيف . لما رفعتُ المفرش ظهر ما تحته من أطباق ممتلئة بما لذّ وطاب . أرز وبطاطس ولحمة وزجاجة من النبيذ الأحمر وكأس صغير . عندما سألته قال(ضاحكا) :
- لقمة بسيطة ع الماشي . وأما النبيذ فأنا أقتدي برسول الله لأن السيدة عائشة قالت :
- كنت أنتبذ لرسول الله . هل تعلم هذا يا مولانا ؟

قلت وأنا أضحك :
- نعم ، أعلم هذا وأعلم ما هو أنكى .
- إذن فلأحضر لك كأساً طالما أنت تعرف يا مولانا ؟!
- ماشي يا أستاذ خالد .. لا مانع عندي .
غاب خالد ثم عاد وبيده كأس ملأه من الزجاجة الحمراء وناولني إياه قائلا :

- على فكرة يا مولانا ، الأوربيون يشربونه مع الطعام كفاتح للشهية ، وفي بلاد الروس يسمونه الفودكا .

انخرطتُ في تناول الطعام مع النبيذ الأحمر والذي أعطى للطعام بعدا لذيذا ولما سألته قال :

- لي صديقة في إحدى القرى المجاورة تحضره لي من الكنيسة . إنهم يبيعونه في مكتبة الكنيسة ويسمونه (أباركة) .
- آه .. إنهم يتناولونه كطقس مقدس بعد القدّاس ويسمونه " سر التناول "
اندهش " خالد " وسألني مستغربًا :" الله ! إنت عارف طقوس النصارى يا مولانا " ؟!
- نعم .. أعرفها جيدا ، إحنا درسنا مادة الدين المقارن في الأزهر (قلت كاذبًا)
- لكن كلمة (القدّاس) دي عرفتها إزّاي يا شيخنا ؟!
حاولت أن أتهرّب من الإجابة لأن علاقتي به لم تتجاوز اليومين والفضفضة للنهاية ليست من الكياسة في شيء . سألته :
- إنت بتعرف تطبخ ؟
- آه طبعا وأحسن من أجدع مَرَه في البلد كلها (قال ضاحكا)
وانا أمضغ قطعة لحم شهي ومن باب ملأ الفراغ سألته :
- إيه حكاية صديقتك المسيحية يا أستاذ خالد ؟
لم يرتبك للسؤال غير أن الأغرب أنه قال بيقين :
- بصراحة .. هي مش صديقتي ، هي حبيبة عمري .
لما رفعت وجهي وجدته قد سرح ببصره بعيدا وهو يكرر " حبيبة عمري " . أحسست بالشبع فتوقفت عن الأكل وقبضتُ على زجاجة الأباركة بيد وملأت الكأس الذي كان في يدي الأخرى ثم رفعته إلى

حلقي لتنفجر الأحلام الصغيرة والدفينة في شراييني . تحركنا إلى حجرة أخرى مملوءة بالكتب والجرائد التي كانت تأتيه عن طريق البريد متأخرة في الغالب عن موعد صدورها . اتجه خالد ناحية طاولة فوقها آلة جرامافون ثم سحب اسطوانة بنية اللون (فيما أذكر) والتفت ناحيتي وأنا جالس على مقعد وثير وقال :"ها سمّعك أحلى كلام يا شيخ أحمد" ثم انطلقت الآنسة أم كلثوم تشدو مع ألحان الشيخ زكريا بأغنيتها الجديدة (أهل الهوى) . غاب خالد قليلا ثم جاء يحمل فنجانين من القهوة وزجاجة أباركة اخرى نبيتية اللون . كانت أم كلثوم تملأ المكان سرورًا :

" أهل الهوى يا ليل فاتوا مضاجعهم .. "

كنت في شوق ولهفة لمعرفة حبيبة عُمْر " خالد " المسيحية صاحبة زجاجات الأباركة وربما صاحبة أسطوانة (أهل الهوى) . عندما ارتشفتُ من فنجان القهوة

أبديتُ اعجابي لا بالصنعة فقط بل بنوعية البُنِّ اللذيذ المذاق ، قال خالد :

- إنت عارف يا شيخ أحمد إن " مارثا " هي اللي أهدتني البن الفاخر ده كمان ؟!

لم أكن في حاجة كيما أفهم أن " مارثا " هو اسم حبيبة خالد . رأيت أنه استهلال ذكي منه ليوفر عليَّ محاولة معرفة اسم حبيبته النصرانية. غطست قرية الجبل الغربي في العتمة تماما وهدأ الكون كأن الله سحبه بعيدا . ساعتها بدأخالد يحكي قصة حبه لي .

الورقـــة 22

في اليوم التالي لقرار الوزارة بندبي عام أول إلى مدرسة [دير الجبل] . توجّهتُ تنفيذا للقرار إلى مقر عملي الجديد ، كانت المدرسة بقرية ديرالجبل والتي تقع بالقرب من قريتنا فزمام القرية يلتحم تماما بزمام قريتنا . المسافة لا تحتاج إلى مواصلة . كنت سعيداً رغم أنني سوف أصحو مبكرأ قليلا غير أنني سأرتاح من جدال زملائي هنا في مدرسة قريتي ، زملائي هنا ينظرون لي نظرة الملاك للشيطان . هم على وشك أن يكفروني ويصرحون بأنني خارج عن الإسلام لولا أنني أواظب على الصلوات قدر الإمكان في المسجد حتى إذا هم اتهموني بالكفر فإن تهمتهم تكون مردودة عليهم ولن يجدوا من يصدقهم .

سأكون سعيدا في مدرسة الدير أيضًا حيث أن كل الزملاء أو حتى أغلبهم من النصارى وأنت تعرف يا شيخ أحمد أن النصارى يتمتعون بقدر كبير من التسامح وسعة الأفق .

استقبلتني ناظرة المدرسة – مدرسة الدير – بابتسامة احتوتني وبددت عن قلبي غربة المكان الجديد . لكل مكان غربته يا شيخ أحمد.

استلمت جدول الحصص الخاص بي وصعدت إلى الدور الثالث بالمدرسة لأدخل فصل 1/6 السادس الابتدائي . ابتدأت أمارس عملي في المكان الجديد يحدوني قليل من الحذر .

في اليوم الثالث جلست في شرفة الدور الثالث أفكر في اللاشيء . حمل الهواء لي أصواتَ أطفالٍ يلعبون أسفل مني مباشرة . وقفت أتابع لعبَهم وأتسمع أهازيجَهم . هالني ما رأيتُ يا مولانا ، أغمضت عيني

وفتحتهما لأتأكد أن التي أراها بشراً مثلنا . لها جسد وحيِّز يملأ المكان مثلنا !
كانت حورية السماء التي قرأنا عنها في كتب التراث والتي تصف حوريات الجنة . رأيت فتاة مصنوعة من الأثير والورد وشجر الجبال . كانت جالسةً بين مجموعة من الزهور على كرسي من جريد النخل . كانت توجِّه الأطفال في حصة الألعاب . نزلتُ من الدور الثالث مسرعا حتى وصلتُ الدور الأرضي لأتوجه مباشرة إلى الجانب الخلفي من مبنى المدرسة . جفل قلبي في مكانه . كان وجهي غريبا عليها . لما نظرت ناحيتي شعرت كأن قلبي المدفون قد استيقظ كما لو كان جنينا ينزل الآن من رحم العتمة إلى النور والحياة . وقَفَتْ من على الكرسي لما وجدتْني أخطو ناحيتها وعندما وضعتُ يدي في يدها الممدودة ترحيبا بي ؛ أحسست أنني أطفو على صفحة البحر اليوسفي .
- أهلا يا أفندم .. حضرتك المدرِّس الجديد ؟
لا أعرف ساعتها : هل كنت أسمع صوتا آتيا من السماء كما أنني لا أعرف هل

قلت لها : "نعم يا أستاذه ، أنا خالد مدرِّس اللغة العربية الجديد ؟ أم هل ماتت الكلمات في فمي" ؟!

- أنا "مارثا " .. مدرسة التربية الرياضية (ضاحكة أكملتْ):الألعاب يعني. تمنيت أن أحطم حواجز الخجل الأسمنتية داخلي وأسألها : هل أنت ممن ينتمون للأرض مثلنا ، أم أن السماء هي التي ولدتكِ ؟
- أهلا يا مارثا .. اتمنى أن تكون سنة سعيدة بإذن الله .
- سعيدة بوجودك يا أستاذ خالد (قالت مبتسمة)

تركتها مستأذنا حتى لا ألفت نظر الآخرين لوجودي الغير مبرّر معها .
وجدتني بعد ذلك أستيقظ وأنا أكثر نشاطا ، لا لأذهب إلى المدرسة بل لأذهب إلى " مارثا " . توثقت علاقتي بالزملاء خاصة هي . لطالما قرأت وسمعت عن الحب الذي يولد صغيرا ثم مع الأيام يكبر ، أما أن يولد الحب هكذا مكتملا وناضجا وطازجا كوجه مارثا فهذا ما كان يدعو للدهشة .
كنت على مدار الأيام أتبادل ومارثا كتب الروايات المترجمة والشعر . والدها كان قسيسا في كنيسة قرية الدير . أذكر أنه زار المدرسة مرة في مناسبة أعياد الربيع وقدّم لكل مدرِّس منّا هدية بسيطة , لما وقفتُ أمامه صافحني ثم أعطاني هديتي وحقيبة من الجلد الفاخر وقال لي :
- " مارثا كلمتني عنك كثيرا وعرفت منها أنك تحب القراءة ، فتقبَّلْ مني أشعار [شوقي] ".
شكرته بدوري واغتبط قلبي وقلت لنفسي : " مارثا – ربما – أنها تحبني كما أنا أحبها " ربما ؟

كان من الواجب أن أفهم أنها وطالما تحادث والدها الكاهن عني ؛ إذن فهي تفكر بي على الأقل .
ظللت أشجع نفسي كيما أفاتحها في حبي لها وأتأكد من حبها لي . هل تحبني ؟!
جاءت لي يومًا الفصلَ فخرجتُ لها . دعتني ساعتها أن أنضم معها وآخرين من الزملاء لرحلة إلى دير الأنبا صموئيل المعترف في صحراء مغاغة الغربية .
في اليوم الموعود هذا – كان يوم جمعة - كنت وسط الزملاء محشورا

في مقعد الباص يحيطني بعض التلاميذ وفي مقدمة الباص كانت تجلس مارثا وزميلاتها . لم يكن بين الموجودين مسلم إلا أنا . كانت " مارثا " تكثر الالتفات ناحيتي كثيرا . قلت لنفسي : هذه رسائل بيِّنة يا خالد ، افهم بقى يا رجل ! مارثا تحبك . وصلنا الدير ونزلنا من الباص ثم ولجنا الباب الكبير ، زرنا الأماكن الأثرية به . في ساعة الراحة (البريك) لتناول الطعام – طعام الغداء – والفاكهة ؛ انتحيتُ جانباً وأرسلتُ لها نظرة تفهم منها أن تأتي لي . جاءت ناحيتي كالحلم وقبل أن أنطق ؛ وضعت مارثا أناملها الطرية فوق فمي وسحبتني من يدي وقالت :

- تعالى أفرّجك على مكان ما يخطرش على بالك خالص .

انطلقتُ معها في طريق متعرِّج بين حشائش صغيرة خضراء مبهجة وأشجار

متوسطة الارتفاع ومنتشرة على مسافات متباعدة عرفت أنها أشجار الزيتون التي يزرعها الرهبان هنا في الدير . في نهاية الطريق المتعرِّج انعطفتْ بي ومشينا مسافة صغيرة ثم نزلنا سلّما محفورا يؤدي إلى باطن الأرض لأجد نفسي ومارثا في مغارة معتمة . انفلَتتْ من يدي وكأنها تعرف المكان جيدا . أشرق وجهها بانعكاس ضوء شمعة كبيرة كانت قد أشعلتها بيدها . ظهر المكان كأنه مقبرة تفوح منها رائحة البخور والقديسين . أخبرتني أن هذا مكان الراهب المعترف الأنبا صموئيل . والذي كان يختبئ فيه من بطش الرومان وكان أيضا يتعبّد الله هنا ويكلمه ويعترف له . قلتُ لها :

- وأنا يا سيدتي أريد أن أعترف لك هنا في مقبرة الراهب .

اقتربت مني حتى كادت أنفاسها تشعلني حبا ورغبة . قالت لي : " اعترف يا سيدي وكلّي آذان صاغية " . توقفت نبضات قلبي . ضربت قلبي بيدي فعاود النبض ثانية وقلت :

- "أنا أحبك يا مارثا " . قلتها وأردتُ بعدها أن أطلق ساقيَّ للريح ، تمنيتُ أن أختفي من الوجود تماما . ملأتْ " مارثا " مغارة الراهب بابتسامة تبعث الموتى من قبورهم وقالت :

- أنا عارفه ، بس كنت منتظراك تعترف لي أنت اولاً .

قلت : وثانيا ؟

قالت : وثانيًا ، أنا أعترف لك بأنني أحبك منذ خلق الله الدنيا بالحب .

سحبتني معها وهي تجثو على ركبتيها أرضاً وأكملت قائلة :

- صدّقني يا خالد ، أنا غرقت فيك منذ عرفتك . ولد حبك داخلي طفلاً بريئا سرعان ما كبر ثم صارشجرة وردعملاقة يظللني ويتبعني في كل مكان . حبك يأكل معي ، يشرب معي و .. ينام معي .

قلت لها : " لكن أنا مسلم " !

قالت بيقين الأنبياء : أنت إنسان .

أدخلتني "مارثا " من هذا الوقت مدرسةَ العشق . علّمتني أن الحب هو الدين الذي لا يقبل التحريف ولا يعرفُ الكهنةَ أوالوسطاء . حب له طقوسه الخاصة به والمختلفة عن طقوس كل الأديان ؛ لأن الحب من الله فقط وأما الأديان فقد تلوثت بالكهنة . تقول مارثا :

- الله لا يريدني أن أعبده . الله يريدني أن أحبك . سيكون الله مسرورا إن أنا أحببتك المسيح يقول : " الله يريد رحمة لا ذبيحة " ، لا يريد الله معبدا ، يريد الله قلبا ، قلبي هو معبد الله .

(تقول مارثا) لن يسكن جنة الله جسدٌ بل يسكنها قلب . الحب هو

الله والله هو الحب . لم يبتعد الناس عن الله بل ابتعد الناس عن الحب ، لأجل هذا رحل بعيدا وانزوى هناك في سمائه حزينا لأن أولاده لا يحبون بعضهم .

قلت لها وأنا أضغط على الحروف :

- أبوكِ كاهن !

قالت واثقة :

- إن أبي كاهن معبده الأصم وأنا كاهنة قلبي النابض بالحب .

قالت لي كلاما كثيرا وحدثتني عن الحب ، عن الإنسان ، عن الله الحقيقي وكأن روح القدس كانت تظللها .

خرجنا من مغارة الراهب متعمِّدين بنار الحب (يحكي خالد) :

عمّدتني " مارثا " بماء الحياة ،أعترف أنني من وقتها صرتُ شخصاً آخر . غيّرتني مارثا ؟

غيرني الحب ؟ ....

لا فرق بين مارثا والحب .

****

الورقـــــة 23

" ... وكلنا يا ليل أهل الهوى يا ليل "

عندما انتهت الآنسة أم كلثوم من (أهل الهوى) كان الأستاذ " خالد " قد تعمّد في دير الأنبا صموئيل على يد " مارثا " بنت الكاهن ، كان قد التحق بعالمها وأما أنا فقد صرتُ داخل الحكايةِ ، حكايةِ خالد المثيرة .

كان ينبغي عليّ أن أنصرف وقتها فلربما أن الشيخ الوالد لن تغمض له عين حتى يطمئن على وجودي في الحجرة المجاورة لحجرته .
استأذنتُ من الأستاذ خالد على أن يكمل لي قصة حبه غدا . أغلقت باب السور خلفي لأجد الليل في انتظاري بعتمته السميكة . قطرات من بقايا المطر تداعب عمامتي . توكأت على سعادتي بما سمعتُ من خالد . تماهت في مخيلتي صورتا " مارثا " و " هيلانة " وصارتا شخصية واحدة . نسيت أن أسأل خالد عن تليفون في بيته . غداً سوف أسأل الشيخ عن تليفون . وحشتني هيلانة وتمنيت أن لو كانت معي الآن في قرية الجبل الغربي والمنطوية على حكايات مدهشة .
عندما وصلتُ البيت وجدتُ الجميع في انتظاري . انفلت " إبراهيم " من تحت اللحاف القديم وقفز إلى حضني .
لمحت إناءً تحت السرير . كان الإناء مملوءاً ماء ورابسو ورغوات صابون . في الصباح عرفت أن أم إبراهيم صنعت ذلك كمصيدة للبراغيث المنتشرة هنا والتي تنط بشكل عشوائي فتسقط في الماء المخلوط بالرابسو فينتفخ ويموت . أو يموت فينتفخ .
اليوم كان من الحتم واللزوم أن أقوم بتنفيذ تعليمات الوالد الشيخ بأن

أخطب الجمعة في المسجد وأصلي بالناس إماما ثم أسلم عليهم في محاولة لتحسين صورتي التي انطبعت عند الناس .

كان أبي يحلم بمجيء ذلك اليوم الذي أصعد فيه المنبر وأخطب في الناس إماما ، يحلم بهذا تباهيا وافتخارا أمام عمدة القرية وعِلية القوم بأن ابنه صار عالما أزهريا أغلى من أراضيهم التي يمتلكونها وأموالهم الكثيرة .

أذكر أني صعدتُ المنبر وكادت قوايا تخور ؛ فأنا لأول مرةٍ – ربما الأخيرة – أصعد منبرا لأخطب من فوقه لمجموعة من الناس محشورين في مكان يكاد يضيق بهم على اتساعه وكلهم عيون تحدق في وجهي الممتقع .

لا أتذكّر عنوان خطبتي يومذاك لكنني أذكر أنني تماسكتُ بعد ارتباك تملّكني قليلا ، كنت أغمض عينيّ كثيرا وأتخيل أن لا أحد في المسجد . حسب الناس – ربما – أن إغماضي لعينيّ هو نوع من الخشوع والخوف من الله . بعد صلاة الجمعة وكنت أنا الإمام ؛ انهال المصلون على يدي يقبلونها وعلى عباءتي الازهرية يتمسحون بها ثم يمررون كفوفهم على أجسادهم تبركا . انهالت أيضا عبارات الاستحسان والمديح من أفواه البسطاء كملابسهم البسيطة . نجحت خطة الشيخ الوالد وكادت الفرحة تنط من عينيه وهو يتابع فرحة الناس وترحيبهم بابنه الأزهري ودعواتهم الملحاحة لتناول الطعام في بيوتهم . هذا يُقْسِم بالله وهذا يحلف يمينا بالطلاق أن أتناول عنده الغداء وذاك يرجو أن أتعشى عنده الليلة حتى تحل البركة في بيته .

أحدهم توجه لي متوسلا أن أدعو الله للبقرة خاصته لأنها مريضة ويخاف عليها الموت . حسم الموضوع برمته عمدة القرية والذي كان

يحظى لدي أهل القرية باحترام وهيبة مشوبان بالخوف نظرا لقرابة قوية تربطه وأحد باشوات القصر الملكي . قال أحد الخفراء يوجه كلامه لي :

- حضرة العمدة منتظر فضيلتك خارج المسجد في العربية بتاعته .

سكت الجميع وقالوا في صوت متقارب :

- ما دام حضرة العمده منتظر حضرتك وعايزك ؛ يبقى هو الأَوْلى .

دخلتُ بيت حضرة العمدة راكبا سيارته والتي ربما تكون السيارة الوحيدة بالقرية الأستاذ "خالد" كان قد ذكر في حديثه لي أنه ينتوي اقتناء سيارة . كان العمدة رجلا ربعة لا هو بالطويل ولا هو بالقصير . له شارب دقيق وطويل ، فوق رأسه طربوش تفوح منه رائحة طيبة . لا يتكلم العمدة كثيرا . لم يسألني في الدين كمل هو المتوقع . كنت لأأسمع منه غير عبارة ترحيب واحدة كررها مرتين أو ثلاثة على الأكثر طيلة مكوثي في بيته . حزنت وتمنيت أن لو ذهبت ضيفا عند أحد المصلين البسطاء .

بعد صلاة العصر بحثتُ في وجوه روّاد المسجد عن صاحب البقرة المريضة واصطحبته لبيته . كادت الفرحة تخرسه . عبارات الترحيب تتتابع من بين شفتيه المتشققتين . هدّأتُ من روعه وكدتُ أُقول له كما قال النبي محمد لرجل بسيط ارتبك أمامه في ما يشبه موقفي هذا :

- " هوِّن عليك يا رجل فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة " .

ضحكتُ من كلمة " القديد " ، لو أن صاحبي هذا سمعها فلربما لن يسألني عن معناها الذي لا يعرفه حتى لا يجهدني .

أحضر الرجلُ البقرةَ أولاً وأُسْقِطَ في يدي ، ماذا أفعل ؟! وضعتُ يدي على ظهر البقرة وحركت شفتيّ متمتماً كأنني أرتِّل أدعية نبوية للشفاء

! زوجته سلَّمت عليَّ منحنيةً في احترام وخجل تقبل يديْ التي سحبتُها بسرعة لأنحني على طفلها الصغير أقبل يده وأمسح على شعر رأسه الخشن .

صلّيتُ العشاء ووجدتُ الاستاذ " خالد " في انتظاري خارج عتبة المسجد . اصطحبني لبيته وسوف يكمل لي قصة حبه ومارثا .

****

الورقـــة 24

" ما أجمل رجليكِ بالنعلين يا بنت الكريم
دوائر فخذيكِ مثل الحلى صنعة يدي صناع
سرّتك كأس مدورة لا يعوزها شراب ممزوج
بطنك صبرة حنطة مسيّجة بالسوسن
ثدياكِ كخشفتين ، توأمي ظبية
عنقك كبرج من عاج
عيناك كالبِرك في حشبون عند باب بثِّ ربِّيم
أنفك كبرج لبنان الناظر تجاه دمشق
رأسك عليكِ مثل الكرمل وشعر رأسك كأرجوان
ملك قد أُسِر بالخُصَلِ .. ما أجملك وما أحلاكِ أيتها الحبيبة باللذات
قامتكِ هذه شبيهة بالنخلة ، وثدياك بالعناقيد
قلتُ : " إني أصعدُ إلى النخلة وأمسك بعذوقها وتكون ثدياكِ كعناقيد قيد الكرم ورائحة أنفك كالتفاح وحنكك كأجود الخمر "

كان الكتاب الذي تركتْه " مارثا " على طاولة المكتبة مفتوحًا على سِفر نشيد الإنشاد وهو كما أعلم سِفْرٌ من أسفار الكتاب المقدس .

أخبرني العامل بالمدرسة أن الأستاذة مارثا نزلت الكانتين في الدور الأرضي لتصنع بيدها – كما تعودتْ – فنجانا من القهوة وسوف تعود ثانية .
عاودتُ قراءة الاصحاح السابع من السفر مرة أخرى وكنت ألجأ إلى هامش الصفحة للتعرُّف على معنى الكلمات الصعبة الفهم .
لما عادت مارثا وجدتْني منهمكا في سفر نشيد الإنشاد فنبهتْني بوجودها أثناء جلوسها قبالتي
قلت لها : هل الله قال هذا الكلام ؟
قالت : لا .. إنه أشبه بق صيدة الغزل الصريح في الشعر العربي (ثم أضافت) :
- إن الحب الجسدي الذي يتنكر له الناس – خاصة الذين يدَّعون أنهم متدينون ومؤمنون أكثر من غيرهم – لا يعرفون شيئا . راحت تشرح لي ساعتها رؤية جديدة تماما في الحب وكيف أن الحب الروحي والجسدي كليهما ملتصقان كما الروح في الجسد .
سأتها عن معنى الآية 3 من الاصحاح السابع في السفر [سُرَّتُكِ كوب لا يفرغ من الخمر] ؟
قالت تشرح لي بدون تردد أو خجل : الوصف هنا جرئ وتشبيه السرة بكوب فارغ الخمر يعني الإشارة إلى العضو النسوي إشارة لطيفة ، كما أن لذّة الممارسة الجنسية ليست جريمة بل هي عتبة
مهمة للوصول إلى الله ، إنه الجنس المقدّس (رشفتْ من فنجان

قهوتِها وأكملتْ) :
- الخطيئة في العملية الجنسية هي أن تمارس الجنس مع عاهر مقابل مبلغ من المال ثم تنصرف كالحيوان وأنت تشعر في قلبك بالإثم وقد حاك في صدرك .
تعلمتُ من مارثا – ساعتها – أن البشر هم أعزُّ ما خلق الله وأجمل ما صنعت يداه ، جاءوا من الماء الطاهرالذي يصبه الرجل في المرأة .
لما سألتها : هل والدك القس يعرف عن فهمك هذا لسفر نشيد الإنشاد ؟ قالت :
- أنا قرأتُ هذا في كتب مبثوثة في مكتبة والدي وناقشته غير أنه كأغلب الكهنة يغطون على هذه الحقيقة لأننا وسط أناس يحقّرون من الحب ويلوون عنق الآيات حتى لا يصدمون الجهلاء من شعب الكنيسة .

- هذا تفسير يقود – ربما - إلى الإلحاد ؟ (سألتها)
قالت : الملحد شخص لا يعرف الله ، إذن هو جاهل لأن من لا يعرف الله فكيف يعرف نفسه ؟!
الله محبة ليس أكثر من هذا ، ليس هناك ملحد حقيقي ، حتى الملحد يؤمن بإله للحب وإله للجمال وإله للمطر ، هو لا يؤمن – ربما – بالوجود الأنطولوجي لله غير أن الله معه وفي داخله يسكن لكن المكابرة والجهل يحركانه . الله أوضح من أن يخفيه بشر . الشمس لا ينكرها أحد ، حتى الأعمى يشعر بوجودها ، لا تصدق يا سيدي أن هناك ملحد صادق .

يشرد الأستاذ " خالد " قليلا ثم يكمل :
- عارف يا شيخ أحمد ؟ مارثا أدخلتني دينها الخاص بها ، هي عمّدت روحي في دير الأنبا صموئيل
ثم عمّدتْ عقلي في مكتبة المدرسة بكلامها حول سفر نشيد الإنشاد ، لقد عمّدتْ روحي وعقلي وفكري ، غسلتني من المفهوم الصخري عن الله المتكبر والجبار والمنتقم ذلك المفهوم الذي ورثتُه عن أجدادي كغيري من المسلمين عن صورة الله .
فهمت يا مولانا : أن المسيح لم يأت كي يبني كنيسة أو أن محمدا جاء ليبني مسجدًا ، كلاهما جاء لبناء إنسان . حدّثتْني عن الصحابي الجليل [أبو ذر الغفاري] وكيف أنه لم يؤلف كتبا أو يؤسس فقهها ، (تقول مارثا) : أبو ذر كالمسيح ، كان يحمل قلبا ينبض من أجل الفقراء والودعاء الطيبين.
الحق أقول لك يا مولانا : إن مارثا حرّكتْ الماء الآسن في نهر الروح وأطلقتْ البخور الطيب تحت جلدي ، حوّلتني مارثا وغيّرتني من حيوان محبوس في كهف التراث إلى فراشة برية تهيم في كل فضاءات الله .

تجولتْ مارثا في كل دروب روحي المعتمة والملغومة بالتابوهات.
رجال الدين هم كهنة المعابد وأما هي فكاهنة الحب والحياة .
قالت لي ذات مرة - لما تعجبتُ من عدم التزامها بالطقوس الكنسية كثيرا وعدم اهتمامها بشريعة موسى - : اسمع يا خالد ، الطقوس في كل الأديان قشرة فقط وشكل (ثم قامت واتجهت إلى رفٍّ من رفوف المكتبة وسحبت كتابًا ، كان الكتاب المقدس بحروف كبيرة ثم فتحته

على رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية) وقرأت منه : " إذا كان الناموس – الشريعة - مؤدبنا إلى المسيح لكي نتبرربالإيمان ، ولكن بعدما جاء المسيح لسنا بعدُ تحت مؤدِّب " .

عندما جاء المسيح انتهت الطقوس ، لقد حررنا المسيح من سلطة الكهنوت ومن سلطة الفقهاء الذين أعادوا الطقوس لأغراضهم المادية والاجتماعية ثم وقفوا حجبة بين الشعب وبين الله . الشعب الجاهل يسهل اقتياده والتحكم فيه ، إن كليهما ، رجل الدين ورجل السلطة يجدان في الجاهل مبتغاهم ومرادهم .

****

الورقـــــة 25

كانت فكرة مجنونة يا شيخ أحمد (يقول خالد) ثم يكمل :

" قلتُ لنفسي ماذا لو ذهبتُ إليهم في بيتهم ؟! والدها يعرفني وهي لن ترى في زيارتي لها غير حدث سعيد . كان يوم جمعة ، ارتديتُ ملابسي وخرجتُ ميمماً وجهي شطر مارثا بقرية الدير الغربي. دلَّني غير تلميذ على بيتِ القسيس . طرقت الباب فخرجتْ فتاةٌ صغيرةٌ قلت لها :

- أنا الأستاذ خالد زميل الآنسة مارثا . غابت الفتاة لحظات ثم جاءت " مارثا " تستخفُّها الفرحة والدهشةُ كفراشةٍ فائقة الجمال . طوقتني بابتسامتها الفاتنة ثم دفنت يمناها اللدنةَ في يمناي وسحبتني إلى الداخل . دخلتُ حجرة الجلوس خلفها . قالت مرحِّبة :

- أهلا بيك يا خالد ، إحنا زارنا النبي (ضحكتْ وضحكتُ معها) .

عرفتُ أن والدها الكاهن في قدّاسٍ بالكنيسة ربما يتأخر اليوم . غابت عني دقائق ثم عادت تحمل بين يديها طبقا كبيراً به خليط من الفاكهة وكوب عصير ليمون . جلَستْ بالقرب مني وسألتني :

- إيه المفاجأة الحلوة دي ؟!

- سامحيني ، كان من المفترض أن أخبركِ بزيارتي مسبقا .

- لا أبدًا .. ما فيش أجمل من القرارات المباغتة ، لو أنت أخبرتني مسبقا فلربما كنت ستتردد في المجئ . قطعتْ بالسكين قطعة من ثمرة التفاح وناولتْني فشكرتُها . اقتربتْ مني وهمستْ :

- على فكرة أنا كنت بأحاول أرسمك في دفتر يومياتي (أشارت إلى حجرة كانت مواجهة لحجرة الجلوس) وقالت :

- الدفتر هناك في حجرتي الخاصة ، تعالى شوف الرسمه بنفسك وبالمرة أفرجك على حجرتي .

ابتلعتُ آخر قطعة تفاح ممضوغة في فمي ثم تبعتها . كانت الفرحة تحركها وأما أنا فكنت كحصان خارت قواه وخذلته قدماه . كانت حجرتها تليق بها ، سرير ودولاب صغيركلاهما من خشب الأبنوس ومقعد منجد وطاولة فوقها زهرية ورد بجوارها دفتر كبير بجوار الدفتر صورة للمسيح معلَّق فوق الصليب . ناولتني الدفتر ، دفتر يومياتها ، قلّبَتْ الصفحاتِ لتتوقفَ عند رسمة وقالت : هذا هو أنت.

لما نظرتُ وجدتُ المرسوم رجلا يقف عارياً تماما ، أعضاؤه الجنسية واضحة . اقتربَتْ مارثا مني .

قبّلتْني في وجنتِي . حضنتُها ، كانت رائحة العطر المنبعثةُ من جسدها تلمس الروح والرغبة . بدت مارثا حوريةً فاتنةً . كنت أنصت بخشوع الصوفي للكلام الصادر من جسدها الآسر وهو يخاطبني .

غمرني إحساس غريب ، ربما هو إحساس الطريدة وهي تقع في شِباكِ الصياد . انفلتت مارثا من حضني ثم وقَفَتْ على مسافة قريبة بيني وبين السرير . انفتح شلال شعرها الأسود وغطى نصف جسدها العجيب . بدا صدرها المكتنز مستفزاً . طارت من عقلي كل الحكايات عن ست الحسن والجمال . لم يعد الحصان خائراً وتحرّك راكضاً بسرعة البرق . هجَمْتُ على شفتيها الجائعتين .

اشتعل الكبريت في عروقي . لما التصقنا ؛ تأوَّهتْ فصرخ المسيح فوق الصليب . وقعتُ عليها فوق السرير الناعم . غبتُ معها . تجولنا في دروبٍ مجهولة سحرية . جرّدتُها من ملابسها فبدت للمرة الثانية حوريةً بيضاء تسرني وحدي . دخل جسمي في جسمها وزحفنا معاً داخل كهوفٍ خلابة في جبال الحب والرغبة الصارخة كقطيع الذئاب .

ارتوتْ بذورُ الشهوة المدفونة في تربة جسدي .
صرخ المسيح ثانية قائلا : " الآن أُكْمِل " وبشّر لصَّ اليمين وقال له : " اليوم تكون معي في النعيم " . رنّ جرس الباب وما كنت أعلم أن بالباب جرس . انفلتت مارثا عارية وطازجة من تحتي
وهتفتْ : بابا وصَل . بسرعة عجيبة وجدتني ومارثا وقد ارتدينا ملابسنا . لم تكن خائفة بقدر خوفي الذي كاد يُسْكِتَ قلبي للأبد .
- ما تخافشي .. اطلع من الباب التاني واقعد في الجنينة .
كان لحجرتها باب آخر يفتح على حديقة صغيرة منسّقة . جلستُ على أقرب مقعد صادفتُه . دقائق وجاءت مارثا تتأبّط والدها القس الذي قال لي مرحبا :
- أهلا يا ابني ، إزَّيّك يا أستاذ خالد (ثم ضاحكا قال) : إحنا زارنا النبي .
ضحكنا ثلاثتنا . قَّضّيتُ معهما يوما جميلا وتناولنا الغداء معا ثم تجاذبنا أطراف الحديث . لما سألته عن سر الاعتراف الكنسي أخبرني أنه طقس خاص بالكنيسة الأرثوذكسية وهو سر من الأسرار السبعة للكنيسة ، في سر الاعتراف يقوم الشخص الخاطئ بالاعتراف بكل أخطائه أمامي ككاهن وأنا بدوري أصلِّي له كيما يغفر له الله خطاياه .
قلت في نفسي : " لمن ستعترف مارثا بالذي حدث اليوم ؟!"
وانا أودعهم خارجا من البيت ، همست مارثا في أذني :
- ما فعلته معك ليس خطية ، إنه حب ، ألا تتذكر سفر نشيد الإنشاد؟

****

الورقـــة 26

اتصلتُ اليوم بـ " هيلانة " من تليفون أخو العمدة وقد كان يحب زيارة والدي الشيخ له . بَكَتْ لما اتصلتُ بها كثيراً وأخبرتْني أنها يتيمة بغيابي الذي استطال . طمأنتُها بأنني سأصل القاهرة قريبا . تمنيتُ أن لو أطيرَ كالكلمات في أسلاك الهاتف لأستقر على صدرها .
قضّيتُ اليوم أغلبه مع الشيخ الوالد . حكى لي عن الأيام القاسية عليه بعد رحيلي من [مير] إلى القاهرة والتي ازدادت قساوة وكآبة بعد رحيل أمي المباغت . حكى لي عن عشرة المقدّس سمعان وفُرقَته التي تركت في قلبه جرحا لايندمل ولا يهدأ أجيجُه في صدره . أخبرته أنه يجب أن أعود ثانية للقاهرة لاستكمال دراستي في الأزهر حتى يتم تعييني في المشيخة نفسِها . فرح والدي ورحّب بعودتي على أن لا أطيل الغياب . أعطيته ورقة بها عنوان السكن . استأذنتُ الوالدَ الشيخَ يومها وذهبت للأستاذ " خالد " كيما يكمل لي قصته الليلة ومن ثَمَّ أودِّعه . قلتُ لنفسي وأنا في طريقي لبيت خالد : إلى أين تأخذك الأيام يا أيها الشقيُّ ؟! ما هذه الحياة الغريبة تلك التي تنطلق بنا في دروب لم نخترْها ؟ أقدامنا لا تثبت في الأرض حتى وإن خدعنا أنفسنا بأنها ثابتة . أرواحنا تبدو كالليل المختفية من سمائه كلُّ النجوم ، لا العلاقات بالاخرين تضيئوها ولا العزلة أيضا . أيُّ كآبات تلك التي تنبت من حولي ؟! وحدهم البسطاء والمتدينون يحيون راحة بالٍ كاذبة ومزيفة لا جذور لها ولا أصل . وددت لو أصرخ في ليل القرية الساكت ؛ لماذا جئتُ ولماذا سأرحل ؟
وصلتُ بيتَ خالد . استقبلني فَرِحا بوجودي . هو مثلي منطوٍ على

حكايته وتأملاته وآرائه الغريبة على بشر لا علاقة له بهم من قريب أو بعيد ، خالد يصطكُّ بهم فقط . أنا مثله ، أشعر أنني أصطك بالناس ولا تربطني بهم رابطة ، حتى أصدقاء مقهى ريش المثقفين والمتوحدين معي ، أشعر أنهم في وادٍ آخر !

قلت لنفسي : ستظل روحي تنزف دما طالما قلبي ينبض وعقلي يفكر . كيف أستطيع أن أوقف عقلي عن التفكير ، العقل تلك الآلة الملعونة التي أوردتني مورد التهلكة . متى يتوقف هذا القلب عن النبض ومتى يسكت إلى الأبد ؟ متى ؟ متى ؟

كانت قدماي تعرفان الطريق الآن لحجرة الجلوس ، جلست في مكان المرة الفائتة . غاب خالد وجاءني صوت أم كلثوم : " حبيبي يسعد أوقاته "

قلت لخالد لما جاء : أكمل قصتك للمرة الأخيرة فلربما أسافر فجأة ولا أراك ثانية .

أزعجَتْه كلماتي عن السَفَر والغياب وغام وجهه كأنه يريد البكاء .

طلبتُ منه أن يسترسل في حكايته

ويوفر مشاعره ناحيتي حتى نهاية الحكاية .

يحكي " خالد " ويقول :

- جلستُ مع " مارثا " في المدرسة وعرضتُ عليها الزواج (!) لم يكن طلبي صادما لها . قالت :

- مش هاينفع يا خالد ، أنت مسلم وأنا مسيحية بنت كاهن كمان . لسه بدري لما المجتمع بتاعنا يستوعب قصة زي قصتنا . لسه قدامنا سنين طويلة حتى يتغير وعي وفكر الناس هنا .

أخذتُ قرارا منفردا . توجهت توجهتُ وحدي إلى كنيسة مار جرجس

بالدير الغربي . طلبت مستأذنا مقابلة القس والد مارثا كاهن الكنيسة . أحدهم طلب مني أن أجلس في قاعة الزوّار . لما جاء القس ورحب بي ؛ دخلت دونما تردد أو مقدِّمات في الموضوع :

- اسمع يا أبونا ، أنا جئتُ لأعرض على جنابك الزواج من بنتك كارثا . وقبْل أن يُصدم الرجل ؛ أكملتُ ظانّاً أنه سيفرح ويوافق : وأنا مستعد لأن أعتنق الدين المسيحي والآن على يديك وأصير مسيحيا يحق له أن يتزوج من مارثا .

كلامي الاخير لم يغير من صدمة القس فنزع من فوق رأسه العمامة السوداء وكأنه ما عاد يطيقها فوق رأسه التي أحسست بها تغلي كالمرجل .

- إنت مجنون يا خالد ؟! (تساءل القس غاضبا) قلت له : لا ، أنا أحاول أن أكون عاقلا لمرة واحدة في حياتي فساعدني من فضلك .

أجابني القس : أساعدك إزاي ؟! إنت عايز الدنيا تولع والناس في بلدكم تحرقنا هنا ؟ وكمان النصارى اللي هنا عايزهم يوّلّعوا فينا بجاز وسخ ؟!

فجأة انتصب القس واقفا كالمحموم وقال بلهجة حاسمة مشيرا إلى الباب :

- اتفضل يا ابني على بلدكم وأرجوك مش عايز أشوفك تاني .

يكمل خالد :

- رجعت يا مولانا إلى البيت مجهد الروح منهك القلب . اسودت الدنيا في عينيّ . تمنيت أني لم أولد مسلمًا . لماذا لم تُولد مارثا مسلمة ؟! لماذا لم أُولد أنا مسيحيا ؟! الأديان تفرق القلوب والله لا يريد ذلك

لأولاده . الله يريد للقلوب أن تتوحد . المتدينون يرفضون دين الحب. دين الكاهن والفقيه يتحكم فينا إلى الأبد .

لا اعرف يا شيخ أحمد كم مر من الزمن وأنا حبيس بيتي ، بل حبيس غرفتي حتى شعرتُ بحاجة لرؤية مارثا . خرجتُ صباح يوم إلى المدرسة بعد طول غياب لأجد الكارثة والطامة الكبرى . في البداية كانت وجوه الزملاء المغلقة على مجهول مخيف ؛ تنبي عن شيء تخفيه عني . استدعاني ناظر المدرسة وطلب مني أن أكتب طلبا فحواه : إلغاء ندبي من مدرسة قرية الدير والعودة إلى مدرستي الأصلية والمنتدَب منها . يئستُ من سماعي للسبب الحقيقي والذي أنا أعرفه . سألتُ عن مارثا فكانت الاجابة متكررة وواحدة : " غايبة من فترة " . قدّمت للناظر طلبا مكتوبا بإلغاء ندبي ثم خرجتُ . بعد خروجي من باب المدرسة لحقتْ بي فتاة (كانت هي نفس الفتاة التي فتحت لي باب بيت القس والد مارثا يوم زيارتي لهم) ثم همستْ في أُذني وهي تتلفت في حذر : " مارثا .. أبوها وعمها خدوها على دير للراهبات في وجه بحري تقريبا ومش راجعه تاني " ثم انطلقتْ تعدو خائفة.

يتنهّد الأستاذ " خالد " ويقذف في وجهي آخر صورة لآلامه الممتدة فيقول :

- وهكذا - يا مولانا - تأكّدتُ أنه قد ضاعت مارثا وضاعت روحي للأبد وتوقف قلبي عن النبض الحقيقي .. صرتُ مجردَ جثةٍ تنتظر الدفن فقط . أحيا بلا روح . من يعشق مارثا ويعيش بدونها فهو مثلي يحيا بلا روح .

أنهت أم كلثوم أغنيتها بمقطع لا يتناسب وحالة خالد النفسية

فوضعتُ يدي على كتف خالد كالمعزِّي ثم وقفت وضممته لصدري محاولا التخفيف عن مُصابه في حبيبة عمره وعن جرحٍ ربما يلازمه حتى القبر .
استأذنتُ مودعا الأستاذ خالد وفي الصباح قبّلتُ إبراهيم والذي لم أره ثانية حتى الآن . حضنتُ الشيخ الوالد وقبُلتُ رأس زوجته ثم رحلت .
رحيل يتجدد . ترحل أمي إلى الغياب الخالد ثم يرحل الوالد من مكان لآخر ومن قبلهما أرحل أنا من مير للقاهرة وها أنا عائد لـ هيلانة .
رحيل يتبعه رحيل فمتى أرحل للنهاية ؟!

****

الورقـــــة 27

وصلتُ القاهرة بعد منتصف النهار تقريبا . هيلانة كانت تنتظرني على باب العمارة التي أسكنها . جرت ناحيتي وارتمت في حضني باكية ومعاتبة إياي على تأخري عنها فقلت في صمتي وأنا أشعر بقلبها ينبض بين ضلوعي معاتبُني على غيابي القصير : " هل أنَّ مارثا تعاني الوحدة والكآبة الآن ؟! " . تركتني هيلانة بعدما كانت قد اطمأنت على عودتي كيما أستريح من وعثاء السفر .
في الليلة الأولى لعودتي من مغاغة كنت مزروعا في وسط أصدقائي في مقهى ريش بوسط البلد

ساهما كنتُ وغائبا عن أصدقائي رغم وجودي بينهم . سألني فريد :
- مالك يا شيخ أحمد ؟! . انتبهت لسؤاله وأجبتُ كاذبا بأنه لاشيء وأنني بخير .
كانت حكاية خالد ومارثا تؤرقني وما زالت تشغل حيزا ليس بالهين في رأسي . أخبرني فريد :
- ماريان سوف تصل غدا من [مير] يا مولانا .
قلت مندهشا : " ماريان " راهبة ، فكيف ستخرج من الدير ؟!
قال فريد :
- دي حكاية طويلة يا مولانا وربما لما تكون معانا بكره تعرف القصة من أولها .
في اليوم التالي ، جاءني " فريد " واصطحبني لبيت قريبه والذي يسكن فيه . كان مساءاً شاتيا ، خفّف من صقيعه وجود " ماريان " بنت المقدس سمعان والتي تغيرت كثيرا ، صارت نحيفة وشاحبة الوجه غير أن عينيها مازالتا تشعّان ذلك الألق والوهج الذي عهدته فيهما في مير .
تحكي ماريان :
- تركتُ الدير ، نعم تركته نهائيا ولا رجعة في ذلك !
لما أن ألحَّيْتُ في معرفة علة ذلك ؛ قالت تشرح لي : " وقع في يدي كتاب كان مع إحدى الزائرات للدير ، كان الكتاب لراهب ألماني معروف وقديم اسمه [مارتن لوثر] يتحدُث فيه عن بدعة الرهبنة وكيف أنها هروب من العالم الذي أمرنا المسيح أن لا نهرب منه بل وجهنا وأمرنا بأن نكرز باسمه
ونتلمذ العالم ونشتبك مع الخطاة بحب كيما نأت بهم له "

فهمتُ من " ماريان " أنها كما هي عذراء وأنها ستظل هكذا لكن مختلطة بالناس وأوجاعهم وخدمتهم ، "فليست التقوى- تقول ماريان - أن نترك العالم وننعزل عنه ، فكثير من الراهبات والرهبان يظنون أنهم قد تركوا العالم خلفهم ، والحقيقة أنهم يحملون العالم في قلوبهم وهم في قلّاياتهم" .

تكمل ماريان :

- عارف يا أحمد : أنا كنت بأفكر فيك كتير وكانت صورتك ملازماني أنت والست أم أحمد الله يرحمها والشيخ عبد العليم . كنت هربانه من العالم والعالم ما هربش من جوايا !

عرفتُ منها أنها جاءت القاهرة في زيارة لأهلها ومعها سيدة مسلمة من مير تساعدها في البحث عن مستشفى من مستشفيات الأقباط الخاص لتعالجها من مرض عضال .

قلت لها ضاحكا :

- أنها مريضة على غير دينك ؟!

- وهل هناك أعظم من الإنسانية دينا ؟! المسيح جاء للجميع خاصة المُعْوَزين منهم (ثم أكملتْ) :

" الإنسانية دينٌ لنفسها " واصلت ماريان حديثها الموجه لي : الله أمرنا أن نكسر الخبز للجائع

مهما كانت ديانته . أن نفتح بيوتنا للغريب والمطرود حتى ولو كان وثنياً . المسيح قال :

" أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، صلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم "

الحقيقة أن كلماتها لمستْ قلبي فقلتُ : المسيح جاء بتعاليم لقومه

خاصة ؟ فقالت تنفي كلامي :
- لا ، المسيح جاء للعالم لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد ، هل فهمتَ يا أحمد
أحبّ الله العالم ؟ لم يقل أحب الله النصارى أو اليهود .
فكّرتُ أن أعرض عليها قصة مارثا لعلها تعرف أين تكون ربما مختفية . فيما بعد التقيتُ بماريان في حديقة الأزبكية في وجود أخيها فريد . حدّثتها عن خالد وحبيبته مارثا . تأثرت ماريان كثيرا حيث بدا ذلك واضحا وجليا على وجهها . وعدتني بأنها ستبذل ما وسعها من جهد لمعرفة مكان مارثا .
تركتُ فريد وأخته في حديقة الأزبكية وتوجهت لوسط البلد حيث الأصدقاء في مقهى ريش .

****

الورقـــــة 28

رغبة جامحة اجتاحتني في زيارة الشيخ "عبد الرحمن البحيري" في مسقط رأسه . في اليوم التالي من تملّك الرغبة مني كنتُ في شارع الملكة نازلي ومن ثمَّ إلى محطة مصر . على مقعد في القطار المتجه إلى محافظات وجه بحري جلستُ . كنت أعرف أني سأنزل مركز الرحمانية التابع لمحافظة البحيرة ومن هناك سأستقلُّ سيارة لقرية (سيموخراط) وهناك سأسأل عن الشيخ "البحيري" الأزهري . وصلتُ – فيما أذكر – قبيل المغرب أمام بيته ، قالت لي فتاة صغيرة كانت تجلس على مصطبة ممتدة بطول جدار البيت في الشارع : " عمي عبد الرحمن في المسجد ".

اقتادني رجل رث الثياب حافيا للجامع الكبير في القرية وعندما وصلتُ كان الشيخ البحيري قد انتهى للتو من الصلاة ثم ابتدأ في إلقاء درس المغرب على روّاد المسجد الحاضرين . أذكر أن الدرس كان عن وجوب طاعة أولي الأمر والنهي عن معصية الحاكم . لما فوجئ البحيري بوجودي وسط الجالسين ارتبك وأنهى الدرس . عانقني ورحّب بي أيما ترحيب ثم انطلق بي إلى بيته . وأنا أتناول الشاي معه على مصطبة خارج بيته بعد أن كنا قد تناولنا العشاء بالداخل ، قلت له متسائلا :

- حضرتك مقتنع بهذا الكلام بتاع طاعة الحاكم وإن كان ظالما ؟!

قال بعد أن ارتشف من الشاي : اسمع يا شيخ أحمد : حاجات كتير قوي أنا مش مقتنع بيها ، لكن ده أكل عيش والسلام !(ثم وضع كوب الشاي بجواره) وأكمل : سبق وقلت لك : الدين مش بالعقل ولا بالرأي ، وأنا لو عملت زيَّك وشغّلت عقلي في كل النصوص فتقريبا

هاروح في داهية .
(البحيري قال الجملة الاخيرة وهو يملأ المكان ضحكا) . قلت له :
دورك يا شيخ عبد الرحمن هو إنك تقوم بتوعية الناس وتوضح لهم الحقيقة ، اللي إنت بتقوله للناس ده نوع من أنواع الوعي الزائف ، أنت صاحب رسالة ودورك هو في التوعية و التنوير .
قال لي : شوف يا سيدي : أنا بأحاول أبعد عن المسائل اللي فيها شبهات ، بأحاول أنصح الناس بالصدق والأمانة والأخلاق الحميدة بشكل عام .
قلت له ونحن نهم بدخول البيت ومن ثمّ لحجرة النوم الخاصة بالضيوف : دورك أكبر من كده يا مولانا ، حاول أن توجّه الناس لتشغيل عقولهم في كل اللي ورثوه كله .
ضرب البحيري ساعتها على كتفي وقال :
- اللي هايشغَّل عقله في مصر ، هايخسر عقله وجسمه كمان !
نام البحيري وأما أنا فظللتُ الليل كله أبحلق في سقف الحجرة وأفكر في متى يستيقظ العقل المصري؟ متى يثور على ثقافته الماضوية والتي تحاصرنا ممسكة بتلابيبنا تجرنا للوراء ؟
متى يظهر مارتن لوثر المصري ؟

****

الورقـــة 29

غابت " ماريان " أياما ثم ظهرت . لما فتحتُ الباب إثر خبطات متسارعة وجدتها منتصبة أمامي كرمح .
- اتفضلي ادخلي .
- لا .. مش هاينفع ، لكن أنا عايزاك ضروري ، أنا عرفت مكان " مارثا " وقعدت معاها .
ألجمتني الفرحة ووجدتني أخرج لها بلباس النوم خارج عتبة الشقة .
- طيب ، أعمل إيه أنا دلوقت يا ماريان ؟
- نتقابل برّه (قالت)
- إيه رأيك في حديقة الأزبكية ؟
في الأزبكية ؛ حَكَتْ لي كيف أنها تعرف أن [دير أبو سيفين للبنات] بمصر القديمة هو من أهم الأماكن التي توضع فيه مثل حالة مارثا أو حتى أي بنت تريد أن تغير دينها .
قالت مارثا :
- ذهبتُ للدير وأنا أعرف رئيسته منذ فترة كبيرة عندما كانت في زيارة لدير المحرّق ، دخلتُ الدير وجلستُ مع راهباته ولما اطمأنت الراهبات لي رحن يحكين لي عن أكثر من بنت محجوزة هنا أو قل هن معتقلات على خلفية علاقات حب مع مسلمين حتى توصلتُ لـ مارثا . رأيتُها لأول مرة ، كانت شاحبة الوجه ، الحزن يكسوها ، لما سلّمتُ عليها (تحكي ماريان) ردّت السلام بصوت مفعم بالألم والانكسار اللانهائي . دار حوار بيني وبينها ، تعرف يا أحمد ، مارثا علّمتني الكثير ، علّمتني أن الهرولة خلف الأمل ومطاردة الحب في كل مكان

والاستمرار عليه هو الذي يحيلنا إلى ملائكة نورانيين . سألتُ مارثا : " هل تخلّيتِ عن مسيحِك ؟ قالت بكل ثقة : لا .. المسيح يسكنني ويحتلني متجسدا هذه المرّة في " خالد " ، نعم .. المسيح وخالد كلاهما توحدا حتى صارا شخصاً واحداً يتمدد تحت عينيّ .. تحت شغاف قلبي . أنا يا ماريان لم أتأكد من محبة المسيح إلا بعد أن أحببتُ خالداً (ثم وقفتْ ومشت خطوتين ناحية نافذة تفتح على فضاء الدير الرحب وقالت) : إذا كان الكاهن يعمدنا مرة واحدة كيما نثبت في المسيح فإن الحب يعمدنا كل لحظة كيما يثبت المسيح فينا وهل المسيح غير المحبة ؟ الله محبة وفقط .

قلتُ لـ ماريان :

- المهم وما العمل الآن ؟ لا بد وأن ننقذ مارثا ونخرجها من معتقلها إلى حبها الذي ينتظرها هناك في صمت الصحراء في قرية الجبل الغربي .

قالت ماريان لي :

- أنا سأتولى تهريبها من الدير وأنت سيكون لك دور غير أننا سنحتاج لسيارة .

فكّرتُ في " إيفا " ، والدها عنده سيارة وهي سائقة ماهرة وربما لن تتأخر في مساعدتنا في خطتنا

في اليوم التالي كانت إيفا تقود سيارة والدها متجهة إلى منطقة دير الراهبات بمصر القديمة وبجوارها تجلس ماريان واما أنا فجلستُ في المقعد الخلفي ، كانت ماريان قد خبّأتْ في حقيبتها زيّ راهبة كيما ترتديه مارثا لتسهيل حركتها داخل الدير الفسيح إلى الباب الغربي والذي يسمى [باب الجنينة] وأما أنا فسأكون في انتظارها مع إيفا في

سيارتها خارج الدير ومن ثم نقفُل عائدين لنلتقي بهيلانة والتي تنتظرنا في منطقة وسط البلد كي تصطحب مارثا معها لمنزلهم وتقدمها لأمها ولوالدها القمص على أنها صديقتها . عندما لاحت مارثا خارجة من الباب الغربي أومأتُ لـ إيفا التي نزلت من السيارة وأشارت لـ مارثا فجاءت تهرول . تركنا ماريان داخل الدير على أن تتولى هي طريقة عودتها حسب الخطة . في طريق عودتنا ، جلستُ بجوار "إيفا " وجلستْ " مارثا " في المقعد الخلفي كي تستطيع تغيير زِيّ الراهبات الذي ترتديه .

في وسط البلد ؛ نزلتُ من السيارة فور وقوفها . فتحت لمارثا الباب ، لما أن حدّقتُ في وجهها بدا لي وجها شاحبا وأما جسمها فقد كان نحيلا إلى حدٍّ ما ، قدمتها لـ " هيلانة " التي مدّت يدها مرحبة بها .

قلتُ لنفسي : لوكان خالد معنا الآن فلربما عادت الحياة تدب في وجه مارثا الذي طالما تخيلته وأنا أنصت لـ خالد في حكاياته عنها . هيلانة همستْ في أذني قائلة :

- عايزه أشوفك الليلة ضروري ، ممكن نروح مسرح أو سينما ونتعشّى مع بعض .

- حاضر ، أنا هاكون في مقهى ريش بالليل مع الأصدقاء .

- أوكي .. هاروح لك ريش ونتقابل .

بجوار إيفا رِكِبَتْ هيلانه مكاني وأما " مارثا " فقد عادت لمقعدها الخلفي . انطلقت السيارة مخترقة ميدان الإسماعيلية وغابت في زحمة السيارات وأما أنا فانطلقتُ إلى شوارع وسط البلد هائماً على وجهي.

****

الورقـــــة 30

في الليل دخلتُ دورة مياة عامة وتقيأتُ دماً . غسلتُ فمي ووجهي كله ثم خرجت متماسكاً أقاوم خوفي من ذلك السائل الأحمر الذي باغتني الليلة على حين غِرَّة . اشتريتُ علبة سجائر (سمسون) من باقي مبلغ كنت قد استلفته من ماريان (نسيتُ أن أقول بأنني منذ يومين قد عزمتُ على التدخين بعدما تأكّدتُ بأنه لا فائدة من اتباع كلام الطبيب الذي قد يطيل العمر والذي لا أرى من إطالته فائدة) .
عندما جاءت " هيلانة " إلى مقهى ريش ووجدتني أُدخِّن ؛ فزِعَتْ أول الأمر ثم توقفتْ عن نُصحي وتوبيخي لما رأت مني إصراراً . كانت " هيلانه " تحبني وأما أنا فقد كنت لا أهتم بصحتي . سحبتني من ذراعي إلى خارج المقهى بعدما همستْ في أذني :
- عايزاك علشان نتكلم لوحدينا . قادتنا الأقدام إلى منتصف شارع سليمان باشا ، انعطفنا يساراً لنواجه محل آيس كريم فدخلناه ثم حول طاولة مستديرة جلستُ قبالتها ودار الكلام :
- بابا وماما عرفوا علاقتنا ببعض .
- إزاي ؟ مين اللي ...(قاطعتني) وقالت :
- ماما اكتشفت إني بأرجّع كتير ، اصطحبتني لطبيب في القصر العيني زوج صديقة لها والذي أخبرها بأني حامل و .....
نسبة الأدرينالين ارتفعت في شراييني وزادت نبضات القلب ، ماذا أفعل ؟! هل أنا الذي تساءلت
أم هيلانة ؟! يجب أن يكون السؤال هكذا : ماذا نفعل ؟ اقترحتُ عليها الزواج فقالت : الديانة تمنعنا!

بابا رجل ديني ، بابا قُمُّص ومن أهم رجال الكنيسة في مصر . قلت لها : سوف أغير ديانتي ، أنا سأذهب لولدك وأعترف له بأنني أريد أن أعتنق النصرانية و ...

قاطعتني وقالت :

- مش ممكن يا أحمد .

- ليه مش ممكن يا حبيبتي ؟!

- الدولة هاتطبَّق عليك حد الرِّدة ويقتلوك وإن لم تقتلك السلطة الناس هم اللي هايقتلوك وساعتها أكون خسرت كل حاجه .

قلتُ لها : إنت عارفه إن أنا ماليش في الأديان خالص ، والإسلام والمسيحية مش فارقين معايا ، كلّه زي بعضه !

سكتت هيلانة برهة ثم قالت : خللينا نشوف ، سيبني أفكّر ونتقابل بعدين .

قلت أخفف عنها ومذكرا إياها بوعدها السابق :

- سينما أو مسرح .

- خلليها لبكره ، ندخل فلم انتصار الشباب ، أنا عايزه أشوف أسمهان وفريد .

عدنا أدراجنا إلى نهاية شارع سليمان من ميدان الإسماعيلية ، استقلّت هي أوتومبيلا وأما أنا فقد عدتُ إلى مقهى ريش . كان أحد الأصدقاء قد وجد لي عملاً في أحد محلات بيع الملابس بشارع قصر النيل وكان يجب عليَّ أن أذهب معه لمقابلة صاحب المحل . وأنا في طريقي إلى العمل الجديد

فكّرتُ بـ "ماريان" ، ترى كيف خرجتْ ؟ هل اكتشفوا أمرها وقصة تهريبها لـ مارثا ؟ أشعلتُ سيجارة ودخلتُ في نوبة سعال جعلتني أشعر

بصدري يكاد ينخلع من مكانه .
في اليوم التالي لاستلامي العمل واطمئناني على " ماريان " التي عادت من دير الراهبات دون اكتشاف أحد لأمرها ؛ جاءتني هيلانة وكنت قد انتظرتها أمام سينما قصر النيل حيث تعرض فيلم انتصار الشباب .
دخلنا صالة العرض ولم تكن هناك فرصة للحوار حيث كان الفيلم قد ابتدأ .

عندما غنّتْ أسمهان بصحبة فريد " الشمس غابت أنوارها " ؛ التفتَتْ "هيلانة " ناحيتي وكانت المطربة تغني كوبليه : " وازاي نعيش من غير أماني . ونلقى في الدنيا الهنا
فين النعيم بين الأغاني . فين السعادة بالضنا "
ليرد عليها فريد : " الصبر يحيي الأمل . وكل شيء بالعمل "
لم يكن أمامي إلا الصبر ، الصبر وفقط ؟! لا أعلم ! ربما ينطوي عقل هيلانة الآن على حل عبقري لمشكلتنا الكبيرة .. ربما . تصدّر فريد وأسمهان المشهد الأخير من الفيلم وظهرت كلمة النهاية أُضيئت الصالة بالأنوار وبدأ الجميع في الخروج . كنا نزرع شارع سليمان باشا بخطواتنا الكسلى والتي قادتنا حتى ميدان الإسماعيلية ، كان السؤال يشاركنا الخطو الوئيد والمنكسر ، توقفت هيلانة وقالت : أنا خايفه بابا ياخدني معاه انكلترا اليومين الجايين ، بابا عايز يسافر لعمّي اللي عايش هناك .
- وإيه المشكلة ؟
- المشكلة إن لو سافرتْ معاه فتقريبا مش هارجع مصر تاني يا أحمد ، ربنا يستر بقى ، مش عارفه أعمل إيه ؟!

قالت هيلانة جملتها الأخيرة وقد صاحبتها دمعتان فرتا من عينيها لأمد أنا يدي في استقبالهما قبل أن تسقطا على الأرض ثم قلتُ بلهجة الواثق :

- لا تخافي يا ست كل البنات .

ساعتها كنت أضغط على خوفي الناشع تحت قلبي كيما لا تراه هي .

كنت أمسك مهابتي كرجل صعيدي يجب أن يتحمل مسئوليته تجاه حبيبته التي أعطته أغلى ما تملك . ألقت هيلانة برأسها فوق كتفي وبكتْ . قلت أطمئنها وكأنني متأكد : لازم يكون فيه حل .. لا تخافي يا حبيبتي ، غدا يشرق حل أكيد .

استقلّت هي أوتومبيلا وعدت أنا للشوارع الحزينة كقلبي .

عندما هدّني التعب لجأت للنوم ، تسرّبَتْ كلماتُ رامي بصوت أم كلثوم من جرامافون الجيران:" نام الوجود من حواليا . وأنا سهرت في دنيايا "

****

الورقـــة 31

كنت أتساءل في نفسي : " هل أنَّ "مارثا" هي التي أحدثت انقلابًا في حياة الأستاذ " خالد " أم أن خالداً هوالذي فعل بها هكذا فِعْل ؟ تُرى .. هل الحب هو الذي غيرهما معاً ؟

الحب ذلك المستبد الذي يقود دونما مشورة منّا ، إن الحب يحكم فقط وليس أحد قادر على لجمه أو حتى أن ينبس بكلمة اعتراض أو حتى استفسار عمّا يحدثه في حياتنا .

فكّرتُ في كيفية لقائي بـ " مارثا " ، كيف أستطيع أن أجالسها وحدها كيما أحاورها عن خالد وعن والدها القس . ماريان ؟ نعم هي التي حررتها من الدير وهي القادرة على أن ترتب لي معها لقاءً .

عندما جاءني فريد ليوقظني من نومي ، نومي الذي صار كنوم الثعلب ، إن أغمضتُ عينيّ ؛ تهاجمني الكوابيس وإن فتحتهما ؛ تهاجمني هيلانة ببطنها التي تهدد وجودها .

قلتُ : ربما أطرح حكايتي وهيلانه على مارثا بعد أن أكون قد سمعت حكايتها وخالد .

عرضتُ على فريد رغبتي في اللقاء بـ مارثا عن طريق ماريان فوافق وقال :

- المهم لازم تروح الشغل الجديد بتاعك علشان ما تحسش بالملل ويكون معاك فلوس تقدر تعيش بيها . ساعة وكنت في شارع قصر النيل حيث مقر عملي الجديد . استلمت العمل ثم خرجت إلى شارع عماد الدين وفي مقهى [فينيكس] جلستُ على كرسي من خشي

الأبنوس أمامي طاولة في انتظار " مارثا " والتي من المفترض أن تأتيَ بصحبة ماريان وفريد . شربت فنجان قهوة مُرّةٍ ثم جاءت مارثا وصاحبيها . جلسنا متحلقين حول طاولة كبيرة . لحظات وانصرفَتْ ماريان مصطحبة معها أخيها كاتفاق ضمني بينهما .

ها أنا ذا في مواجهة (مارثا بنت القسيس) حبيبة الأستاذ خالد ، لعينيها علاقة وطيدة بالبراءة ولصوتها علاقة بالحب والحياة . قلت لها :

- يجب على مثلي أن يستغل الوقت المتاح لي وأسألك بداية عن ....(قاطعتني) وقالت :

- أستاذ أحمد : أنا عرفت إنك شُفت خالد وقعدت معاه أكتر من مرّة ، صحيح ؟

- صحيح . خالد صار صديقي الغالي (قلتُ)

- احك لي من فضلك عن حالته آخر مرة شفته فيها ، كانت حالته إيه ؟ كان متغير ؟ كان تعبان ؟

أرجوك ...

قاطعتها مبتسما ومخففاً من لهفة وتتابع التساؤلات :

- على مهلك شويه ، واحده واحده يا مارثا .

أخبرتها وقتها – فيما أذكر – عن حالتي بعدما سمعت من الأستاذ خالد قصة حبه والتي حكاها لي في بيته وسألتها : ما الذي حدث لكما ؟

قال : أنا لم أُحْدِثْ انقلاباً في حياة خالد ولا حتى خالد فعل هكذا بي ، فقط الحب هو الذي أشعل النار في خلايانا ثم صعد إلى السماء كما المسيح صعد بعد أن كان قد ألقى على الأرض بذار المحبة .

جلستُ بين يدي مارثا كما التلميذ بين يدي معلمه ومؤدِّبه . سألتها : الدين ؟ قالت :

- أنا فاهمه ، أنا مسيحية وخالد مسلم ، لكن لو بصِّينا للاختلافات اللي بين البشر ، فقير وغني ، أبيض وأسود مسلم ومسيحي .. الخ ، بالتالي مش هانلاقي وقت علشان نحب بعض أو نفهم بعض أوحتى نِقْبَل بعض .

شردت ببصرها بعيدا ثم عادت تقول :

- شوف يا شيخ أحمد ، حضرتك – مثلا – مسلم لسبب وحيد هو إنك اتولدت في أسرة مسلمة ، أنا كمان مسيحية علشان مولودة في أسرة مسيحية ، مالناش اختيار ، حاجات مفروضة علينا .. مش مشكلة،المشكلة إنك ترفض المختلف عنك وما تقبلوش في حياتك ، الأديان تفرِّقنا والحب يجمعنا ، ليس هناك حب مسيحي وحب مسلم ، ليس هناك حب فقير وحب غني ، لا تترك الموروثات تقضي على حياتنا (قالت مارثا الجملة الأخيرة وهي تضغط على حروفها لتؤكدها بنبرة مختلفة)

عندما ابتدأ جرامافون المقهى يبث أغنية عبد الوهاب " ياللي نويت تشغلني " ؛ ضحكت مارثا وقالت : " أنا وخالد بنكمِّل بعض ، هو يتبع حزب أم كلثوم وأنا تابعة لعبد الوهاب " .

كان أحد المخمورين يردد مع الأغنية : " اللي تشوفه عيني لازم تشوفه عينك وتحن دايماً لي ساعة ما أحن إليك " . لمّا سألتها : هل تفكرين بالسفر لـ خالد ؟ ؛ ردد المخمور بصوت عالٍ:

- " راح أشغل فكري وبالي عليك وأحبك وأفضل أعيش في هواك ، لحد ما ييجي يوم وألاقيك ، آمنت بحبي وجيت برضاك "

انتهى عبد الوهاب من أغنيته ولم تنته تساؤلاتي مع مارثا حول الدين والحب وخالد . تحرّك السعال في صدري فاستأذنتها في الذهاب إلى دورة المياة . لمحتُ وأنا في طريقي الفنان نجيب الريحاني جالساً مع الأستاذ بديع خيري وإحدى السيدات ، لعلّها كانت السيدة ليلي مراد . فكّرتُ أن أصافح الأستاذ الريحاني غير أن السعال ألحّ عليّ فأسرعتُ لدورة المياه ، انكفأتُ على أحد الأحواض أقيئ و فتحت الصنبور ليزيل الماءُ بقعَ الدم المتساقطة من فمي .

نظّفتُ وجهي ونشّفته بمنديل كانت قد أهدتْه لي هيلانة . خرجتُ لـ مارثا متماسكاً إلى حدٍما ، وأنا عائد إلى طاولتي ؛ لمحتُ الأستاذ بديع خيري جالساً وحده ، قلتُ في نفسي : لعلّ الأستاذ الريحاني والسيدة ليلى مراد قد غادرا وتركاه وحيداً . كان الجرامافون يبثُّ أغنيةً جديدةً للآنسة أم كلثوم اسمها – فيما أتذكر – (يا طول عذابي) . قلت لـ مارثا مازحاً : انتهى من تحبيه من أغنيته وجاء دور من يحبها خالد (كأنها غارت من جملة " يحبها خالد ") .

قالت ضاحكة : فَشَر ، خالد بيحب واحدة بس ، مارثا وفقط .

"يا طول عذابي واشتياقي ما بين بعادك والتلاقي"

تنهّدت حبيبة خالد مع أول كوبليه من الأغنية ثم قالت : الله الله يا أم كلثوم ، من حق خالد إنه يعشقك .

" يا ما غالبت الشوق وشكيت من طول غيابك عني "

تواصل مارثا حديثها :

- هل تعلم يا شيخ احمد أن خالد كان يؤنسُ وحدتي الموحشة بالدير ، كانت الراهبة (.....) المسئولة عن تنميتنا ونهضتنا الروحية توجهنا

للطقوس وأما أنا فقد كنت أرتقي بحبي لخالد إلى المسيح ، كنت أشعر أن خالد هو صليبي الذي أحملة راغبة وراضية فوق كتفي .

كانت الأغنية تتابع :

" أقول لقلبي الشوق ده ليه ما دام ح يعطف ويجيني ..

أصبر مع الأيام تتحقق الأحلام "

ومارثا تواصل : نعم ، كان الصبر هو زادي وقوتي على التحمل ، كنت واثقة إن ربنا هايبعت لي مخرج من الضيقه اللي أنا فيها ، مين كان يصدّق يا شيخ أحمد إن ربنا يبعت لي ماريان من [مير]

وشيخ أزهري من شارع الألفي وكمان هيلانة بنت القمص . هذه خطة وضعها الله وأنتم قمتم بالتنفيذ .

قلت أعرض عليها قصتي مع هيلانة غير أنهما – فريد وأخته – اقتحما المكانَ علينا .

- يا رب تكونوا مبسوطين من القعده هنا (قالت هيلانة)

- في الحقيقة أنا استمتعت كتير ومبسوط خالص من الحوار مع مارثا (قلت)

- خللينا نفكّر إزّاي نجمع خالد مع مارثا وإزّاي نواجه أي مشكلة جديدة ممكن تهدد علاقتهم ببعض (قال فريد) .

- أنا عندي فكرة وشايفه إنها عبقرية خالص ، أولاً : لازم نفهم إن مارثا لو سافرت لـ خالد في قريته فالخطر كبير عليها لأن قرية مارثا قريبة من قرية خالد ، وكمان الناس في البلد هايسألوا

مين دي ؟ ومش بعيد يكون حد عارفها ويخبر أهلها ، فالحل اللي عندي هو إن خالد لازم يعرف إن مارثا هنا وبالتالي فعليه أن يأتي هو

للقاهرة (قالت ماريان)

- أنا معايا رقم تليفونه (قلت)

- وساكت على نفسك وسايبني حيرانه (قالت مارثا وتكاد تقفز من الفرحة)

- حرام عليك يا أحمد ، معاك التليفون وسايبنا نضرب أخماس في أسداس ؟!(قالت ماريان)

ثم أردفت تأمرني : قوم حالاً واتصل بـ خالد وأخبره أن مارثا هنا في انتظارك .

****

الورقـــــة 32

كنت أشعر أن داخلي يتغير ، حكاية " مارثا " و " خالد " تغيرني ببطء من الداخل ، لكن أيّ تغيُّر هو ؟ لا أستطيع أن أحدد ذلك التغيُّر، غير أني أحسُّ داخلي بلذّةٍ يكتنفها ألمُ !

إذا كان الحب هو وحده القادر على نسف كل الحدود مابين دين وآخر حتى صار دين خالد ومارثا هو الحب فقط ؛ فلماذا لا نعترف به وحده ديناً لكل البشرية ؟

الأديان – تقريبا – من مصدر واحد غير أن الكراهية والحقد حاضران بينهم بقوة حضور الشمس .

لماذا هذا الصراع العبثي بين أصحاب الأديان والملل ؟ هل الله يرسل أنبياء بكتب تنشر الكراهية بين البشر ؟ لماذا كلما جاء رسول أو نبي يعلن لأتباعه أنه خاتم الأنبياء وأن الأنبياء بعدي أنبياء كَذَبَةُ؟

كنت أتساءل ونفسي : إذا كان الحب قد استطاع أن يوحِّدَ بين قلبين كليهما على دين آخَر ، فلماذا

لا نعتنقه جميعاً ؟ لماذا الحب فقط يجمعنا على اختلاف مللنا وعقولنا وأطيافنا والدين يفرّقنا ؟

الدين فرّق حتى أتباعه إلى طوائف ومذاهب ... هذا مسلم سني وهذا شيعي وذاك صوفي .

هذا مسيحي كاثوليكي وهذا مسيحي أرثوذوكسي وذاك بروتستانتي .

هذا يهودي (حريديم) = التقي المنعزل عن الناس وهذا يهودي (سامري) [نسبة لمدينة السامرة وهم أقرب للمسلمين في فكرهم

وذاك (قرّائي) أو(ربّاني) أو(صدوقي)أو(فرّيسي) .. كل تلك الفرق المتشظية ذات القلوب المختلفة والعقول المتحجرة لهي امتداد طبيعي للأديان وثمرة أصيلة لها . وجدتني أردد مع بحرالحقائق شيخ الصوفية الإمام (محيي الدين بن عربي) :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه دانِ
واليوم صار قلبي قابلًا كل صورة
فمرعىً لغزلان ودير لرهبانِ
وكعبة طائف وبيت لأوثانِ
وألواح توراة ومصحف قرآنِ
أدين بدين الحب أنَّى توجّهت
ركائبه ، فالحب ديني وإيماني .

نعم يا سيدي محيي الدين ، البشرية تنتظر هذا اليوم الذي تصير فيه قلوبنا تقبل كل صورة للإنسان أيّاً كان دينه .

في الصباح توجّهتُ لسنترال عند تقاطع شارع منصور مع شارع القاصد بوسط البلد ، قدّمتُ ورقة بها رقم تليفون الأستاذ خالد لعامل السنترال فأعطاني ورقة صغيرة بها رقم كابينة تليفون ، انتظرت قليلا وإثر سماعي لجرس طلب مني الموظف أن أرفع سماعة التليفون ففعلت :

- آلو
- ألو .. مين معايا ؟
- أنا بأطلب الأستاذ خالد ، ممكن اكلّمه من فضلك ؟

كان الصوت الذي ردّ عليّ غريباً وبه حِدّةٌ وخشونةٌ ، هكذا هي دائماً

أصوات رجال البوليس .

- معاك الشاويش جابر ، لحظة واحده خلليك معايا على الخط ، الأستاذ خالد مشغول مع البيه المأمور .

لحظات وجاءني صوت خالد :

- آلو . مين معايا ؟

- أنا أحمد يا أستاذ خالد ، الشيخ أحمد بن الشيخ عبد العليم معاك .

- أهلا يا مولانا ، واحشني كتير .

- إيه حكاية الشاويش والمأمور ؟

- اتّصل مرة تاني بعد نص ساعة وأنا هاحكي لك .

خرجتُ من السنترال وجلستُ على مقهى قريب منه . أشعلتُ سيجارة وطلبتُ فنجان شاي . نصف ساعة وعدتُ للسنترال ثانيةً .

حكى لي الأستاذ خالد قصة البيه المأمور وقال :

- المهندس "يعقوب" كان والده صديقا لوالدي – رحم الله الجميع – ولطالما كان والدي يزوره في بيته الكائن في حارة اليهود بالموسكي ، وكان "صادق أفندي الصائغ" يزورنا أيضاً هنا . استمرّت العلاقة (يقول خالد) بيني وبين ابنه ، المهندس يعقوب الذي أصبح من كبار تجّار الذهب بعد وفاة والده "صادق أفندي الصائغ" .

عرفت من "خالد" أن "يعقوب" كوالده ينتمي لطائفة يهودية اسمها [القرّائين] . يعقوب هذا حضر القرية لزيارة خالد دونما أن يُخبره كيما يكون في استقباله في محطة السكة الحديد بمغاغة .

عندما وصل يعقوب القرية ، استوقفه أحد الشباب المنتمي لجماعة

الإخوان المسلمين ولما عرف أن اسمه يعقوب ؛ شكَّ أنه ربما يكون يهودياً ثم طلب منه أن يذهب معه للمسجد ، هنا قال له "يعقوب" بعفوية : " أنا يهودي " . ساعتها صرخ الشاب ونادى على الناس يحرِّضهم على قتل يعقوب اليهودي والذي أطلق ساقيه للريح مولياً وجهه شطر بيتي تلاحقه اللعنات وتسَّاقط الحجارة عليه من فوق أسطح البيوت ومن نوافذها المعتمة حتى أدموا رأسه ووجهه وإحدى قدميه . لمّا أن علم عمدة القرية عن طريق أحد الخفراء ؛ اتصل على الفور بالمأمور ثم جاء العمدة إلى بيتي في انتظار البيه المأمور .(
استدرك خالد وقال) :
- على فكرة يا مولانا ، عندي خبر مش كويس علشانك بس لازم تعرفه .
كان البوسطجي "صالح" قد انضم لاحقا لجماعة الإخوان وأشاع في القرية أن:" الشيخ أحمد بن الشيخ عبد العليم قد تم رفته من الأزهر الشريف لأنه أصبح مرتّداً عن دين الله وصار من أتباع الكافر " طه حسين " و " أحمد لطفي السيد " " ثم توجّه إلى بيت الشيخ الوالد يحمل معه خطاباً كان الأزهر قد أرسله منذ وقت يفيد بطردي من الأزهر وتكفيري . دار "صالح" بالجواب على بيوت
القرية استرضاءاً للجماعة التي انخرط فيها مما سبب للشيخ الوالد حرجاً كبيراً جعله يعلن للناس في المسجد براءته مني : " أنا بريء من ابني أحمد ليوم الدين " ثم بكى الشيخ منتحباً(يكمل خالد)
- واضطررتُ لاصطحاب والدك لبيتي وهناك تأكدتُ أنه لجأ للبراءة منك حتى لا يلحقه الأذى وأسرته من أهالي القرية المتعصبين والذين لا يقبلون بينهم رجلا صار ابنه كافراً . ثم حرص الشيخ أن يصطحب

ابنه معه للمسجد درءاً لشبهة الكفر عن بيته وأن إبراهيم يختلف عن أخيه أحمد .

****

الورقـــــة 33

ما فعله صالح البوسطجي لا علاقة له بالصلاح من قريب أو بعيد .
كأن خالد قد رضخ رأسي بحجر لما أن أخبرني بالذي حدث للشيخ الوالد والذي تخيلته وقد عقد رأسه بشاله الأبيض ، كان إذا حزبه أمر وحاصرته الأحزان والفِكَرُ ؛ لفَّ رأسه بالشال الأبيض والذي كان قد جاء به من أرض الحجاز منذ زمن ، ثم يضع رأسه بين رِجليه بعد أم يكون قد جلس القرفصاء .
مَنْ يا ترى كان السبب في آلام الشيخ الوالد وأسرته ؟ هل هو أنا ؟ أم تراه يكون الأزهر وشيوخه ؟
أم لعلها تكون بنت المقدس سمعان ؟ ربما كانت تلك الجمرة المتّقِدة في تلافيف رأسي هي السبب ؟
أظن أن كل تلك الأسباب مجتمعة صحيحة أيضا !
على أيّة حال غادرتُ السنترال وكنت قد نسيت أن أخبر خالد بمارثا ! انشغل العقل والقلب بحالة الشيخ الوالد فنسيت كا جئت السنترال من أجله .

لما عدتُ إلى " ريش " أخبرتهم بالذي كان وكيف أنني نسيت قصة مارث وان على أحدهم أن يتولى تلك المهمة غيري .
لا أتذكر من الذي اتصل بخالد وأخبره غير أني فوجئت بالأستاذ " خالد " ذات مساء وقد توسط أصدقائي جالسا في مقهى ريش .
انطلقت ناحيته تدفعني الفرحة كالسهم وحضنته طويلا .
عرفت منه أنه قد وصل القاهرة منتصف النهار وكان في استقباله " فريد " والذي اصطحبه إلى حديقة الأزبكية ليلتقي مارثا هناك بصحبة إيفا . كان اللقاء بحبيبة عمره حدثا تتوقف أمامه كل حكايات العشق المبهرة . قلت للأستاذ خالد : وماذا بعد ؟ قال :
- لقد اتفقتُ ومارثا أن لا نفترق ثانية ولا نترك لأحد فرصة كيما يفرقنا عن بعض وأن نقدم كل التضحيات لبقائنا الدائم معا .
قال خالد فيما قال أيضا : أنا عرضت على مارثا أن أعتنق المسيحية ومستعد أن أتوجه لأقرب كنيسة أو دير وأتعمّد فيه ، وأما هي فقد قالت : وأنا مستعدة أن أتوجه للأزهر وأشهر إسلامي هناك (ثم أضافت) المهم أن نبقى معا وأما مسألة الدين فهي مسألة شكلية لا أكثر ولا تهمنا في شيء .
أخبرني خالد أن الشيخ الوالد يعيش حياته بين الناس بشكل طبيعي بعد أن كان قد تبرّأ مني أمام الناس غير أنه – كما قال خالد – يكتم حزنه المرير في قلبه .

سألت خالد عن المهندس يعقوب اليهودي فقال : سأزوره غدًا وأتمنى أن تكون معي يا شيخ أحمد حتى تتعرّف عليه .
في اليوم التالي كنت وخالد في منطقة حي الموسكي متجهين لحارة

اليهود ومن ثم إلى درب نصير
في طريقنا مررنا بمعبد " حاييم كابوسي " . أول مرّة أدخل حارة اليهود رغم تردد اسمها على سمعي كثيرا . خالد استوقف عجوزا وسألها عن بيت المهندس يعقوب صادق أفندي . أشارت العجوز لمبنى قريب جدا من مكاننا ، قلت لخالد : حضرتك عارف البيت ؟ قال لي : نعم ، بس حبيت أتاكد .
طرق خالد الباب . فتاة في مقتبل العمر تعرف من لون بشرتها أنها نوبية فتحت لنا الباب .
- المهندس يعقوب موجود ؟
- اتفضل يا سيدي ، أقول له مين حضرتك ؟

- أنا الأستاذ خالد من المنيا ومعي صديقي الشيخ أحمد .
غابت النوبية دقيقة ثم عادت لتقول :
- اتفضل يا سيدي .

دلفتُ وخالد للداخل . أشارت الفتاة لنا فدخلنا الحجرة الموجودة على يسار الداخل - حجرة الجلوس - والتي كانت مفروشة بطقم من الفوتيه الأنيق وطاولة تتوسط الحجرة من الأبنوس العتيق .
مضى وقت ثم جاء المهندس يعقوب . وجه منبسط وصوت رخيم ، رحّب بنا كأنه يغني مقطوعة رومانسية . تعبق من ثيابه النظيفة رائحة بارفان مريحة للنفس . فوق عينيه الدقيقتين توجد نظارة طبية عرفتُ فيما بعد أن طبيب العيون الأشهر في لبنان " جاكوب بيك " هو الذي أشار عليه بها .
أهم ما أذكره في لقائي بالمهندس يعقوب أنه عرّفني بجاره اليهودي

والذي تجاوز العقد الخامس بأيام قليلة وقد دخل علينا حسب موعد سابق بينه وبين المهندس .

لم يهتم خالد بجملة كان يعقوب قد قدّم بها جاره لنا :

- أعرّفكم بالأستاذ " إيزاك " الغنوصي .

كنت قد قرأت عن الغنوصية والغنوصيين في كتاب كنت قد استعرته من مكتبة القمص " فادي " والد " هيلانه " . كان المهندس يعقوب يتبع طائفة اليهود القرّائين وهي الطائفة الأكبر في مصر ، أما اليهود الغنوصيين فلم أكن أعرف أن أحدا منهم هنا في حارة اليهود .

تركت المهندس يعقوب وخالد وانتحيت منفردا على الكنبة الفوتيه بالغنوصي " إيزاك " والذي بادرني : أهلا بك يا شيخ أحمد ، هل تدرس في الأزهر ؟

قلت له : لقد كنت طالبا في الأزهر .

قال متعجبا : كنت ؟! تقصد إيه يا مولانا بـ كنت ؟

- أقصد أنني كنت أدرس بالأزهر حتى صدر فرمان من مشيخة الأزهر بطردي منه بعد تكفيري وإخراجي من دولة الله .

قال (ضاحكا) : وهل لله دولة أو وطن ؟! (ثم استأنف) : الله يسكنك كما يسكن النبي والوليّ كما أنه يسكن الوثني الذي يعبد الله في الحجر .. أنا وأنت لا نحتاج لكاهن او حتى لنبي ، نحن نحتاج أن نغمض أعيننا وننظر لداخلنا فنبصر الله هناك ينتظرنا .

لما سألت " إيزاك " : وكيف هذا ؟ قال لي : سوف أحكي معك فيما بعد .

جاءنا صوت الخادمة من مكان ما في بيت المهندس : (الغدا جاهز يا سيدي) فنهض يعقوب واقفا ودعانا للخروج إلى صالة البيت حيث

طعام الغداء وقد أُعِدَّ . تحلقنا أربعتنا حول طاولة متوسطة دائرية الشكل . أذكر أن الطعام كان شهيا ولما قلت ليعقوب : تسلم الإيد اللي طبخت ، قال :

- تسلم إزاي وتسيب الدين اليهودي يا مولانا ؟!

ضحكنا جميعا . كنت مشغولا بلقاء " إيزاك الغنوصي " كما وعدني وأرجوه اقترابًا .

****

الورقـــــة 34

في ميدان نهضة مصر بشارع الملكة نازلي وقفتُ أحدِّق في ساعة يدي والتي كانت " إيفا" قد أهدتني إياها في مناسبة لم أعد أذكرها ! من المفروض أن الأستاذ " إيزاك " سوف يصل الآن بحسب موعده معي . رفعت رأسي لأجده آتياً من ناحية شارع [كلوت بيك] .

- هل تاخرتُ عليك ؟

- لا . الساعة 3 بالتمام .

مد يده فصافحته ثم تأبطني متوجها ناحية (حي الظاهر) . اخترقنا الشارع ومررنا بمبنى قديم

- هذا معبد [كرايم] اليهودي وبعدها سوف نمر بمعبد [حنان] لننعطف لليسار قليلا لنجد مقهى يوسف والمواجه لإحدى الكنائس العتيقة (قال) :

الغنوصية هي أن تتعرف بروحك النقية على الله . أن تترك داخلك

يستشرف وجوده وحضوره المدهش . معرفة الله من الخارج معرفة كاذبة .
أذكر أنني لثاني لقاء بالأستاذ " إيزاك " تعرفت منه " أن الإنسان يستطيع أن يتصل بالله مباشرة دون أن يحتاج إلى وسيط كالوحي أو النبي . فقط الاتصال بالله يحتاج إلى رياضة روحية وجسدية قائمة على التقشف والزهد وهجر اللذات بكل أنواعها والاكتفاء بقليل من الطعام والجنس"
" الرياضة الروحية من تأمل عميق وممارسة العزلة الشعورية عن تفاهات العالم وأدرانه من حولنا تكفيان للاتصال بالله" .. " الله نكتشفه بالوجد والكشف الصوفي لا بالاستدلال والفقه وغيرهما ".
قال لي فيما قال : " نظرية شعب الله المختار اخترعها اليهود ولا علاقة لها بالله بل هي بالحري العنصرية في أوضح صورها . إن الإنجيل في تعاليمه أقرب إلى الله من أسفار كثيرة في العهد القديم" .
قلت له : أنت يهودي وتقول هذا ؟!
قال بيقين : " نعم ، الغنوصي يرفض تعصب اليهود . يجب أن نزيل صورة الله التي تكونت في أذهاننا نتيجة لتعاليم الكهنة والفقهاء من كل الأديان ، لقد جسّدوا الله وجعلوه فوق ينزل كل ليلة أو تحت أو هناك . إن عبارات مثل تلكم لا معنى لها " .
- إذن أين الله ؟ (سألته)
قال بحسم : " الله داخل الإنسان " (ثم أكمل متسائلًا) : " هل الصورة القائمة في أذهاننا عن الله جعلتنا نحب بعضنا البعض " ؟ (أجاب هو على نفسه وقال) : " الحقيقة أن الصورة المترسخة في عقولنا عن الله نتيجة إيماننا بتعاليم ورثناها عن آبائنا وتلقيناها

بالقبول دونما تمحيص لهي التي بثّت الكراهية بيننا نحن البشر .
قال لي الغنوصي فيما قال : " من الممكن يا شيخ أحمد أن تجد صورة متماثلة عن الله عند ملايين من البشر وصورة أخرى عند ملايين آخرين . العقل الإنساني قد ينحاز لفكرة وجود إله مفارق للبشر ويسكن السماء أو الفضاء ، ونفس العقل قد يكون جاهزا للانحياز لفكرة عدم وجود إله !
غير أن المهم : أن يكون قلبك مستعدا لعدم إدانة المختلف عنك في إيمانك "
" إن ظاهرة التسامح يجب أن تكون هي المتصدرة حياتنا كيما نحسّ بوجود الله الحقيقي في داخلنا"
هل تعلم يا شيخ أحمد أن حروب المتدينين كانت مع متدينين أمثالهم ؟!

" إن الذي قتل (غاندي) الهندوسي كان هندوسيا مثله ! هل تعرف لماذا ؟ (يكمل) " لأن غاندي دعا الهندوسيين لاحترام حقوق المسلمين ونادى بالمحبة للجميع "
" إن علينا أن نطرح دائما على أنفسنا تساؤلات من نوعية : هل أصحاب الأديان أكثر سعادة من غيرهم " ؟
" هل من الممكن أن يوجد بيننا تسامح في ظل وجود إيماننا بتعدد صور الإله " ؟
" هل يمكن أن توجد المحبة ويعم السلام في حالة الإيمان بعدم وجود إله " ؟
" إن الله – يا شيخ أحمد – إذا ما تصورناه داخل التاريخ البشري فإنه

يستحيل إلى فكرة متغيرة ومختلفة وإذا ما تصورناه خارج التاريخ فإنه يَكُون فكرة مطلقة "

كنت قد هممت أن أسأل " إيزاك " : هل الله يأمر بالقتل ؟ غير أنه وكأنه سمع السؤال يتردد داخلي

فأجابني : " لا ، فمن المفترض أن الله هو المسئول أمام ذاته عن حماية مخلوقاته وبما أن الإنسان هو أهم تلك المخلوقات فمن العبث أن يأمر بالقتل "

التفت ناحيتي وسألني :

- هل الله مُطْلَق أم هو نِسْبي ؟
- مطلق .
- هل الأديان نسبية أم هي مُطْلَقة ؟
- الأديان نسبية .

قال بيقين غريب :

" الله مطلق لأنه فوق الأديان ، والأديان بما أنها نسبية إذن فمن الممكن أن نغير في علوم العقيدة . لماذا ؟ لأن هناك فرق بين الإيمان والعقيدة ، العقيدة نسبية والإيمان مطلق لذا فإن مكانُه القلبَ ، بعد الإيمان بالقلب يأتي دور العقل الذي عليه أن يحدد مبادئ الإيمان " " الإيمان – يا مولانا – بالقلب والمعتقد بالعقل ؛ وبناء على هذا فإن علوم اللاهوت وجب تغييرها

كل فترة بما يخدم الإنسان "

****

الورقـــــة 35

مساء هذا اليوم ؛ التقيت كالعادة بالأصدقاء على مقهى (ريش) بالإضافة إلى الوجوه الجديدة " خالد ومارثا وماريان " . كانت عينيَّ تبحثان عن " هيلانة " . قال " فريد " موجها كلامه لي :

- " هيلانه " اعتذرتْ ومش هاتقدر تيجي الليلة (ثم أضاف) هيلانه تقريبا مريضة .

أُسقِط في يدي وقلت في نفسي : " الحَمْلُ " ! ماذا أفعل في تلك الكارثة ، هيلانه حامل ، أعرف هذا ولكن ثم أما بعد ؟!

انتحيتُ بمارثا جانبا وحدثتها بقصتي مع هيلانه لعلي أعثر لديها عن حل غير أني فوجئت بأن مارثا

تعرّفتْ على الحكاية كاملة من هيلانة التي وثقتْ بها وبثتْ لها حزنها الكبير .

قالت لي مارثا ساعتها : أنا عندي إحساس كبير إن والدتها هاتتصرّف .

لا أعرف كيف تسرّب هذا الاحساس إلى مارثا والتي حاولت أن تنقله لي غير أني كنت أشك في ذلك

وكنت أتلوّى ألماً لما تعانيه هيلانة بسببي .

قمنا جميعا متّجهين صوب مسرح الأزبكية لحضور حفل أم كلثوم والتي أذكر أن الأستاذ "خالد" هو

صاحب تلك العزومة حيث كان قد اشترى تذاكر الحفل منذ يومين .

اليوم الخميس 3 يناير 1952

تغني السيدة "، إذاً كيف أفعل هذا و " هيلانة " في عالمها تعاني عتمة المستقبل ؟!

أصرّت " مارثا " أن أكون معهم وما كنت أدري سببا لإصرارها هذا إلا عندما سقط بصري على السيدة " إستير " وبجوارها هيلانة زائغة العين وكأنها تخشى من غياب عزيز لديها في باحة المسرح وسط الحُضور الغفير منتظرَيْن الدخول للمسرح .

" فريد " نظر ناحيتي وقال معتذرا : انا آسف ، صدّقني يا مولانا ، هيلانه هي اللي قالت لي إنها مش هاتقدر تيجي ريش !

كانت " مارثا " قد حصلت من "خالد " على تذكرتين وقدمتهما لهيلانه على أن تحضر معها أمها .

كنت سأندم لو لم أحضر حفل الليلة . السيدة إستير مدّت يدها تصافحني قبل أن أصافح هيلانة بعينيّ

المتلهفتين لرؤية محياها .

كان الحفل رائعا ولم يعكّر صفوه غير غير أنه أثناء خروجنا فوجئ الجميع بشاب لم يتجاوزالعشرين

يقف بجواره رجل من رجالات الجيش المصري يقوم بتوزيع منشورات حصلتُ على واحد منها وقرأت : " أيها المصريون الأحرار ، إن الجيش المصري لن يستطيع أن يؤدي واجبه الوطني في القضاء على الاستعمار إلا بعد أن يطهّر صفوفه من الخونة أعداء الوطن .

أيها الأحرار :

قريبًا سوف نطهّر مصر من الفساد فانتظروا إنا معكم من المنتظرين "

توقيــع

الضبــاط الأحـــرار

لم أتفاءل وأنا أقرأ المكتوب في المنشور والمكتوب في المستقبل ؛ فأنا أشعر أن خلف كل جنرال كارثة ما ، وما كنت يوما مؤمنا بأي دور سياسي يلعبه رجالات الجيش والسلاح .
وضعتْ هيلانة يدها في يدي وضغطت عليها كأنها تودعني .
عصرا يوم السبت 26 من نفس الـ يناير فوجئت بفريد يصرخ فوق رأسي يوقظني وكان قد كسر باب الشقة ويصيح : إصحى يا أحمد القاهرة مولعة نار .
لما فتحت عينيَّ المجهدتين رأيته واضعا يديه على رأسه مولولاً صارخًا :

- بيحرقوا القاهرة يا أحمد ... خلاص .. مصر انتهت ..
لما فتحتُ شباك غرفة النوم المطل على الشارع ؛ كان الدخان الأسود قد غطى سماء القاهرة تماماً
الناس تجري في الشارع هائمة على وجوهها كأن القيامة و قد قامت .
لا أعرف لماذا تذكرت الضابط الذي كان يقف بجوار الشاب صاحب المنشورات ؟!
وضعتُ قدميَّ على عَجَلٍ في حذائي وانطلقت تاركا باب الشقة مفتوحا إلى الشارع بصحبة " فريد "
والذي كان أكثر مني توترا وهلعا .
أذكر أن الخوف كان يسيطر على الجميع والذين نزلوا للشوارع يحتمون ببعضهم البعض .
في نهاية نهار هذا اليوم العصيب كان الجيش المصري قد سيطر على الأوضاع تماماً (!)

بعد أن كانت وزارة الوفد قد استقالت أو أُقيلت .
توالت بعد هذا اليوم أحداث مؤسفة ، قال لي الأستاذ " خالد " لما سألته عن أخبار المهندس يعقوب
- لقد سافر مضطرا إلى فلسطين . قلت لخالد : لقد كان يعقوب رافضا كل دعاوي الهجرة لإسرائيل
مصرا على البقاء في وطنه مصر . قال خالد وقد اكتسى وجهه حزناً :
- للأسف ! الإخوان بمساعدة بعض الضباط في الجيش قاموا بالضغط عليهم عن طريق حرق منتدياتهم وبيوتهم مما جعل الكثيرين من يهود مصر المخلصين يهاجرون إما إلى فلسطين وإما إلى فرنسا .
عرفت أن " يعقوب " اصطحب أسرته لفلسطين لعجزهم عن السفر لفرنسا ، وأما " إيزاك " الغنوصي فقد سافر إلى فرنسا للأبد .
كانت الأخبار عن يعقوب وإيزاك محزنة بالنسبة لي ، فقد أحببتهما وتمنيت أن يبقى أمثالهما في مصر كيما يساهما معنا في تنوير العقول ومساهمة في نهضة مصرية كنت أنا وأصدقائي الريشيين نلمحها تتشكل في رحم أرض مصر تتويجا لثقافة أشعلها طه حسين ولطفي السيد وشبلي شميل وكثيرون .

****

الورقـــة 36

خمسة أيام وأنا ملازم الفراش . تقيّأتُ اليوم دماً . كنت قبل خمسة أيام قد ذهبتُ للمحل الذي أعمل به فوجدت لا فتة مشرعة في وجهي " المحل مغلق إلى أجل غير معلوم " !

صعدت الدور الثاني لأسأل عن هيلانة في شقتها فقالت لي الخادمة : مش موجودة يا شيخ أحمد .

سألتها : متى ستعود ؟ فقالت : مش عارفه والله .

تقيأتُ دما ثانية وواصلت التدخين بشراسة متحديا تعليمات الطبيب . ذهبت إلى مقهى " ريش " فلم اجد أحداً من الأصدقاء . سألت النادل عن فريد : فقال لي : " البوليس يأتي كل يوم هنا ويقبض على أُناس لا جريمة لهم (ثم أضاف) : تقريبا الأستاذ فريد من ضمن المقبوض عليهم "

في طريق عودتي وجدت الأستاذ " خالد " مذعورا ولما سألته قال لي : "مارثا ! .. مش لاقي مارثا يا شيخ أحمد " . هدّأتُ من روعه وقلت له : " ربما تكون راحت مع ماريان هنا ولا هنا أو تكون مع إيفا .. لا تقلق يا أستاذ خالد "

أقنعته أن يرجع معي لشقتي غير أنه في منتصف الطريق توقف وقال : ما يقلقني يا شيخ أحمد أنني نسيت أن أقول لك أنني علمت من قريب لي في مغاغة – عن طريق التليفون – أن أهل مارثا يبحثون عنها هنا في القاهرة " . انطلق خالد عائدا قائلا : " سأعود لأبحث عن مارثا في كل مكان"

خمسة أيام وأنا هنا معزول عن العالم . تحاملتُ على صحتي المعتلّة وصعدت لأسأل على هيلانة.

لم أجد أحدًا حتى الخادمة ، ترى أين ذهبوا ؟! فكّرتُ أن أذهب للكنيسة التي يخدم فيها القمص " فادي " فأسأل عن هيلانه . غيّرت ملابسي واتجهت للكنيسة . سألت أحد الشمامسة عن القمص " فادي " فابتسم وقال : لقد سافر إلى إنجلترا مع أسرته لزيارة أخيه هناك .

متى سيعود ؟ (سألت) . " الكنيسة قد عينته كاهنا للكنيسة الأرثوذكسية هناك وبالتالي فلا مبرر لعودته ثانية " كان الخبر صاعقا . أُسقط في يدي . صرخت في قلبي ورجعت أتأبّطُ المرارة . توقفت في الطريق لأنزف هذه المرّة من أنفي . قلت لنفسي : هل تتسابق قطرات دمي للهروب من جسدي

فما عاد يكفيها الهروب من فمي فصارت تحفر طريقا آخر من أنفي ؟!

بدت لي القاهرة شبحية

صارت مدينة أشباح . عدت لسريري مرة أخرى .. مرّت أيام ولا خبر عن خالد ومارثا ، هل وجدها أم أن أهلها قد سبقوه إليها ؟ هل خرج فريد من سجنه ؟ ربما أنه سوف يخرج في أي وقت .

وأما " هيلانه " فإن الحياة بدونها باردة ومستحيلة ، كنت أتدفأ في الحياة بوجودها ، أما وقد غابت من المشهد فلا أجد مبررا لبقائي هنا على الأرض . غابت أمي الحاجة " سعدية " منذ زمن وغاب الشيخ الوالد في صمت لليالي قرية الجبل الغربي . رحل اليهوديان " يعقوب " و " إيزاك الغنوصي " للأبد . لا خبر يجيء عن خالد أو مارثا وأما ماريان بنت المقدس سمعان فربما عادت من حيث جاءت . لا مبرر إذن لوجودي هنا . فتحتُ نافذة غرفتي لألقي على الشارع نظرة أخيرة . طفلة صغيرة حافية كانت تمر من تحت الشباك باكية فاستوقفتها

ريثما أعود . جمعتُ كل ما معي من نقود وصررتها في كيس بلاستك وناولتها للطفلة الباكية الحافية . ابتسمتُ لما ابتسمتْ هي .
أغلقتُ النافذة ووصلتُ السرير منهكا ثم ارتميت فوقه . اعتدلتُ على ظهري وابتسمت في فراغ غرفتي ثم قلت بصوت مسموع : " أي حياة تلك التي جئتها مرغما وعشتها مرغما وها أنا ذا أتركها مرغما ؟! ما الذي جاء بي إلى هنا ؟
سَرَتْ في أصابعي ارتعاشة جعلت القلم يسقط من يدي مرتين . صرت غير قادر على الكتابة .

البرودة تتخلل جسدي ببطء . أعرف ماذا يكون هذا ، إنه الموت ، يستيقظ داخلي بخبث شديد .
الآن سوف أضع القلم بجواري وأنام للمرة الأخيرة .

****

تحكي فاطمة وتقول : أن " مروان " ظل مدة محبوسا في غرفته يقرأ مذكرات عمه أكثر من مرّة
كنتُ ادخل عليه فأضع بجواره الطعام والقهوة ثم انسحب متسللة حسب تعليماته لي (تقول فاطمة)
كنت احدِّق في وجهه كل مرة فاجده قد ازداد شحوبا . مرة لمحت عينيه وقد احمرتا من كثرة البكاء
وما كنت استطيع ان أسأله .
لم يكن " مروان " يسمح لـ " فاطمة " أن تحادثه أو حتى تسأله عمّا يعتريه وهو يقرأ أوراق عمه.

أو [المذكرات الملعونة] حسب تعبيرها . مرّة لمحَتْه وهو خارج من الحمام خلسة كأنه شبح . صار مروان عظمة يكسوها جلد .

- كنت انتحب وحدي كل ليلة (تقول فاطمة) وأمنِّي نفسي قائلة : إن مروان سيضع بنفسه حدا لهذا العذاب .

كانت حروف أوراق العم قد استحالت إلى براكين وقد انفجرت في خلايا عقل " مروان " وطالت قلبه وروحه فتحول خلال أيام إلى كائن آخر .

الحقيقة أن التحول بدأ ببطء مع بداية اعتكافه مع أوراق عمه ثم بدأ التحول يتسارع حتى أن مروان لمّا حدّق في مرآة الحمام لم يتعرف على وجهه (من هذا ؟) هتف مرة في الحمام وهو يبحلق في المرآة .

لم تكن فاطمة تدرك أن " مروان " كان يتقمص عمه الشيخ أحمد وهو يقرأ في أوراقه المشحونة بالألم والعبث . كان مروان يرتدي أحيانا عمامة في عزلته كعمه وكان يسعل كما كان يسعل عمه . تقول فاطمة : كأنه قد أصيب بمسّ جعله يتكلم مع أشخاص لا أعرفهم ، فريد .. مارثا

هيلانة .. ماريان .. خالد .

ظنّت " فاطمة " أن لغزاً في تلك الأوراق الملعونة . لعلها تكون أوراقا من السحر الأسود الذي قرأتْ عنه في إحدى المجلات المترجمة أيام مغاغة ! كانت تتساءل :

- هل كان عمُّ مروان مشعوذاً ؟ هل كان ساحرا أو دجالا ؟ لعله كان مهرطقا ؟!

كانت تتساءل وكانت تكتم مرارة الاسئلة وأما دموعها فكانت غير كافية لتخفيف ألمها الشديد .

في اليوم الاخير من الأسبوع الثاني ؛ خرج " مروان " نشيطاً ومتهلّل الأساريرعلى غير المتوقع
حلق ذقنه . فرحت فاطمة ونادته مرة ومرتين ولم يرد عليها . واصل تحرّكه في الشقة من الحمام إلى حجرة النوم وكأن لا أحد معه كان تارة يغني أغنية لأم كلثوم وتارة أغنية لعبد الوهاب . حزن فاطمة تحول إلى دهشة مخلوطة بالفرحة والخوف . ارتدى مروان بنطاله وهو يردد أغنية . تأكّد أن المحفظة في جيبه . لبس حذاءه أولا ثم ارتدى قميصا مشجرا . وقعت عيناه على علبة المصحف الأنيقة . أخرج منها المصحف ودسّه في حقيبة أورا ق عمه القديمة وطوّح بها بعيدا فوق الدولاب.
وضع أوراق عمه في العلبة الأنيقة ثم فتح باب الشقة وخرج دونما أن يلتفت لفاطمة التي نادته كثيراً . دقائق وكان يزرع شارع القصر العيني بخطوات واثقة . اخترق ميدان التحرير متجها لشارع طلعت حرب . لحقت به فاطمة في منتصف الشارع فالتفت لها مبتسما . لما سألته عن وجهته قال وقد أشار لمقهى " ريش " مبطئا من خطواته :
- لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي *** إذا لم يكن ديني لدينه دان
واليوم صار قلبي قابلا كل صورة *** ....

****

انتهى